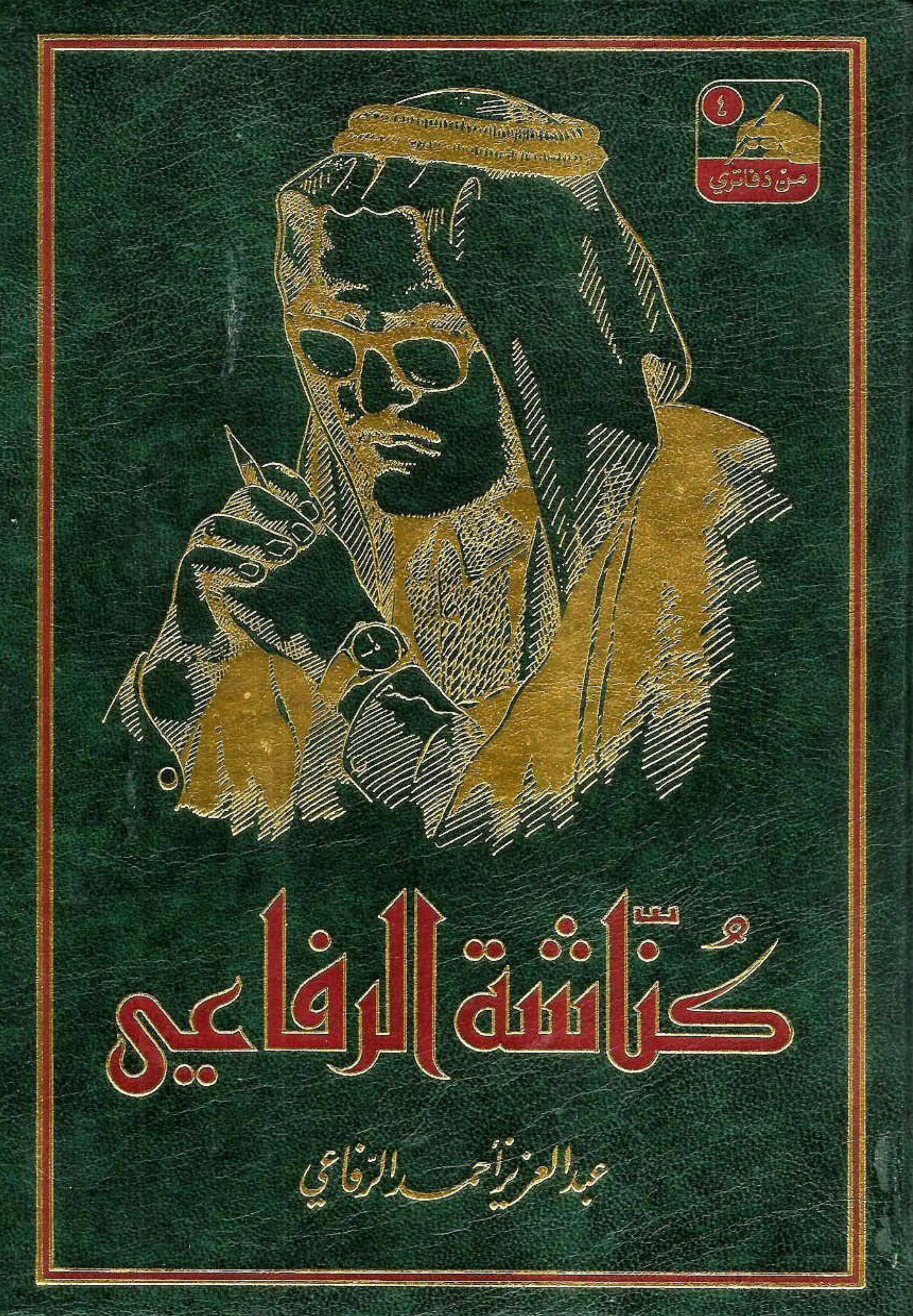
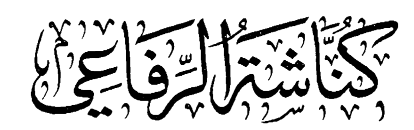
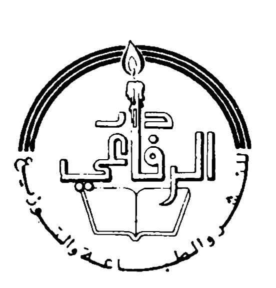

٤
من دفاتري
كناشة الرفاعي
عبد العزيز أحمد الرفاعي

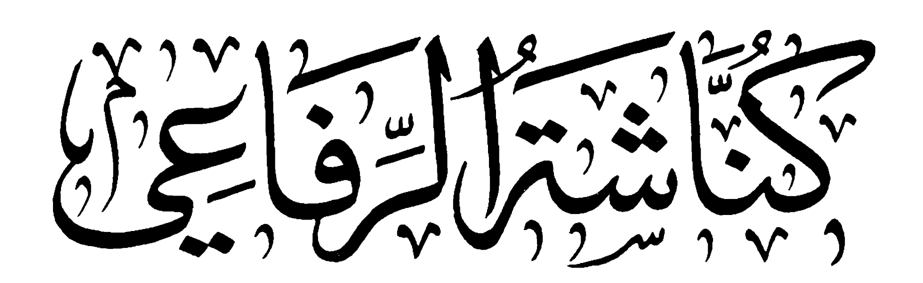

كناشة الرافعي

الطّبعَة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م



دار الرفاعي
للنشر والطباعة والتوزيع
ص.ب : ١٥٩٠ ـ الرياض ١١٤٤١ ـ تليفون : ٤٧٨٨٨٣٣
تلكس : ٤٠١٣٦٧ (الفرات) ـ فاكسميلي : ٤٧٩٤٣٢١
المملكة العربية السعودية



عبد العزيز أحمد الرفاعي



ح
دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع ، ١٤١٥هـ .
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
الرفاعي ، عبدالعزيز أحمد
كُنَاشة الرفاعـي.
... ص ؛ .. سم
ردمك ٥ - ٥٠-٦٦٢-٩٩٦٠
١- الأدب العربي - مجموعات ٢ - السعودية - المقالات العربية
أ - العنـوان
ديوي ٨١٠٠٨ ١٥/٢٠٦٣

رقم الايداع : ١٥/٢٠٦٣
ردمك : ٥-٥٠-٦٦٢-٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

كلمة الناشر

شرعنا (في دار الرفاعي) في إعداد هذا الكتاب للنشر في شهر رمضان المبارك من سنة ١٤١١هـ ، ولكن حالت أولويات أخرى - آنذاك - دون إنجازه ، ثم جاءت في الطريق عقبات أخَّرَتْ صدورَه ... ولم يَدُرْ بخلدنا - ومن طبيعة البشر الغفلة والنسيان - أنَّ يَدَ المنون ستخطف منا المؤلف - يرحمه الله - قبل أن تُقال عثرةُ الكتاب الذي كان - طيب الله ثراه - حريصاً على (أن ينجز في أقرب وقت متاح دون أن يكون هناك ضغط على ظروف « ... »)[1] المتعاون مع الدار في تنسيق أوراقِ رائدها - يرحمه الله - وإعدادِها للنشر ؛ وهذه - نعني تقديرَ ظروف الآخرين - دُرَّةٌ أخرى من الدرر التي ينتظمها عقد السجايا التي كان يتحلى بها الفقيد - عليه سحائب الرحمة والرضوان - .

كان الفقيد قد كتب مقدمة مختصرة [2] عرَّف فيها معنى الكُنَّاشة بما يجلو للقارىء سبب اختيار هذا الاسم لعنوان الكتاب ؛ وقد قال في رسالته المشار إليها آنفاً: (سأغيِّر - إن شاء الله - المقدمة بعد أن يتم إعداد الكتاب في صورته النهائية) . ونظراً للظروف المشار إلى بعضها آنفاً فقد

---

(١) من رسالة للفقيد - يرحمه الله - إلى الدار (بشأن الكتاب) أرسلها من آخن بألمانيا في ١٥/١٢/١٤١٢هـ .

(٢) انظر صفحة ١٣ - ١٤ .

تأخَّر إعداد الكتاب « في صورته النهائية » حتى لحقت الروح الطاهرة ببارئها - بل حتى مضى على ذلك أكثر من عام - فألقت إلينا المقادير بهذه التَّبِعة العظيمة .. (نعني كتابة مقدمة له) !

لقد جرت العادة أن يُقَدِّمَ الكبارُ لمؤلَّفات الآخرين .. أما أن يحدث العكس فهذا ما لم يكن في الحُسبان ؛ ولله الأمر من قبل ومن بعد .

نقول هذا لنشير إلى ضخامة المسؤولية وجسامة التَّبِعَة وعظم الأمانة التي نستشعرها، ونحن نكتب هذا التقديم بين يدي « كُنَّاشة الرفاعي » رحمه الله وأجزل مثوبته ، لا لنقدم لها بل لنحكي للقارىء قصتها وما كان من أمرها ..

فمن قصتها - إضافة إلى ما سلف - أنه جاء في الرسالة المذكورة قوله - رحمه الله - :

« .. وقد بدا لي فيها ما يلي :

١ - أن أسميها (كُنَّاشة الرفاعي) لئلا يلتبس أمرها مع غيرها من الكُنَّاشات » .

فهو - يرحمه الله - الذي سمّاها ، وبيّن سبب التسمية .

وجاء في الرسالة أيضاً :

« ٢- أن أقتصر الآن على ما يتعلق بالأعلام فقط ، أي يكتب تحت العنوان (مجموعة الأعلام) ، ثم يُؤجَّل الباقي ليُضم إلى أمثاله فيما بعد - إن شاء الله - في مجموعات أخرى متشاكلة » .

وقصة هذا البند من الرسالة أنه كان - رحمه الله - قد اختار لترتيب هذه الكُنَّاشة - أو الكُنَّاشات - ماهي عليه الآن ، لوجود علاقة بين الكُنَّاشة الأخيرة من كل مجموعة والكُنَّاشة الأولى من المجموعة التي تليها . ثم بدا له - يرحمه الله - كما جاء في الرسالة ، أن يقتصر على

مجوعة الأعلام ، وطُبعت بالفعل وحدها ، وطَلَبَ في رسالة مؤرخة في ١٤١٣/١٢/١٢هـ أن تُجهز وتَبقى لحين عودته .. فلما اختاره الله تعالى إلى جواره ، ولَمَّا تَصْدُرِ الكُنّاشة (مجموعة الأعلام) بَعْدُ ، عدنا إلى اختياره الأول .

وبعد .. فهذه « كناشة الرفاعي » - رحمه الله وأعلى درجاته في جنات النعيم - التي كانت قد نُشِرت مُنَجَّمة في (المجلة العربية) ، وهذه بعض قصتها ؛ وكُلُّ ما نرجوه أن نكون قد قمنا بما يجب علينا من إخراجها إخراجاً أميناً ، وأن يكون في ذلك أداءٌ لبعض دَيْنِهِ الكبير - يرحمه الله - في أعناقنا ..

والله من وراء القصد .

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد العزيز أحمد الرفاعي

ص.ب : ١٥٩٠

الرياض

/ / ١٩٨٠م

٥/١٢/١٤٠٢هـ آ جزء

سعادة الأخ الكريم الدكتور بهاء عبد الرحمن سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، صحبت معي هذه الكناشة، وتيسرت فرصة عابرة لدي لأعمل ما استطعت من مطالعتها، كلي تحيلها منه إليكم .. وقد بدا لي أن ما يلي:

١ - أن اسمها (كناشة الرفاعي) لئلا يلتبس اسمها مع غيرها من الكناشات.

٢ - أن يقتصر أمرها على ما يتعلق بالأعلام فقط. أي يكتب تحت العنوان (مجموعة الأعلام) ثم يؤجل الباقي ليضم إلى مثله فيما بعد إن شاء الله في مجموعات أخرى متشاكلة.

٣ - رأيت أن بعض النصوص يعتورها النقص أو الغموض، أو التشويه عند التصوير لذلك رأيت تتبع الكناشات الأولى في مصادرها الأصلية. وتتبع بعدها أما لدينا ولعل فيها من الأستاذ محمد القاضي، فهذا يرجع إلى مكتبة المكتبة في لدينا.

٤ - نسقت مجموعة كبيرة من الأعلام، وصنفت وحذفت وأضفت فيما رأى كل ذلك.

٥ - أتمنى أن تسند المهمة للأستاذ عبد الله الحيلان، ليتولاها في بيته، لتكون حرة في وقت مراجعتها.

٦ - شاء عبد الله شاء الله المتقدمة فعند ذلك يتم إعداد الكتاب في صورته النهائية.

٧ - يجعل للكناش بابا خاصا للعادات فهرس آخر أنها في الأعلام المترجم لا فقط.

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد العزيز أحمد الرفاعي

ص.ب : ١٥٩٠

الرياض

/ /١٩٨٠م

/ /١٤٠٠هـ

٢

٨- الأعلام التي لها صور فوتوغرافية أو خرائط، تؤخذ الصور من المجلة، لتنزل في الكتاب نفسه تماماً.

٩- عند تسليم بعض الصفحات عليكم من (الأعلام) ترجى إلى الأستاذ الكيلاني لتصوير هذه المراسلات.

١٠- هناك ملاحظات كتبت ودونت في الصفحات التي تسبق المقال للضرورة، فأرجو أن تؤخذ بعين الاعتبار.

١١- نرجو أن يلقى أية ملاحظات منكم أو من الأستاذ الكيلاني.

١٢- كما نرجو أن ينجز الكتاب في أقرب وقت متاح، ونرجو أن يكون هناك فقط عن طريق الأستاذ الكيلاني.

هذا ما بدا لي الآن، والله يرعاكم

أخوكم

(توقيع)

المقدمة

هذه مقالات كنت أعدها للمجلة العربية أخصها بها ٠٠ أدوّن فيها عبر الأيام - وبمدد من الله وعون - ما يعنّ من ملاحظات وتعقيبات على وقائع الفكر والأدب ، أو ما أقرأ في الصحف والكتب ، أنقل إليه من دفتري الذي أقيِّد فيه الفوائد والشوارد ، وهذا هو معنى الكُنَّاشة بتشديد النون مع ضم الكاف قبلها ٠

والكلمة غير عربية الأصل ، ولكنها مولّدة ، وقد تبدو غريبة لدى بعض القراء ، ولكن الزبيدي أوردها في (تاج العروس) ٠

كما أن الصحافة السعودية عرفتها واستعملتها ، وإن لم تخني الذاكرة فإن أول من استعملها الأديب عبدالله الخطيب ، ولعله فعل ذلك في (صوت الحجاز) أو (البلاد السعودية) ، ومهما يكن الأمر فالصحيفة الثانية جاءت امتداداً للأولى التي كانت هي أيضاً امتداداً لجريدة (بريد الحجاز) التي صدرت أول ما صدرت في جدة في العهد الهاشمي ، وهذه الصحيفة هي التي استقر اسمها فيما بعد على (البلاد) ٠

أما من أين جاءت كلمة (الكُنَّاشة) ؟ وكيف ولدت أو تولدت ؟ فذلك ما لا ندريه ، غير أن الزبيدي يقول إن الإخوة المغاربة يستعملونها ، فلعل عند الإخوة في المغرب الخبر اليقين ٠

ولكني وقفت في كتاب (بلاد شنقيط) تأليف الخليل النحوي ، في ص ١٥٢ منه على هذه المقولة :

« وأضعف الإيمان لمن لم يستطع اقتناء الكتب أن يكون للفتى

كُنّاش ، أي كتاب جامع يدوّن فيه الفوائد والنوادر والشواهد ، فتجده باقة أزهار ملونة فيها من كل شيء .

ومن الأبيات الشعبية التي يتمثل بها أهل المحضرة في هذا المعنى :

لابد للزاوي من كناش يحوي به العلوم وهو ماشي ».

إذن فهذه الكُنّاشات تقييدات كنت أكتبها في الأصل لنفسي على هامش ما أقرأ من كتب أو صحف ، فهي في حقيقتها نظرات أو نقدات لبعض ما يمر بي أو أمر أنا به في مطالعاتي .

ومثل هذه التقييدات تخلو من الإبداع الفكري ، كما تخلو من طرافة الخيال ، فهي في غالب أحوالها تتسم بالجفاف الذي لا يصبر على مثله إلا الأقلون ، فهي لا تعجب عامة القراء ولا تستقطبهم ، وهي لا تشد إلا أولئك الذين يعنون بأمثال هذه الملاحظات ، وقد يجد بعضهم الرغبة في نقاشها ، بل لقد فتحت الباب لشيء من الحوار في أعداد (المجلة العربية) ، وإن ظل موارباً بعض الشيء ، ولكني أرجو - بعد أن جمعت كتاباتي في هذا الكتاب - أن أفتحه الآن على مصراعيه لمزيد من المناقشة ، للوصول إلى الحقيقة التي ينشدها كل مخلص ، فإن الحكمة ضالة المؤمن ، أينما وجدها التقطها .

ولعل هذا الكتاب يمثل إضمامة أولى ، تتلوها أخرى مما دونته على هوامش قراءاتي ، وأحسبه كثيراً ، آملاً أن أفعل ذلك إن شاء الله تعالى متى انفسح عمر ، ومن الله أستمد التوفيق والعون أولاً وأخيراً .

عبدالعزيز أحمد الرفاعي

عَلَى هَامِشِ السِّيرَة

في وصف الرسول ﷺ *

هنـــاك عـدد من الصـحـابــة بين رجـال ونسـاء حـاول أن يصف رسول الله ﷺ ، وأن يصوره لمن لم يشاهده ليأخذ عنه صورة عامة ..

وهؤلاء الوصافون قليل ، إذا قارنا عددهم بعدد الصحابة الذين التقوا برسول الله ﷺ ، سواء من الذين عاشوا معه في المدينة ، أم من الذين وفدوا أو ترددوا عليها من حين لآخر .

وقد نجد بينهم من أسهب في الوصف ، وبينهم من اختصر ، حتى قد لا نجد أحياناً إلا كلمة هنا ، وأخرى هنالك ، قد تأتي عرضاً أو تأتي وكأنها من حديث مبتور ..

ويبدو لي من خلال اطلاعي المحدود في هذا الموضوع ، أن أم معبد كانت صاحبة الوصف الأطول ، وأنها كانت ذات عين نافذة فاحصة ، وكانت تصفه لأولئك النفر الذين كانوا يقتفون أثره يوم هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة . ويليها ابن أبي هالة ، الذي عاش عن كثب من النبي ﷺ وراقب أحواله ، وقد أوتي موهبة الوصف ، مع طلاقة في التعبير ، ودقة في التصوير .

---

* نشر في العدد (٨٤) من المجلة العربية ، الصادر في المحرم ١٤٠٥هـ = تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٤م .

وكذلك فعل أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكان هو أيضاً قد نشأ في بيت رسول الله ، ثم كان خَتَنَهُ زوجَ ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها .

ثم نجد من الأحاديث ما لا يبلغ في الطول مبلغ أحاديث هؤلاء الذين أسلفت ذكرهم .

ومن العجيب أننا لا نجد الوصف المشبع عند بعض من كان مؤهلا كل التأهيل لأن يضطلع بهذه المهمة ، إلا أن يكونوا قد قاموا بذلك فعلاً ثم لم يحفظ لنا التاريخ رواياتهم ..!

فمن وجهة نظري أن عائشة رضي الله عنها كانت مؤهلة تماماً لهذه المهمة ، فهي الزوجة الشابة الأثيرة ، وهي العالمة الأديبة فصيحة اللسان .

ومن بين الرجال لا نجد أبا هريرة مثلاً ، على كثرة ما روى عن رسول الله ﷺ من أحاديث ، وعلى قوة حفظه ، وعلى تتبُّعه لحياة الرسول ﷺ وتفرُّغه للرواية .. لا نجده قد خصَّ الرسول ﷺ بوصف مسهب كامل شامل .

والذين وضعوا الكتب في شمائل رسول الله ﷺ ، ورووا أحاديث صفاته وخَلْقِه وخُلُقه كانوا يتلقفون هذه الأحاديث ليجمعوها من مصادرها المختلفة . ولا شك أن هؤلاء المؤلفين قد أوفوا الموضوع حقه ، وأعطوه من عنايتهم الشيء الكثير ، بحيث يخيل للمرء أنه لا مجال للاجتهاد في هذا الباب ، لأن استقصاءهم قد بلغ مداه الواسع ، وهو - إلى ذلك - ليس من الموضوعات التي يصح فيها إطلاق العنان للخيال .

وكل ما يصح أن يجتهد فيه المجتهدون في هذا العصر ، هو تقديم هذه الروايات من خلال رؤية جديدة للنصوص ، بحيث تدنو الصورة لعين القارىء المعاصر ، أو بمعنى آخر محاولة تكبيرها وتقديمها إليه مجلوة في

أسلوب جديد .

وقد كانت لي في هذا الباب محاولة جعلتني أتتبع روايات الوصف كلما وجدت منها شيئاً ، وإن كانت كما قلت قد جمعت كلها في كتب الشمائل . ولكني رغم ذلك أستشعر ارتياحاً خاصاً كلما وقفت على نص في هذا الموضوع رغم يقيني الراسخ أنه موجود ، وربما بتوسع في تلك الكتب المتخصصة .

من ذلك ما وقفت عليه عند الواقدي بمغازيه في باب (غزوة الخندق) ص ٤٤٩ قال :

« وكان البراء بن عازب يقول : ما رأيت أحداً أحسن في حلة حمراء من رسول الله ﷺ ، فإنه كان أبيض شديد البياض ، كثير الشعر ، يضرب الشعر منكبيه ، ولقد رأيته يومئذ يحمل التراب على ظهره ، حتى حال الغبار بيني وبينه ، وإني لأنظر إلى بياض بطنه »[1] .

* * *

---

(١) للكاتب رسالة صغيرة عنوانها (أم معبد - الرسول كأنك تراه) ، صدرت عن دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع بالرياض .

أم عمارة في خيبر *

أفرد الواقدي في كتابه (المغازي) فصلاً طويلاً عن (غزوة خيبر) تحدث فيه عن هذه الغزوة حديثاً مسهباً استوقفني فيه عدة أخبار وقصص ، ولكن مما استلفت نظري بصفة خاصة أخباره عن أم عمارة ، فقد أورد عنها بعض الأخبار.

ولما كنت قديم الاهتمام بشخصية أم عمارة ، وما تميزت به هذه الصحابية الباسلة ، من صفات البطولة والرحمة والفداء .. فقد أخذت أتتبع أخبارها ، كلما وجدت إلى هذه الأخبار سبيلاً .

خرجت أم عمارة إلى خيبر مع عدد من النسوة الصحابيات ، فقد ذكر الواقدي نفسه في ذلك الفصل ص ٦٨٥ أنه خرج مع رسول الله ﷺ عشرون امرأة ، أم سلمة زوجته ، وصفية بنت عبدالمطلب ، وأم أيمن ، وسلمى امرأة أبي رافع مولاة النبي ﷺ ، وامرأة عاصم بن عدي ولدت سهلة بنت عاصم بخيبر ، وأم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم مَنيع ، وهي أم شباث ، وكعيبة بنت سعد الأسلمية ، وأم مُتاع الأسلمية ، وأم سليم بنت ملحان ، وأم الضحاك بنت مسعود الحارثية ، وهند بنت عمرو بن حزام ، وأم العلاء الأنصارية ، وأم عامر الأشهلية ، وأم عطية الأنصارية ، وأم سليط .

---

* نشر في العدد (٨٥) من المجلة العربية ، الصادر في صفر ١٤٠٥هـ = تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤م .

وهكذا نرى بين هؤلاء النسوة صحابيات مشهورات منهن أم عمارة .

وقد حدثت أم عمارة عن غزوة خيبر بأكثر من حديث ، في فصل غزوة خيبر من كتاب المغازي . قال الواقدي ص ٦٦١: « حدثني ابن أبي سبرة عن عبدالرحمن بن عبدالله بن أبي صعصعة عن الحارث بن عبدالله بن كعب ، عن أم عمارة قالت : « ذبحنا بخيبر ، لبني مازن بن النجار فرسين ، فكنا نأكل منهما قبل أن يفتح حصن الصعب بن معاذ » أهـ .

ويدل هذا الحديث على أن التموين الغذائي كان يشكل أزمة بالنسبة لجيش المسلمين الذي كان يحاصر حصون خيبر ، ولكن هذه الأزمة انفرجت بعد استيلاء المسلمين على حصن الصعب بن معاذ ، وهو الحصن الذي كان يختزن فيه اليهود طعامهم .

وتحدثنا أم عمارة ذاتها ص ٦٦٥ عن هذا الطعام المخزون وكثرته :

« حدثني ابن أبي سبرة ، عن عبدالرحمن بن عبدالله بن أبي صعصعة عن الحارث بن عبدالله بن كعب ، عن أم عمارة قالت : لقد وجدنا في حصن الصعب بن معاذ من الطعام ما كنت أظن أنه لا يكون في خيبر، جعل المسلمون يأكلون مقامهم شهراً وأكثر من ذلك الحصن فيعلفون دوابهم ، ما يمنع أحدهم ، ولم يكن فيه خمس ، وأخرج من البزوز شيء كثير يباع في المقسم ، ووجد فيه خرز من خرز اليهود ، فقيل لها : فمن الذي يشتري ذلك في المقسم ؟ قالت : المسلمون واليهود الذين كانوا في الكتيبة فآمنوا ومن حضر من الأعراب ، فكل هؤلاء يشتري . فأما من يشتري من المسلمين فإنما يحاسب به مما يصيبه من المغنم » أهـ .

إذن فقد وجد في حصن الصعب خرز أيضاً مما تتخذه يهود في الحلي ، وهذا أمر تهتم به النساء ، فهل كان لأم عمارة نصيب من هذا الخرز ؟

يقول الواقدي ص ٦٨٨ : حدثني يعقوب بن محمد عن عبدالرحمن بن عبدالله بن أبي صعصعة ، عن الحارث بن عبدالله بن كعب ، قال : « رأيت في رقبة أم عمارة خرزاً حُمراً فسألتها عن الخرز ، فقالت : أصاب المسلمون خرزاً في حصن الصعب بن معاذ ، دفن في الأرض ، فأُتيَ به إلى رسول الله ﷺ ، فأمر به بمن معه من النساء فأُحصين ، فكنا عشرين امرأة ، فقسم ذلك الخرز بيننا ، هذا وأرضخ لنا من الفيء قطيفة وبرداً يمانياً ودينارين ، وكذلك أعطى صواحبي . قلت : فكم كانت سُهمان الرجال ؟ قالت : ابتاع زوجي غَزِيّةُ بن عمرو متاعاً بأحد عشر ديناراً ونصف ... » أهـ.

إذن فقد حصلت أم عمارة على خرزاتٍ حمر ، اتخذت منها عقداً في رقبتها .. ويبدو أنها لم تزد على ثلاث خرزات لكل واحدة من النسوة العشرين ، فقد روى الواقدي نفسه (ص٦٨٦) حديث أم العلاء الأنصارية : « حدثني ابن أبي سبرة ، عن إسحاق بن عبدالله ، عن عمر بن الحكم ، عن أم العلاء الأنصارية قالت : فأصابني ثلاث خرزات ، وكذلك أصاب صواحبي ، وأتى يومئذ برِعاث من ذهب ، فقال : هذا لبنات أخي أسعد ابن زرارة ، فقدم بها عليهن فرأيت ذلك الرِّعاث عليهن ، وذلك سن خُمُسه يوم خيبر » أهـ .

أقول : الرِّعاث : الأقراط : الخرص .

لكن .. لِمَ خرج النساء إلى خيبر ؟

هذه واحدة منهن تتحدث عن سبب خروجها ، مما رواه الواقدي نفسه (ص٦٨٦) : « حدثني عبدالله بن أبي يحيى ، عن ثبيتة بنت حنظلة الأسلمية عن أمها أم سنان قالت : لما أراد رسول الله ﷺ الخروج جئته فقلت: يارسول الله أخرج معك في وجهك هذا ، أخرز السقاء ، وأداوي

المرضى والجريح إن كانت جراح - ولا يكون - وانظر الرحل .. فقال رسول الله ﷺ : اخرجي على بركة الله فإن لك صواحب قد كلمنني وأذنت لهن من قومك ومن غيرهم ، فإن شئت فمع قومك ، وإن شئت فمعنا ، قلت : معك ، قال : فكوني مع أم سلمة زوجي . قالت : فكنت معها ، فكان رسول الله ﷺ يغدو من الرجيع كل يوم عليه الدرع ، فإذا أمسى رجع إلينا ، فمكث على ذلك سبعة أيام حتى فتح الله (النطاة) ، فلما فتحها تحول إلى الشق ، وحولنا إلى (المنزلة) ، فلما فتح خيبر رضخ لنا من الفيء ، فأعطاني خرزاً وأوضاحاً من فضة أصيبت في المغنم وأعطاني قطيفة فدكية ، وبُرداً يمانياً ، وخمائل ، وقِدْراً من صُفر ، وكان رجال من أصحابه قد جرحوا فكنت أداويهم بدواء كان عند أهلي فيبرؤون ، فرجعت مع أم سلمة ، فقالت لي حين أردنا ندخل (المدينة) ، وكنت على بعير من إبل النبي ﷺ منحه لي ، فقالت : بعيرك الذي تحتك لك رقبته أعطاكيه رسول الله . قالت : فحمدت الله وقدمت بالبعير فبعته بسبعة دنانير ، قالت : فجعل الله في وجهي ذلك خيراً » أهـ.

ونرى من حديث أم سنان هذا أنها كانت إحدى ممرضات الجيش ، وأن هناك نسوة أخريات تحدثن إلى رسول الله ﷺ بما تحدثت به ، واستأذنَّ بمثل ما استأذنت .. ولا شك أن أم عمارة ، وقد عرفت بعنايتها بالجرحى - قد خرجت لمثل هذا الغرض ، وقد صحبت زوجها غزية كما مر من حديثها .

وقد روى الواقدي أيضاً ص ٦٨٥ حديث أمية الغفارية التي خرجت مع نسوة أخريات بقصد التمريض :

« حدثني ابن أبي سبرة ، عن سليمان بن سحيم ، عن أم علي بنت الحكم ، عن أمية بنت قيس بن أبي الصلت الغفارية ، قالت : جئت رسول الله ﷺ ، في نسوة من بني غفار ، فقلنا: إنا نريد يا رسول الله أن

نخرج معك في وجهك هذا فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا ، فقال رسول الله ﷺ : على بركة الله ... الخ » .

أما الحارث بن عبدالله بن كعب الذي يروي عن أم عمارة ، فهو ابن أخيها عبدالله .. فهي نسيبة بنت كعب [1].

* * *

---

(١) للكاتب رسالة عن (أم عمارة) صدرت في سلسلة « المكتبة الصغيرة » عن دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع .

في حراسة الرسول ﷺ *

هذا مثل من أمثلة يقظة أولئك الصحابة رضوان الله عليهم الذين كانوا يتولون حراسة الرسول ﷺ ، خاصة في غزواته ورحلاته ، وحينما تكون حياته معرضة للمخاطر .

فهذا الواقدي يحدثنا في مغازيه (غزوة الخندق) في ص ٤٦٨ عن سهر كل من محمد بن مسلمة ، وعباد بن بشر - رضي الله عنهما - في حراسته ﷺ ، فيقول :

« حدثني إبراهيم بن جعفر ، عن أبيه ، عن محمد بن مسلمة ، قال : كنا حول قبة رسول الله ﷺ نحرسه ، ورسول الله ﷺ نائم نسمع غطيطه ، إذ وافت أفراس على سَلْع ، فبصُر بهم عباد بن بشر فأخبرنا بهم ، قال : فأمضى إلى الخيل ، وقام عباد على باب قبة النبي ﷺ آخذاً بقائم السيف ينظرني ، فرجعت فقلت : خيل المسلمين أشرفت ، عليها سلمة بن أسلم بن حُرَيش ، فرجعت إلى موضعنا . ثم يقول محمد بن مسلمة : كان ليلنا بالخندق نهاراً حتى فرَّجه الله ! » .

وفي موضع آخر (ص ٤٦٣) يقول :

« حدثني عبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر ، عن عبدالله بن أبي

---

* نشر في العدد (٨٥) من المجلة العربية ، الصادر في صفر ١٤٠٥هـ = تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤م .

بكر بن حزم قال : قالت أم سلمة : كنت مع رسول الله ﷺ في الخندق ، فلم أفارقه مقامه كله ، وكان يحرس بنفسه في الخندق . وكنا في قر شديد، فإني لأنظر إليه ، قام فصلى ما شاء الله أن يصلي في قبته ، ثم خرج فنظر ساعة ، فأسمعه يقول : هذه خيل المشركين تطيف بالخندق ، من لهم ؟ ثم نادى : ياعباد بن بشر . فقال عباد : لبيك . قال : أمعك أحد ؟ قال : أنا في نفر من أصحابي كنا حول قبتك !! قال : فانطلق في أصحابك فأطف بالخندق ، فهذه خيل من خيولهم تطيف بكم يطمعون أن يصيبوا منكم غرة . اللهم ادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم واغلبهم ، لا يغلبهم غيرك ! فخرج عباد بن بشر في أصحابه ، فإذا بأبي سفيان في خيل من المشركين يطيفون بمضيق الخندق ، وقد نذر بهم المسلمون فرموهم بالحجارة والنبل ، فوقفنا معهم فرميناهم حتى أذلقناهم بالرمي فانكشفوا راجعين إلى منزلهم ، ورجعت إلى رسول الله ﷺ فأجده يصلي فأخبرته . قالت أم سلمة : فنام حتى سمعت غطيطه فما تحرك حتى سمعت بلالاً يؤذن بالصبح وبياض الفجر ، فخرج فصلى بالمسلمين ، فكانت تقول : يرحم الله عباد بن بشر ، فإنه كان ألزم أصحاب رسول الله ﷺ لقبة رسول الله يحرسها أبدا » أهـ .

ويقول في ص ٤٦٥ :

« فحدثني إبراهيم بن جعفر ، عن أبيه قال : قال محمد بن مسلمة : أقبل خالد بن الوليد تلك الليلة في مائة فارس ، فأقبلوا من العقيق حتى وقفوا بالمَذاد ُوجاه قبة النبي ﷺ ، فنذِرت بالقوم ، فقلت لعباد بن بشر - وكان على حرس قبة النبي ﷺ ، وكان قائماً يصلي ، فقلت : أُتيت ! فركع ثم سجد ، وأقبل خالد في ثلاثة نفر ، وهو رابعهم ، فأسمعهم يقولون : هذه قبة محمد ، ارموا ! فرموا . فناهضناهم حتى وقفنا على شفير الخندق ، وهم بشفير الخندق من الجانب الآخر، فترامينا ، وثاب إلينا أصحابنا ، وثاب

إليهم أصحابهم ، وكثرت الجراحة بيننا وبينهم ، ثم اتبعوا الخندق على حافتيه وتبعناهم والمسلمون على محارسهم فكلما نمر بمحرس نهض معنا طائفة وثبت طائفة ، حتى انتهينا إلى راتج فوقفوا وقفة طويلة ، وهم ينتظرون قريظة يريدون أن يغيروا على بيضة المدينة ، فما شعرنا إلا بخيل سلمة بن أسلم بن حريش يحرس ، فيأتون من خلف راتج ، فلاقوا خالد بن الوليد فاقتتلوا واختلطوا ، فما كان إلا حَلْب شاة حتى نظرت إلى خيل خالد مولية ، وتبعه سلمة بن أسلم حتى ردَّه من حيث جاء ، فأصبح خالد وقريش وغطفان تزري عليه وتقول : ما صنعت شيئاً فيمن في الخندق ، ولا فيمن أصحر لك [١] ، فقال خالد : أنا أقعد الليلة وابعثوا خيلاً حتى أنظر أي شيء تصنع ؟ » .

ويليه خبر طويل عن ابن أبي سبرة ، عن عبدالواحد بن أبي عون عن أم سلمة (ص ٤٦٦) .. فيه عن حراس النبي ﷺ قولها : « فإذا نفر من الصحابة عند قبته يحرسونها منهم عباد بن بشر » .

وفي أخباره عن هذه الغزوة ما جاء عن حراسة سعد بن أبي وقاص ما جاء في ص ٤٦٣ قوله :

« وكانت عائشة زوج النبي ﷺ تقول : لقد رأيت لسعد بن أبي وقاص ليلة ونحن بالخندق ، لا أزال أحبه أبداً . قالت : كان رسول الله ﷺ يختلف إلى ثلمة في الخندق يحرسها ، حتى إذا آذاه البرد جاءني فأدفأته في حضني فإذا دفىء خرج إلى تلك الثلمة يحرسها ، ويقول : ما أخشى أن يؤتى الناس إلا منها ، فبينا رسول الله ﷺ في حضني قد دفىء وهو يقول : ليت رجلاً صالحاً يحرسني ! قالت : إلى أن سمعت صوت السلاح وقعقعة

---

(١) يعني : ولا فيمن برز لك .

الحديد ، فقال رسول الله ﷺ : من هـذا ؟ فقال : سعد بن أبي وقاص ، قال : عليك بهذه الثلمة فاحرسها . قالت : ونام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه .

وفي هذه الغزوة يروي الواقدي أيضاً ص ٤٧٧ في سياق قصة عزم الرسول ﷺ على إعطاء قوم عيينة بن حصن ثلث تمر المدينة على أن يرجعوا عنها ، أن عباد بن بشر رضي الله عنه كان قائماً على رأس رسول الله ﷺ ، وهو مقنع بالحديد .

* * *

كعب بن مالك .. أي الروايتين * .. ؟

في سيرة ابن هشام ٤٧٨/٢ في (ذكر غزوة الطائف بعد حنين) ، أن رسول الله ﷺ سار إلى الطائف حين فرغ من حنين ، فقال كعب بن مالك رضي الله عنه حين أجمع رسول الله ﷺ السير إلى الطائف :

قضينا من تهامة كل ريب ... وخيبر ثم أجمعنا السيوفا

نخبرها ، ولو نطقت لقالت ... قواطعهن : دوساً أو ثقيفا

إلى آخر الأبيات ..

ولكن الواقدي في مغازيه ص ٨٠٢ يحدثنا بما خلاصته أن رسول الله ﷺ حينما توجه إلى مكة لم يكن عامة الناس يعلمون حقيقة وجهته ، وهل هو يقصد قتال قريش ، أو هوازن أو ثقيف ؟ وكانوا يحبون أن يعلموا ، فلما وصل رسول الله ﷺ إلى العرج [1] - وعرج المدينة غير عرج الطائف - جلس إلى أصحابه يتحدث .. فقال كعب بن مالك : آتي رسول الله ﷺ فأعلم لكم علم وجهه .. يقصد أنه سيلتمس وسيلة يتعرف بها وجهة رسول الله ﷺ ، فجاء فبرك بين يدي رسول الله ﷺ على ركبتيه ، ثم قال : قضينا من تهامة .. وقد أورد الواقدي أربعة أبيات

---

* نشر في العدد (٨٦) من المجلة العربية ، الصادر في ربيع الأول ١٤٠٥هـ = كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٤م .

(١) المقصود هنا عرج الطائف .

فقط من القصيدة ، بينما أورد ابن هشام خمسة وعشرين بيتاً .

ويكمل الواقدي القصة فيقول : فتبسم رسول اللـــه ﷺ ولم يزد على ذلك ، فجعل الناس يقولون (أي لكعب) : واللـــه ما بيّن لك رسول الله شيئاً ، ما ندري بمن يبدي بقريش أو ثقيف ، أو هوازن ؟.

والسؤال : ترى هل قال كعب أبياته ليستخبر من رسول الله ﷺ عن وجهة مسيرته ؟ أم أنه قالها بعد فتح مكة ، ثم تعبئة الجيش بعد ذلك لمسيرة أخرى كانت أيضاً غير معلنة ، وهل المقصود هو قتال هوازن أو ثقيف أو دوس ؟.

ابن هشام إنما ينقل ملخصاً عن ابن إسحاق ، وهو لم يورد سنداً لروايته .. أما الواقدي فقد ساق الخبر بسنده ، وقال عقب إيراد الأبيات الأربعة ، إنه قد أنشده إياها أيوب بن النعمان عن أبيه ، وأبوه هو عبدالله ابن كعب بن مالك .. أي أن الرواية عن حفيد كعب بن مالك .. فهل أقول : إن أيوب بن النعمان أدرى بما يرويه عن جده ، وإن الأخذ بهذه الرواية معناه الأخذ عن أسرة كعب نفسها ؟.

ولكن كعب بن مالك رضي الله عنه يقول في مستهل أبياته ، إننا قضينا من تهامة كل ريب ، ومن خيبر .. فما الذي يقصده بتهامة هنا ؟ أليس الأقرب أن يقصد بتهامة .. مكة ؟ أم يكون قصده تهامة الشمالية ، حيث كان الرسول ﷺ يرسل حملات تأديبية أو لاستتباب الأمن ؟ .

لعل كعب بن مالك رضي اللـــه عنه بدأ أبياته في الطريق إلى مكة لاستطلاع الحقيقة ، ثم جعل أبياته بعد ذلك أي بعد فتح مكة قصيدة طويلة ، مستخبراً عن وجهة المسير الآتية أو التالية ، وهل هي إلى ثقيف ، أو دوس ؟. ولعل ذكر بطن وج في البيت الرابع من القصيدة يرشح أن الأبيات إنما قيلت عقب فتح مكة كما يرشح لذلك تعبير

(قضينا)، فهو يوحي بالانتهاء من مهمة جليلة وهي هنا فتح مكة .

إنها مجرد تساؤلات لا تصل إلى حقيقة حاسمة ، ولكنها ربما فتحت الطريق إليها .

* * *

حلف عبدالمطلب *

في قصة سبب فتح الرسول ﷺ لمكة أن قريشاً وبني بكر تظاهرت على خزاعة ، ونقضوا بذلك ما بينهم وبين النبي ﷺ من العهد والعقد ، وأن عمرو بن سالم الخزاعي الكعبي خرج مع جماعة من قومه إلى المدينة ، واستنصر رسول الله ﷺ ، وأنشد بين يديه أبياتاً يقول فيها :

يــارب إني ناشــد محمــدا　　حلف أبينـا وأبيـه الأتلــدا
قد كنتم ولــدا وكنا والــدا　　ثمت أسلمنـــا فلم ننزع يـدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا　　وادع عبــاد الله يأتوا مـددا

والقصة مشهورة في كتب السيرة ، وليس المراد هنا إيرادها ، فلمن شاء رجع إلى سيرة ابن هشام ٢/٣٩٤ أو إلى مغازي الواقدي ٧٨٨ .

ولكني وقفت عند تفسير ألفاظ الأبيات .. ماذا يقصد الخزاعي من إشارته إلى حلف أبينا وأبيه ؟ .

لم يفسر ذلك ابن هشام ومحققوا الكتاب ، وهم مصطفى السقا وزميلاه .. اكتفوا بشرح كلمات قلائل معتمدين على شرح أبي ذر الخشني ، وكذلك فعل محقق مغازي الواقدي أعني الدكتور (مارسدن جونس) . أما السهيلي صاحب (الروض الأنف) في شرح سيرة ابن هشام فشرح

---

* نشر في العدد (٩٢) من المجلة العربية ، الصادر في رمضان ١٤٠٥هـ = حزيران (يونيو) ١٩٨٥م .

ألفاظاً قلائل كقوله : (قد كنتم ولدا وكنا والداً) ، بأنه يريد أن بني عبدمناف أمهم من خزاعة ، وكذلك قصي أمه فاطمة بنت سعد الخزاعية ، وأن معنى أسلمنا أي دخولهم في السلم وليس الإسلام ، ولم يتعرض لشرح الحلف .

ولكن الزرقاني محمد بن عبدالباقي (ت ١١٢٢هـ / ١٧١٠م) في شرحه للمواهب اللدنية للقسطلاني ، أحمد بن محمد (ت ٩٢٣هـ /١٥١٧هـ) ذكر في ٢٨٨/٢ أن خزاعة كانت حلفاء عبدالمطلب ، وكان عليه الصلاة والسلام عارفاً بذلك ، وقد جاءته خزاعة يومئذ بكتاب عبدالمطلب ، وقرأه عليه أبي بن كعب ونصه : « باسمك اللهم ، هذا حلف عبدالمطلب بن هاشم لخزاعة إذ أقدم عليه سرواتهم ، وأهل الرأي ، غائبهم يقر بما قاضى عليه شاهدهم ، أن بيننا وبينكم عهود الله وعقوده وما لا ينسى أبداً ، اليد واحدة ، والنصر واحد ، ما أشرف ثبير ، وثبت حراء ، وما بل بحر صوفة ، ولا يزداد فيما بيننا وبينكم إلا تجدداً أبد الدهر سرمداً » .

وكان أن نصرهم رسول الله ﷺ كما هو معروف ، وكان في نصرهم فتح مكة ، وهو الفتح المبين والنصر العزيز للإسلام والمسلمين .

مصادر عن خزاعة

ولمن شاء أن يقرأ عن خزاعة ورجالها فإنه يجد طرفاً من ذلك في كتاب الاشتقاق لابن دريد (ت ٣٢١ هـ) طبعة ١٣٧٨هـ ص ٤٦٨ وما بعدها ، و(نهاية الأرب) للنويري (ت ٧٣٣هـ) ٣١٧/٢ ، وكتب التاريخ كالطبري وغيره ، وكتب السيرة ، ومعجم قبائل العرب لكحالة ، وفيه سرد لكثير من المصادر عن هذه القبيلة .

مهاجرون وأنصار *

أما الأنصار فلا يحتاجون إلى تعريف ، فهم الذين آووا ونصروا من الأوس والخزرج . وأما المهاجرون فهم الذين خرجوا من مكة فهجروا طغيان قريش ، ليستقبلهم إخوتهم الأنصار بالمدينة المنورة على الرحب والسعة ، فتم أروع إخاء بشري على يدي رسول الله ﷺ .

هذا ما عرفناه عن المهاجرين والأنصار ، ومن الطبيعي أن يكون الأنصاري أنصارياً فحسب ، والمهاجر مهاجراً فحسب ، أما أن يكون الشخص الواحد أو الزمرة من الأشخاص في عداد الأنصار والمهاجرين في وقت معاً في صفة واحدة ، فذلك هو ما يحتاج إلى شرح وتبيان .

والشرح عند صاحب الطبقات ، طبقات ابن سعد ، وابن سعد هو كاتب الواقدي ، وكتابه كتاب جليل ، بل هو كتاب إمام .

يقول ابن سعد في شرح الأمر في ج١ ص ٢٢٦ في باب إذن الرسول ﷺ للمسلمين في الهجرة إلى المدينة :

« وكان نفر من الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ في العقبة الآخرة ، ثم رجعوا إلى المدينة ، فلما قدم أول من هاجر إلى قباء ، خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة ، حتى قدموا مع أصحابه في الهجرة ، فهم مهاجرون

---

* نشر في العدد (٧٩) من المجلة العربية ، الصادر في شعبان ١٤٠٤هـ = أيار (مايو) ١٩٨٤م.

أنصاريون ، وهم : ذكوان بن عبد قيس ، وعقبة بن وهب بن كلدة ، والعباس بن عبادة ابن نضلة ، وزياد بن لبيد » .

وهكذا نرى أن هناك أربعة رجال ، هم من الأنصار شكلوا من أنفسهم وفداً لاستقبال المهاجرين وكأنهم بعثة شرف ، كما تسمى في عصرنا هذا ، ليكون لهم إلى جانب شرف لقب الأنصار - وهو وحده شرف وأي شرف - ليكون لهم شرف آخر ، هو أن يكونوا أيضاً في عداد المهاجرين من مكة .

على أن ابن سعد قد عاد فأوضح في ترجمته لذكوان بن عبد قيس ٣/٥٩٣ ، أنه لحق برسول الله ﷺ بمكة فأقام معه حتى هاجر معه إلى المدينة ، فكان مهاجرياً أنصارياً .

فالإضافة الجديدة هنا هي إقامته في معية الرسول ﷺ ، أما هجرته معه فقصة هجرة الرسول ﷺ معروفة ، وكان ركبه ﷺ مقتصراً على أبي بكر ، وعامر بن فهيرة ، والدليل ابن أريقط الذي كان على شركه ، فلم يكن مسلماً ، فيكون المقصود أنه هاجر عند هجرته ﷺ وليس بمعيته .

* * *

النبي ﷺ يستعذب الماء *

وكتاب (الطبقات لابن سعد) الذي أسلفت الحديث عنه كتاب في السيرة والتراجم والتاريخ عظيم ، يقع في ثمانية مجلدات تاسعها فهارسه ، ويسمى (الطبقات الكبرى) .

وابن سعد هو أبوعبدالله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري ، كان أحد أجداده مولى لبني هاشم ، ولد سنة ١٦٨هـ ، وتوفى سنة ٢٣٠هـ ، وقد لازم أستاذه محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧ هـ) ، وكان يكتب عنه ، حتى عرف بكاتب الواقدي ، وعنه أخذ علمه .

وقد طبع الكتاب أكثر من مرة ، آخرها في بيروت سنة ١٣٩٨هـ وكتب مقدمة هذه الطبعة الأخيرة الأستاذ الدكتور إحسان عباس ، وهي الطبعة الجيدة التي أهدت الكثير منها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بمناسبة قيام صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء آنذاك (النائب الأول الآن ، وولي العهد أطال الله عمره) بافتتاح المكتبة المركزية بعمادة شؤون المكتبات بها ، وقد أحسنت الجامعة في ذلك ، بارك الله جهودها .

---

* نشر في العدد (٧٩) من المجلة العربية ، الصادر في شعبان ١٤٠٤هـ = أيار (مايو)١٩٨٤م .

في ختام الجزء الأول من هذا الكتاب الموسوعي باب في ذكر البئار (الآبار) التي شرب منها رسول الله ﷺ عدّد فيه أسماء الآبار التي كان الرسول ﷺ يستعذب ماءها ، وتلك التي باركها بأن مضمض منها ومجّ الماء أو بصقه ، أو تلك التي كان يوصي بأن يُغسل المريض من مائها ، وهو باب طريف ، ويدل على المنحى الموسوعي الذي حرص عليه ابن سعد ٠

وقد استوقفني هذا الباب لبحث كان أثير في مجلس خاص ، تحدث فيه الأستاذ الدكتور معروف الدواليبي عن بئر رومة بالمدينة ، وعما إذا كان لروما عاصمة إيطاليا علاقة ما بالتسمية ، وهو بحث طريف أيضاً ، كما هو مستفيض ، ربما كتب فيه ، أو سيكتب عنه الأستاذ الدواليبي ٠

لقد وجدت في هذا الباب الذي ذكرت عند ابن سعد نصاً عن بئر رومة (جـ ١ ص ٥٠٥ - ٥٠٦) ، أحببت أن أورده لمن بات يهمه الأمر :

« أخبرنا محمد بن عمر (يعني الواقدي) ؛ حدثني عمرو بن عبدالله بن عنبسة عن محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان قال : نظر رسول الله ﷺ إلى رومة - وكانت لرجل من مُزينة ، يسقي عليها بأجر - فقال : نِعْمَ صَدَقَةُ المُسلمِ هذه مِنْ رَجُلٍ يبتاعها من المزني فيتصدق بها ٠ فاشتراها عثمان بن عفان بأربعمائة دينار فتصدق بها ، فلما علّق عليها العَلَق مرّ بها رسول الله ﷺ فسأل عنها ، فأخبر أن عثمان اشتراها وتصدّق بها ، فقال : اللهم أَوْجِب له الجنة ! ودعا بدلو من مائها فشرب منه ، وقال رسول الله ﷺ : هذا النُّقاخُ ، أما إنّ هذا الوادي سَتُسْتَكْثَرُ مياهه ويُعْذِبونَ ، وبِئْرُ المُزَني أعْذَبُها » ٠

أخبرنا محمد بن عمر ، أخبرنا أبو بكر بن عبدالله بن أبي سبرة عن خالد بن رباح عن المطلب بن عبدالله بن حنْطب قال : مرّ رسول الله ﷺ يوماً ببئر المزني ، وله خيمة إلى جنبها ، وجرّة فيها ماء بارد ، فسقى

رسول الله ﷺ ماء بارداً في الصيف ، فقال رسول الله ﷺ : هذا العذب الزلال » .

هذا هو النص ولا أحب أن أزايله حتى أقف عند كلمتين فيه أشرحهما ، أما الأولى فهي قوله : علّق عليها العلق .. ما هو العلق ؟

يقول في (لسان العرب) في المادة : « العلق: هو الذي تعلق به البكرة أو أداتها أي الخُطّاف والرِّشاء والدلوُ ، أو الحبل المعلق بالبكرة ، أو الحبل الذي في أعلى البكرة » .

وواضح أن المقصود هو أنه هيأها للسقيا المجانية ، وزودها بأدوات السقاية .

أما الكلمة الثانية وهي النقاخ ؟ فهي من حيث الأصل تعنى الخالص من كل شيء ، وتستعمل في وصف الماء البارد العذب الصافي الخالص الطيب .

وعوداً إلى كتاب (الطبقات) ، فكم أود أن يعنى بإخراج هذا الكتاب إخراجاً محققاً ، وحبذا لو اطلعت بهذا العمل الجليل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، إكمالا لما بدأت من الفضل ، وبإمكانها إسناد هذه المهمة إلى ثمانية من المحققين الأكفاء ، لكل واحد جزء من الأجزاء ، ثم تسند الفهرسة لمن تشاء من المفهرسين المختصين ، ذلك لأن هذا الكتاب في حاجة إلى خدمة علمية تُعَرِّف بأعلامه ، وتُخَرِّج أحاديثه ، وتشرح غوامضه ، وترد رواياته إلى أصولها .

* * *

روممممة *

في باب (غزوة الخندق) أتى الواقدي : محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ) في كتاب (المغازي) على ذكر رومة - وهو موضع بالمدينة المنورة - خلال الحوار الذي قام بين حيي بن أخطب وكعب بن أسد ، حينما كان الأول يحاول إغراء الثاني على نقض عهده مع الرسول ﷺ ومحاولة كسب بني قريظة إلى صف قريش في الهجوم على المدينة .. قائلاً:

ويحك ! إني قد جئتك ببحر طام ، وبِعزّ الدهر ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، وجئتك بكنانة حتى أنزلتهم برومة ، وجئتك بغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بالزغابة إلى نقمى ..إلخ ..ص ٤٥٥.

ويبدو من السياق هنا أن (رومة) هو اسم موضع فسيح ، نزلت به كنانة ، بينما يتردد اسم (رومة) في السيرة على أنه اسم بئر معروفة . وبحسب فهرس الأماكن في كتاب (المغازي) يرد اسم رومة في صفحتين هما ٤٤٤ و ٤٤٥ ، وصحة الرقم الأخير ٤٥٥ ، وقد شرحه صاحب الهامش في ص ٤٤٤ على أنه أرض بالمدينة بين الجرف وزغابة ، معتمداً على (معجم البلدان) لياقوت (ت ٦٢٦هـ).

ويقول عنها ياقوت إنها بضم الراء وسكون الواو ، أرض بالمدينة بين

* نشر في العدد (٨٧) من المجلة العربية ، الصادر في ربيع الثاني ١٤٠٥هـ = كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥م .

الجرف وزغابة نزلها المشركون عام الخندق ، وفيها بئر رومة اسم بئر ابتاعها عثمان بن عفان رضي الله عنه وتصدق بها ، وقد أشبع القول عنها في البئر .

ويدل حديث ياقوت في مادة البئر أنها سميت باسم صاحبها المزني : رومة الغفاري ، وهي بئر عذبة الماء .

إذن فمن هو رومة المزني ؟ وهل هناك حقاً من يحمل هذا الاسم ؟ وهل حملت البئر اسم صاحبها ، أم حمل صاحبها اسمها هي ؟ وهل سميت هي باسم البقعة والأرض ؟ أم سميت الأرض باسمها ؟ ذلك ما أحاول أن أعرفه .

من الواضح من سياق حديث ياقوت أن اسم البئر جاء من اسم صاحبها رومة الغفاري .. فهل هذا صحيح ؟

في كتب تراجم الصحابة نجد ابن الأثير عز الدين (ت ٠ ٦٣ هـ) يثبت اسمه في (أسد الغابة) نقلاً عن ابن منده .. ويفعل مثله ابن حجر (ت٨٥٢ هـ) في (الإصابة) ، ولكنه يجتهد فينتقد أن تنسب البئر إلى رومة الغفاري ، بل يجعل الغفاري صاحبها فقط .. ويروي عن البلاذري ، أن البئر إنما هي بئر قديمة اندثرت ، فأتى قوم من مزينة حلفاء الأنصار ، فأصلحوها ، وكانت (رومة) ، إمرأة منهم ، أو أمة تسقي الناس منها ، فنسبت إليها . وأن بعض الرواة قالوا ، إن الشعبة التي على طرفها تدعى رومة ، والشعبة واد صغير يجري فيه الماء .

ثم أورد ابن حجر أقوالاً أخرى تدل على أن بئر رومة كانت تحمل هذا الاسم قبل الغفاري .. وأنها كانت تحمل هذا الاسم منذ غزا تُبّع يثرب ..

إذن فرومة عند ابن حجر بئر قديمة .. وليس هناك غفاري اسمه رومة .

ويرد اسم (رومة) في سيرة ابن هشام في غزوة الخندق ص ٢١٩ ،

حينما يقول : إن قريشاً أقبلت حتى نزلت بمجتمع الأسيال من (رومة) بين الجرف وزغابة ، وتتكرر الرواية نفسها في ص ٢٢١ .

وأفهم من ذلك أن (رومة) اسم البقعة من الأرض ، وأنها كانت مجمعاً للسيول .. ولدى الباحثين الجدد ، نجد أن الأستاذ عاتق بن غيث البلادي ، في كتابه المفيد (معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية) يتكلم عن (رومة) في مادة (مجمع الأسيال) فيقول عنها : « رومة : والمشهور بئر رومة : بئر مازالت معروفة في آخر حرة المدينة الغربية إذا أكنعت في مجمع الأسيال » .. وكنت أرجو أن يفرد لها مادة في الراء ، ولكنه يذكرها في مادة (بئر) ويحيل إلى مادة (مجمع الأسيال) .

ومما هو جدير بالذكر هنا ، أن البكري (ت ٤٨٧ هـ) صاحب (معجم ما استعجم) يذكر في مادة النقيع أن سيول العقيق وبطحان وقناة تجتمع بالزغابة .

ويتحدث السمهودي (ت ٩١١هـ) في (وفاء الوفاء) عن بئر رومة ، ويورد ما روي فيها من حديث وما جاء عنها من روايات (ص ٩٦٧ وما بعدها) ، ويذهب إلى أنها بئر قديمة جاهلية ، وهي في أسفل وادي العقيق ، قريبة من مجتمع الأسيال ، في براح واسع من الأرض ، وعندها بناء عال بالحجارة والجص قد تهدم ، ويذكر شيئاً عن زرعها ومائها ، وتجديد عمارتها ..

ولست أشك أن مجال البحث عن رومة والبئر لا يزال متسعاً .. ولكنني اجتزأت بما أسلفت ، وخلاصة القول لدي ، أن البئر عادية ..

* * *

وقد أفضل الأستاذ محمد محمد حسن شراب بكتابة هذا التعليق

الذي نشرته المجلة العربية في عددها (٩٥) الصادرفي ذي الحجة ١٤٠٥هـ = أيلول (سبتمبر) ١٩٨٥م - بعنوان :

بئر رومة ..
بئر عربية أرضاً واسماً

تسمى اليوم « بئر عثمان » ولا يزال مكانها معروفاً ، لا يختلف اثنان على أنها المذكورة في الأحاديث والسيرة ، حتى يصدق على المكان التي هي فيه اليوم الأوصاف التي ذكروها في كتب التاريخ (بالقرب من مجتمع السيول في زغابة ، قبلي الجرف وشمالي مسجد القبلتين) ، ويمكن لزائر المدينة أن يهتدي إليها دون دليل ، حيث يسير في طريق (سلطانة المؤدي إلى الجامعة الإسلامية - طريق تبوك والأردن - وقبل أن يصل إلى المفرق (عند إشارة المرور) تكون بئر رومة على يمينه ، والمسالك إليها متعددة .

وقد خصَّها الأستاذ الرفاعي في (كناشة) شهر ربيع الآخر ، ودعا الأستاذين العالمين معروف الدواليبي ، وعبد الرحمن الأنصاري ، إلى الحديث عنها ، فرأيت أن أشارك بما وفقني الله إليه حول قصة بئر رومة ، فقد خصصتها بالبحث في كتابي الذي سيصدر قريباً (تحت الطبع) ضمن سلسلة « حول المدينة المنورة » تحت عنوان « أخبار الوادي المبارك » العقيق ، لأن بئر رومة تقع في إحدى عرصات العقيق .

فأقول وبالله التوفيق : رومة : بضم الراء وسكون الواو ، وفتح الميم ، بعدها هاء . وقيل : « رؤمة » بوضع همزة على الواو . والرومة ، أو

الرؤمة : الغراء الذي يلصق به ريش السهم ، وهو علم على البئر المعروفة في العقيق [١] . وأقدم ذكر صحيح ثابت لها ، ورد في الأحاديث النبوية الشريفة ، أما ورودها في قصة مجيء تُبّع اليماني إلى المدينة ، فلا يعتمد عليه ، لأنه لم يعرف لأحد من ملوك التبابعة تاريخ دقيق على وجه التحديد ، ولذلك قال ابن حزم في (الجمهرة) : وفي أنساب التبابعة تخليط ، وتقديم وتأخير ، ونقصان وزيادة ، ولا يصح من كتب أخبار التبابعة وأنسابهم إلا طرف يسير .

ولكننا نستفيد من قصة مجيء تُبّع إلى المدينة وشربه من بئر رومة ، أنها بئر قديمة ، وأنها كانت موجودة قبل الإسلام .. ومن الثابت أنها كانت عامرة بالماء في أول الهجرة ، لما روى أحمد [٢] والنسائي [٣] أن عثمان رضي الله عنه قال عندما حصر في داره : هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة ، فقال : من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين ؟ .. الحديث » .

والبحث في تاريخ بئر رومة يتناول المسائل التالية :

١ - مكان البئر .

٢ - ممن اشترى عثمان البئر ؟

٣ - هل حفرها عثمان أم اشتراها محفورة ؟

٤ - أحوالها عبر العصور .

١ - أما المكان ، فلا يختلف فيه المؤرخون ، لا في القديم ولا في

---

(١) لسان العرب (روم) .

(٢) المسند ج ١ / ٧٥ .

(٣) سنن النسائي ج ٦/ باب وقف المسجد .

الحديث : فهي في أسفل وادي العقيق بين الجرف والقبلتين ، وقد وصفتُ مكانها اليوم في بداية الحديث .

٢ - أما اسم البئر ، ومالكها ، فقد اختلف حولها المؤرخون :

(أ) فقد ورد في مسند أحمد ، وسنن النسائي ، وتاريخ ابن شبة [١] إضافة البئر إلى رومة (بئر رومة) ، وقد يفهم أن البئر مضافة إلى اسمها ، بمعنى « البئر المسماة رومة » أو إضافة البئر إلى صاحبها أي : بئر الرجل المسمى رومة .

(ب) ولكن الذي يقوي أن اسم البئر (رومة) وجود روايات تذكر (رومة) دون إضافة ؛ ففي تاريخ ابن شبة : « من يشتري رومة » ، وفي البخاري [٢] : « من حفر رومة » ، والشراء والحفر لا يكونان إلا للبئر . ويؤيده حديث البغوي « وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة » [٣] .

(جـ) وعلى هذا فإن الراجح أن « رومة » اسم البئر ، وليس للمالك ، ولكن : هل رومة اسم البئر ، ؟ أو اسم الأرض ؟ وهل أخذت الأرض اسمها من البئر ؟ أم أن البئر أخذت اسمها من الأرض ، أم أن البئر أخذت اسمها من امرأة كانت تسقي منها ؟

والجواب عن هذه الأسئلة : قد يكون اسم البئر « رومة » وأطلق على ما حولها من الأرض من باب إطلاق الجزء على الكل ، وقد يكون الاسم للأرض ، وأطلق على البئر ، من باب تسمية الجزء باسم الكل .. وقد

---

(١) تاريخ المدينة ج١/١٥٢ .

(٢) فتح الباري رقم ٢٧٧٨ .

(٣) المرجع السابق ج ٥/٤٠٧ .

تكون البئر أخذت اسمها من « المرأة » رومة ، ثم أطلق على البئر والأرض من حولها .. ولكن المحقق أن اسم البئر (رومة) وليس هناك رجل اسمه « رومة » ، فإذا قيل : (رومة الغفاري) يكون على تقدير حذف مضاف أي : صاحب رومة الغفاري . فالغفاري صفة لصاحب .

د - بقي أن نعرف هل كان يملكها مزني أو غفاري ؟ أما أحاديث البخاري والنسائي ، والترمذي ، ومسند أحمد ، فلم تحدد المالك . وقد روى ابن شبة حديث « نعم القليب قليب المزني » ، وهو ضعيف لأنه منقطع السند [١]. ورواه السمهودي عن ابن زبالة ، وهو متروك الحديث (٢) . وروى ابن زبالة أيضاً « نعم الحفيرة حفيرة المزني » .. ونقل ابن حجر عن ابن منده ، والبغوي ، والطبراني : « وكانت لرجل من بني غفار عين » . ولم يتكلم على سند الحديث . ولكن نسبتها في أول الهجرة إلى « الغفاري » أولى بالصدق ، فقد روى البغوي والطبراني ما يدل على أن الغفاري صحابي [٣] ، وأن الرسول طلب منه أن يبيع بئره فقال : « فليس لي ولا لعيالي غيرها » .. وللجمع بين الأخبار نقول : بأن البئر كانت مملوكة للمزني منذ زمن بعيد عن الهجرة ، ثم انتقلت ملكيتها إلى الغفاري ، وجاء الإسلام وهي له ، أما القول بأنها كانت ليهودي ، فهو ضعيف جداً [٤] .

٣- وجاء في صحيح البخاري : « من حفر رومة فله الجنة »،

---

(١) تاريخ المدينة ج ١ / ١٥٤ ، قال محمد بن يحيى :(وأخبرني غير واحد من أهل البلد . قال رسول الله ﷺ ...) .

(٢) لسان الميزان لابن حجر .

(٣) الإصابة رقم ٢٧٧١ .

(٤) روى الخبر ابن شبة في تاريخ المدينة ج١ /١٥٣ ، قال ابن حجر : وإسناده ضعيف .

والمعـروف أن عـثمـان قد اشتراهـا ولم يحفرها .. قال ابن حجر في الفتح : لعلهـا كانت عينـاً تجري إلى بئر فوسعها وطواها عـثمان ، فنسب حفرها إليه . أو أنها احتاجت إلى الحفر فيما بعد ، لقلة مائها فحفرها .

٤ - أما أحوالها عبر العصور : فقد بقيت غزيرة الماء حتى خلافة عـثمـان بن عـفـان سنة ٣٥ هـ حيث كانت تأتيه الروايا من مائهـا ، فحـال المحاصرون دون وصول الماء إليـه . ولم أطلع على ذكر لها فيما بعد حتى القرن السابع حيث ذكرها ابن النجار[١] المتـوفى سنة ٦٤٣ هـ فقال : كان طولها ثمانية عشر ذراعاً منها ذراعان ماء وباقيها مطموم بالرمل . وقال المطري المتـوفى سنة ٧٦٥ هـ : وقد خربت بئر رومة ولم يبق منهـا اليوم إلا أثرها . وقـال المراغي [٢] المتوفى سنة ٨١٦ هـ : وينبغي العلم أنها جددت بعد ذلك وكثر ماؤها ، حيث أحياها المحب الطبري قاضي مكة في حدود سنة ٧٥٠ هـ . ولم يذكر عنها السمهودي المتوفى سنة ٩١١ هـ شيئاً . ويبدو أنها كانت مردومة . وفي سنة ١٣٤٨ هـ زار الأمير شكيب أرسلان المدينة وذكر بئر رومة في كتابه (الارتسامات اللطاف ، ص ٢١٣) وقال : « وقد كنت أشعر عند بئر عثمان من انشراح الصدر وانفساح الفكر مالا أشعر به في مكان آخـر ، حتى إني أردت مقابلة أعيان المدينة الكرام على حفاوتهم بي ، فدعـوت منهم خمسين شخصاً إلى مأدبة اخترت لها بئر عثمان » .

ولم يذكر شيئاً عن ماء البئر . أما اليوم فهي وأرضها من أوقاف المدينة وتستأجرها وزارة الزراعة ، لإجراء التجارب الزراعية ولزراعة

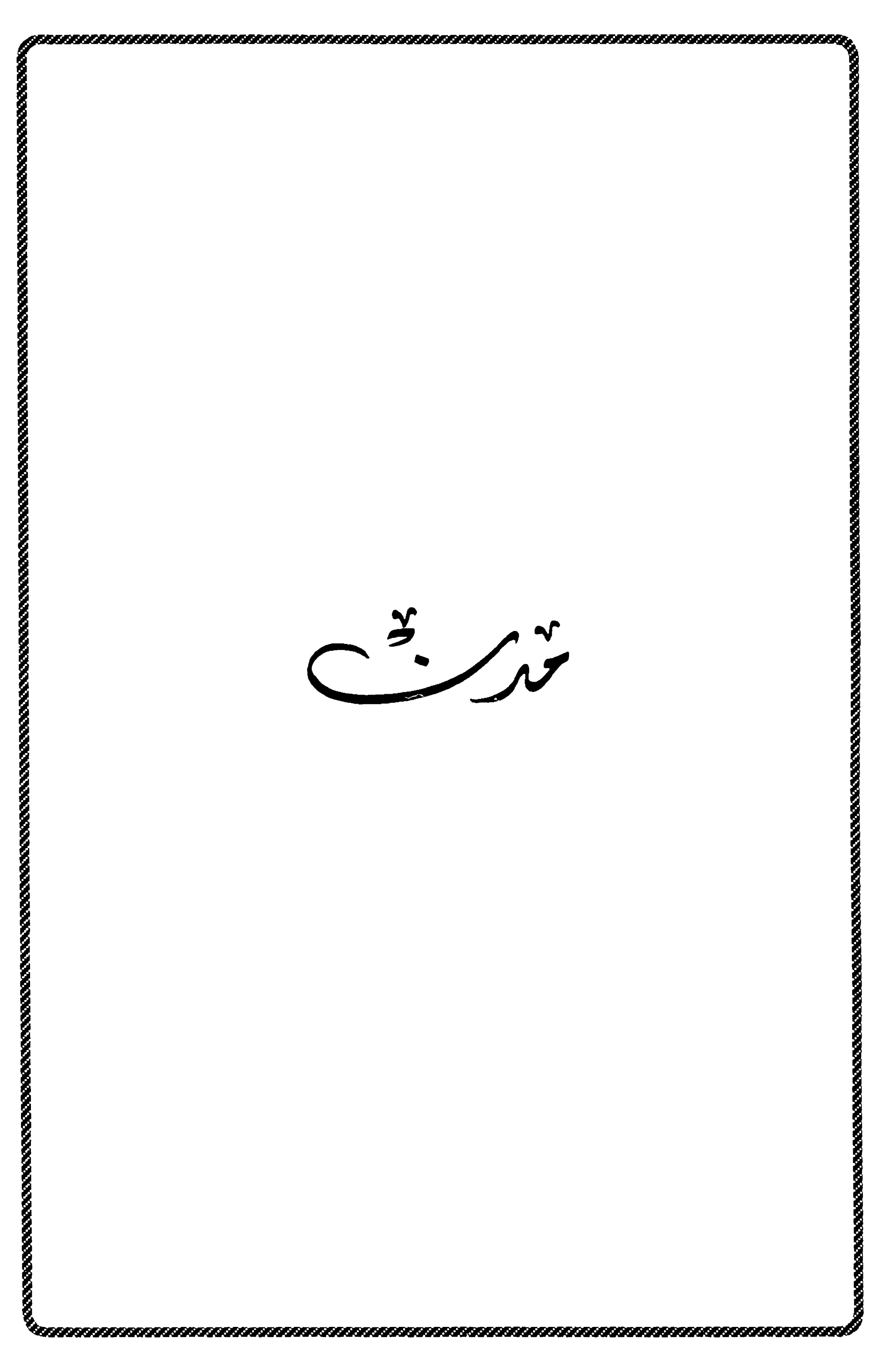
---

(١) أخبار المدينة ص ٤٨ .

(٢) تحقيق النصرة ص ١٧٧ .

المشاتل ، وأرضها مخصبة ، وفيها بئر غزيرة بجوار البئر القديمة تصب في حوض كبير ، لسقي المزروعات وبها مسجد .. أما البئر القديمة فهي معطلة .. وزائر المزرعة يشعر بالسعادة ويعيش فيها لحظات من أجمل اللحظات ، حيث يغمره عبير المجد التالد ، والحاضر المشرق ، ويستشف مستقبلاً مزهراً .

* * *



المكـــلا *

معـروف أن هذا الاسم تحـمله المدينة الكبرى في حضرمـوت ، وأنها ميناؤها الرئيسي . وكانت من قبل تتمتع بشهرة واسعة ، لتجارتها مع الهند ومدن جنوبي شرق آسيا .. وكان لها دور مهم في استيراد الأفاويه واللبان مع تصدير الأسماك المجففة ..

وطالما تساءلت - بيني وبين نفسي - عما يعنيه هذا الاسم لهذه المدينة العربية الصميمة .

وهو اسم لم يورده ياقوت في (معجم البلـدان) ، ولا البكـري في (معجم ما استعجم) .. ومعنى هذا أنه لم يكن معروفاً أو مشهوراً على عهد كل منهما .

ولكني عثرت على ما يمكن أن يكون تفسيراً لهذا الاسم ، بينما كنت أقلب صفحات كتاب (المخصص) لابن سِيدَه (ت ٤٨٨ هـ) .. وسيده بكسر السين وفتح الدال وهاء بعدها . فقد قال في ١٠/ ٢٧ :

« ابن دريد : مُكَلأ السفينة : ما يكلؤها من الريح ، وكَلاء البصرة ممدود ، لأن السفن تُكَلأُ فيه ، فكأنه فعَّال من كلأت ، قال أبو الحسن :

---

* نشر في العدد (٨٤) من المجلة العربية ، الصادر في المحرم ١٤٠٥هـ = تشرين الأول (أكتوبر)١٩٨٤م .

لكَلاء ، على أنه الذي يكلؤها؛ والمكلأ ، على أنها تُكْلأ فيه. الفارسي : الكَلاء : مرفأ السفن . سيبويه : هو فَعّال ، وهذا نص قوله .. » الخ.
وكأن هذا النص يعني أن المكلا هو المرفأ الذي تهدأ فيه السفن من عصف الريح .

أما صاحب (لسان العرب) ابن منظور (محمد بن مكرم ت ٧١١هـ) فقد قال أيضاً : « الكَلاء مرفأ السفن ، وقال : المُكَلأ - بالتشديد - شاطىء النهر ، ومرفأ السفن ، وهو ساحل كل نهر ، ومنه سوق الكَلاء ، مشدود ممدود ، وهو موضع بالبصرة ، لأنهم كانوا يُكَلِّئون سفنهم هناك ، أي يحبسونها ، يُذكَّر ويؤنَّث ، والمعنى : أن الموضع يدفع الريح عن السفن ويحفظها ، فهو على هذا مذكر مصروف ، وفي حديث أنس رضي الله عنه ، وذكر البصرة : إياك وسباخها وكَلاءها . التهذيب : الكَلاء والمُكَلأ ، الأول ممدود والثاني مقصور مهموز: مكان تُرفأ فيه السفن ، وهو ساحل كل نهر ، وكَلأت تكلئة ، إذا أتيت مكاناً فيه مستتر من الريح ، والموضع مُكَلأ وكلاء . وفي الحديث : من عرض عرضنا له ، ومن مشى على الكَلاء ألقيناه في النهر .. ابن السكيت : الكَلاء مجتمع السفن ، ومن هذا سُمي كَلاءُ البصرة كَلاءً لاجتماع سفنه .. » أهـ .

وكما نرى فإنه لم يورد اسم موضع غير كَلاء البصرة .

ورأيت أن ألتمس الاسم عند كل من الفيروزآبادي والزبيدي ، في القاموس المحيط وشرحه ، فإن كُلاً منهما عاش في جنوبي الجزيرة العربية لفترة من الزمن .

ولكنني لم أجد عندهما جديداً يضاف ، ولم يذكر أي واحد منهما (المكلا) المدينة الحضرمية المشهورة ، ولم يستدرك الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) شيئاً في هذه المادة عن (المُكَلا) المدينة ، فهل يعني ذلك أنها لم تكن

معروفة باسمها هذا قبل مائتي سنة فقط ؟

إنني لا أستبعد أن يكون الاسم منقولاً من (المُكَلأ) البصرية ، فقد كان للمكلا الحضرمية تجارة واسعة مع الخليج والهند وجنوبي آسيا ، كما أسلفت .

* * *

مالقا .. وملقا .. وملتقى *

قرأت مقالاً ممتعاً في (المجلة العربية) عدد ربيع الأول عام ١٤٠٧هـ للأستاذ عبدالله بن محمد الناصر (الملحق التعليمي السعودي بالجزائر) بعنوان (أوراق حزينة من دفتر الأندلس) .

ولما كنت أولي ما يُكتب عن (الأندلس) بعض اهتمامي ، (أقول : بعضه لا كله) فقد قرأت المقال بحافز هذا الاهتمام ، وبحافز آخر هو إعجابي بالروح الأدبية التي يحملها الأستاذ عبدالله الناصر .

وقبل أن أعلق على مقاله بما يبدو لي من تعليق ، أحب أن أتحدث قليلاً عن الأستاذ الناصر الذي سررت بلقائه ، ربما لأول مرة في الجزائر في ذي القعدة سنة ١٤٠٥هـ ، في زيارة خاطفة لي للجزائر العاصمة ، لم تزد عن ليلتين اثنتين ، شملني فيهما الأستاذ الناصر برعايته ..كان في أولاهما في استقبالي بالمطار ، ولم يتركني فيها حتى اطمأن إلى مقامي بالفندق الكبير الذي اختاره لي ، أما الليلة التالية فقد أتاح لي سهرة أدبية ماتعة في داره وعلى مائدته ، جمعني فيها بإخوة كرام أذكر منهم الأستاذ محمد الأخضر السائحي الأديب الجزائري المعروف ، وهو أيضاً

* نشر في العدد (١١٢) من المجلة العربية ، الصادر في جمادى الأولى ١٤٠٧هـ = كانون الثاني (يناير) ١٩٨٧م .

شاعر وراوية ومحدث بارع لا يمل حديثه ، وصلتي به قديمة ، كما حضرها الأستاذ عبدالعزيز سندي القائم بالأعمال آنذاك ، الذي وجدت أيضاً من رعايته وكرمه ما لا أنساه .

هذا بعض فضل أخي الناصر عليّ ، أذكره له بالخير ، مكبراً كرم لقائه وكرم نفسه وكرم مائدته .

والآن إلى مقاله الماتع ..

يقول الأستاذ الناصر واصفاً رحلته إلى الأندلس :« من ملقا - وهي تحريف إسباني لـ(ملتقى) حيث التقت الجيوش الإسلامية الفاتحة في طريقها إلى بقية الأندلس - كان طريقنا إلى غرناطة ».

لفت نظري في هذه العبارة تسميته ملقا بالملتقى ، وأن الاسم المستعمل الآن تحريف عن الأصل العربي (ملتقى) .

جاءت هذه المعلومة جديدة عليّ تماماً ..، إذ كل ما أعلمه من قبل ، ولا أعلم إلا القليل ، أن الاسم المستعمل في التاريخ العربي هو (مالقة) ، وهو الآن (ملقا) .. ولقد كتبت في هذا الصدد مقالاً أو أكثر في جريدة الجزيرة عام ١٤٠٦هـ.

وحينما اطلعت على مقالة الأستاذ الناصر رجعت إلى أقرب مرجع تناولته يدي ، وهو كتاب (معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار) ، من تأليف الوزير الشهير لسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦هـ تحقيق الدكتور (محمد كمال شبانه) ، فوجدته يتحدث عن (مالقة) في ص ٨٧ فيسميها (مالقة)، ويصفها في عبارات مسجوعة يذكر حسناتها فيطنب ، ولا يفوته أن يذكر بعض مثالبها .. يعدد من محاسنها : صناعاتها ، وفاخر فواكهها ومنسوجاتها .

يقول عن رُمّانها مثلاً : (وكفى برمانها حقاق ياقوت ، وأمير

قوت ، وزائراً غير ممقوت) .

والمهم في الأمر ما همش به محقق الكتاب ، فقد قال :

مالقة Malaga مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوب شرق الأندلس يرجع تأسيسها إلى الفينيقيين عام ١٢٠٠ قبل الميلاد ، حيث كانت تعرف باسم (Malaca) بمعنى (المملح) نسبة إلى الأسماك المملحة التي اشتهرت بها) .

وإذا صح هذا فإن الاسم قديم قبل الفتح العربي بألفي سنة ، ونلاحظ أن كلمة ملق أو ملك قريبة النطق من كلمة (ملح) ، وينبغي أن ندخل في اعتبارنا رأي من يقول : إن الفينيقيين عرب ، فتكون الكلمة بهذا الاعتبار عربية الجذور ، وتلتقي مع ما ذكره الأستاذ الناصر بعض (الملتقى) .

* * *

سهيـــل *

فونخيرولا :

كلما تجولت في بعض مدن جنوبي الأندلس وخاصة في منطقة مالقة ، كنت أحاول أن أربط بين أسماء هذه المدن في الوقت الحالي وبين ما كانت عليه أيام الوجود العربي ، فمدينة (مالقة) مثلاً لا تزال تحمل الاسم نفسه الذي كانت تحمله على العهد العربي ، وكذلك مدينة (ماربيا) فاسمها العربي (مَرْبَلّة) وهم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم ، أو هم الذين عرّبوه على هذا النحو ، وإلا فاسمها الروماني القديم مارو بوليس ، وهو اليوم يكتب ماربيلا وينطق ماربيا .

وبين مالقة وماربيا تقع مدينة هادئة لها شاطىء جميل طويل ممتد على البحر الأبيض المتوسط ، هي مدينة فونخيرولا على مبعدة نحو ثلاثين كيلاً من ماربيا .

كنت كلما تجولت في هذه المدينة أو قطعت شاطئها مشياً على الأقدام أسأل نفسي : ترى ما اسم هذه المدينة الجميلة على عهد العرب ؟ إذ يبدو لي

---

* نشر في العدد (٩٩) من المجلة العربية ، الصادر في ربيع الثاني ١٤٠٦هـ = كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦ م.

أن هذا الاسم الغريب الذي تحمله اليوم لم أطلع عليه من قبل فيما قرأت من تاريخ الأندلس ، وإن كنت أعترف أنني لم أقرأ إلا القليل ؟

سهيل :

وقد ظللت على جهلي ذاك مدة من الزمن حتى أتيح لي أن أعود إلى داري بالرياض ، وأن أتفقد مكتبتي ، لعلي أجد فيها ما يصح أن يكون جواباً على ذلك السؤال .

كان الجواب في كتاب (الآثار الباقية) للأستاذ (محمد عبدالله عنان) - وأنا أسميه عاشق الأندلس ، لكثرة ما ألف في تاريخها ، ونقب في أخبارها وعني بآثارها - فقد أرشدني في ص ٢٥٧ من كتابه هذا ، أن المسلمين قد أطلقوا عليها اسم سهيل ، أما اسمها الروماني القديم فهو Selitane ، ولعله (سلطان) .

أما لماذا اختار لها العرب هذا الاسم ، فيقول إنهم كانوا يزعمون أن النجم المسمى سهيلاً يُرى من أعلى الجبل المجاور لها .

وتدل هوامشه على أنه قد رجع إلى مصدرين أحدهما (الروض المعطار) والآخر (رحلة ابن بطوطة) .

وكما أفادني الأستاذ عنان رحمه الله عن اسمها العربي ، فقد أفادني أيضاً بنبذة عن تاريخ ذلك الحصن الذي أشاهده قائماً على مقربة من وادي المدينة ، وعلى قيد خطوات من الشاطىء ، على صهوة ربوة أو جبيل صغير .. فقال : إن المعروف من تاريخه أنه بني على عهد عبدالرحمن بن الحكم في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي ، واستمر قائماً حتى انتهت دولة الإسلام في الأندلس ، ثم عدل بناؤه أيام

الأمبراطـور شالكـان ، فالطلل القائـم اليوم هو للحصن المعدل ، وهو (حصن الرابطة) كما أسماه ابن بطوطة .

هذه خلاصة ما قاله صاحب (الآثار الباقية) .

وبالرجـوع إلى (الروض المعطـار) لمحمـد بن عبدالمنعـم الحميـري (ت ٧٢٧هـ) ، والطبعـة التي بين يدي هي طبعـة بيـروت تحقيـق الدكتـور إحسان عباس ، وجدت النص الوارد به موهـم ، ويبدو أن به سقطاً أو اضطراباً في الأسطر ، وهأنذا أورد النص كـمـا وجـدته في ص ٥٣٤ في الكلام على مَرْبَلَة .. يقول النص :

« مَرْبَلَة : بالأندلس ، بقرب مرسى سهيـل ومرسى مالقة ، ومَرْبَلَة مدينة صغيـرة مسـورة من بناء الأول ، محكمة العمل ، ممتنعة المرام ، وهناك جبل منيف عـال ، يزعم أهل تلك الناحية أن النجم المسمى سهيلا يُرى من أعلاه ، ولذلك سمي أبو القاسم الأستاذ الحافظ مؤلف (الروض الأنف) السهيلي » .

ويعقـب المحقـق الأستاذ إحسـان عبـاس على هذا بقوله في الهامش : « توفـي السـهـيلـي سنة ٥٨١ ، انظر ترجـمـتـه في التكملة رقم ١٦١٣ والمطرب ٢٣٠ ونكت الهميان ١٨٧ . وقال الصفدي : وأصله من قرية بوادي سهيل من كورة مالقة ، لا يُرى سهيل في جميـع المغـرب إلا من جبل مطل على هذه القريـة ، قلت : وفي كـلام صاحـب الـروض إيجاز يوهم غيـر مـا يقوله الصفدي » أهـ .

وملاحظتي أن صاحب الروض لم يذكر قرية سهيل في حرف السين ولا في حرف الميم في (مرسى) ، ومن عجب أنه حينما يعرف مَرْبَلَة يقول إنها بقرب مرسى سهيل ، وإذن فمرسى سهيل أكثر شهرة من مَرْبَلَة ، ثم يتحدث عن جبل سهيل في سياق الحديث عن مَرْبَلَة .

أما ابن بطوطة فقد ذكرها في رحلته ، وإن كان اسمها سقط من فهرس الأماكن ، في الطبعة التي بين يدي طبعة بيروت ١٣٨٤هـ ص ٦٦٩ يقول ابن بطوطة :

« فلما جاوزت حوز مَرْبَلَة ، ودخلت في حوز سهيل ، مررت بفرس ميت في بعض الخنادق ، ثم مررت بقفة حوت مطروحة بالأرض ، فرابني ذلك ، وكان أمامي برج الناظور ، فقلت في نفسي : لو ظهر هاهنا عدو لأنذر به صاحب البرج ، ثم تقدمت إلى دار هنالك فوجدت فرساً مقتولاً ، فبينما أنا هنالك سمعت الصياح من خلفي ، وكنت قد تقدمت أصحابي ، فعدتُ إليهم ، فوجدت معهم قائد حصن سهيل ، فأعلمني أن أربعة أجفان للعدو ظهرت هنالك ، ونزل بعض عمارتها إلى البر ، ولم يكن الناظور بالبرج ، فَمَرَّ بهم الفرسان الخارجون من مَرْبَلَة ، وكانو اثني عشر ، فقتل النصارى أحدهم ، وفر واحد ، وأسر العشرة ، وقُتل معهم رجل حَوّات ، وهو الذي وجدت قفته مطروحة بالأرض ، وأشار عليّ ذلك القائد بالمبيت معه في موضعه ، ليوصلني منه إلى مالقة ، فبت عنده بحصن الرابطة المنسوبة إلى سهيل ».

الجدير بالذكر أن ابن بطوطة قال قبل ذلك : إنه كان يوشك أن ينضم إلى ركب أولئك الفرسان الذين أصابهم ما أصابهم ، ولكن الله سلم .

كما يجدر بالذكر أنه لا يزال يوجد على مقربة من مدخل مدينة فونخيرولا أو سهيل برج مطل على البحر ، لعله أثري يحرصون على تجديده ، أما الحصن فقد مَرّ من خبره ما ذكرت .

وقد ذكر صاحب القاموس حصن « سهيل » فقال : سهيل كزبير حصن بالأندلس، وواديها أيضاً » . وأضاف شارحه الزبيدي في (تاج العروس) :

« إليه نسب الإمام أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أبي

الحسن الخثعمي السهيلي مؤلف (الروض الأنف) وغيره ، قال ابن الأبار : بالقرب من مالقة ، سُمي بالكوكب لأنه لا يُرى في جميع الأندلس إلا منه » .

وهكذا نرى أن اسم سهيل ليس مختصاً بالحصن ، وإنما هو يشمل الوادي أيضا .. ومجرى وادي المدينة على مقربة من أطلال الحصن ، بعد اجتيازه في الطريق إلى مالقه بالنسبة للقادم من ماربيا ..

أما نجم سهيل ، فهو كما تقول دائرة المعارف الإسلامية ، النجم المعروف في الغرب باسم Canopus ، وإن جميع الأقطار الواقعة شمالي خط ٣٧° لا يرونه .. أقول : ولعل (صعوبة) مطالع (سهيل) هي التي جعلت العامة تقول في أمثالها : « أوريّه سهيل يطلع منين (من أين) » .

ونجم سهيل معروف بتألقه ، ولذلك قال الشاعر :

وسهيل كوجنة الحب في اللو ن ، وقلب المحب في الخفقان .

وإليه أومأ عمر بن أبي ربيعة حينما قال :

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استهلت وسهيل إذا استهل يماني

فهو لا يتحدث طبعاً عن نجم الثريا أو نجم سهيل ، فالثريا اسم حسناء ، وسهيل هو سهيل بن عبد الرحمن بن عوف ..

وقد حدثنا القاموس أن سهيلاً نجم (يماني) أي أنه يظهر في الجنوب ، وقال صاحب القاموس إنه عند طلوعه تنضج الفواكه وينقضي القيظ . ويقول الشارح ، إنه لا يُرى بخراسان ، وهو يرى بالحجاز ، وفي جميع

أرض العرب ، ولا يُرى بأرض أرمينية ، وبين رؤية أهل الحجاز سهيلاً ، وبين رؤية أهل العراق إياه عشرون يوماً . قال الشاعر :

إذا سهيل مطلع الشمس طلع   فأين اللبون الحق ، والحق جذع

* * *

الأعلام

السهيلي *

أما السهيلي الذي ورد ذكره في الفصل السابق عن (سهيل) فهو أبو القاسم عبدالرحمن (٥٠٨ - ٥٨١هـ) العلامة الأندلسي مؤلف كتاب (الروض الأنف) ، وهو الكتاب المشهور في شرح سيرة ابن هشام ، ولقد كان هذا العالم الجليل شاعراً ، وما وقفت عليه من شعره في مقدمة التحقيق التي كتبها محقق (الروض الأنف) الأستاذ (عبدالرحمن الوكيل) تدل على أنه كان شاعراً رقيقاً ، يدل شعره على أصالة الموهبة الشعرية لديه ، وتعمقها من نفسه ، وليس مجرد ناظم ، كما عهدنا في أغلب ما ينظم النحاة والفقهاء .

لقد ضرب الإفرنج بلده « سهيل » ، وكان غائباً عنه ، فلمّا علم بما نكبت به ، من قتل لذويها وتشريد لسكانها - وكان بين الضحايا أهله وأحباؤه - التمس من يوصله إليها على دابة ، وكان كفيفاً ، كف بصره وهو في السابعة عشرة من عمره .

فلما أشرف عليها قال يرثيها ، هذا الرثاء الشجي الحزين ، وإن هذه

---

* نشر بعضه في العدد (٩٩) من المجلة العربية ، الصادر في ربيع الثاني ١٤٠٦هـ = كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦م، ونشر الباقي في العدد (١٠٥)من المجلة ذاتها ، الصادر في شوال ١٤٠٦هـ = تموز (يوليو) ١٩٨٦م.

الأبيات عندي لمن أشجى ما قرأت من الشعر :

يادار ! أين البيض والآرام ؟ أم أين جيران عليّ كرام ؟
راب المحبَّ ، من المنازل أنه حيًا .. فلم يرجع إليه سلام !
خرسنَ؟ أم بَعُد المدى فنسينه أم غال ، من كان المجيبَ ، حِمام ؟
دمعي شهيدي أنني لم أنسهم إن السلوّ على المحب حرام !
لما أجابنيَ الصدى عنهم ، ولم يلج المسامعَ للحبيب كلام
طارحتُ ورق حمامها مترنما بمقال صب والدموع سجام
يادار ما صنعت بك الأيام ضامتك ، والأيام ليس تضام

والسهيلي هو صاحب الأبيات الدعائية المشهورة التي مطلعها :

يامن يرى ما في الضمير ويسمع أنت المعد لكل ما يتوقع

وقال العلامة الزّبيدي - شارح القاموس - في « التاج » مادة (سهل) عن السهيلي ، إنه مات بمراكش سنة ٤٨١هـ .. وهذا في أغلب الظن تطبيع ، فالصحيح أنه مات بها سنة ٥٨١هـ كما ذكرت من قبل ، الموافقة سنة ١١٨٥م ، أما ولادته فكانت سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤هـ .

ومما يستدرك على الزركلي رحمه الله في (الإعلام) أنه قال في ترجمته له ما يفيد أن كتابه (التعريف والإعلام في ما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام) - مخطوط - بينما هذا الكتاب مطبوع قديماً ، وهو رسالة صغيرة رأيتها ، وإن لم يذكرها سركيس في معجم المطبوعات .

ولقد رأيت في (نفح الطيب) ٣٦٩/٤ طبعة دار الكتاب العربي ، بعض أخبار السهيلي ، عرفت منها أنه كانت له حلقة تدريس ، وأن من شعره قوله :

جعلتُ طريقـي على بابـه ومالي على بابـه من طريقْ
عاديتُ من أجلـه جيرتي وآخيتُ مَن لم يكن لي صديقْ
فإن كان قتلي حلالاً لكـم فسيروا بروحي سـيراً رفيـقْ

ولهذه الأبيات خبر ذكره صاحب « النفح » .

ويبدو أن هناك حرباً أدبية قد نشبت بين السهيلي والرصافي الشاعر ، وهو طبعاً رصافي قديم [١] . وقد استعد فيها هذا الأخير بكنائن كثيرة ليرمي بها السهيلي ، انظره كيف يقول :

عفا اللـه عني فإني امرؤ أتيت السلامة من بابها
لي أن عنـدي لمن هاجني كنائن غصت بنشّابهـا
ولو كنت أرمي بها مسلماً لكان السهيلي أولى بها

وصاحب النفح يذهب إلى أن وفاة السهيلي كانت سنة ٥٨٣هـ ، ويقول : إنه كان يزور قبره بمراكش مراراً سنة عشر وألف ، وقال عنه : إنه سكن إشبيلية مدة ، ولازم القاضي أبابكر بن العربي ، وابن الطراوة ، وعنه أخذ لسان العرب .

وروى من شعره أنه حينما قال : كيف أمسيت ؟ مكان كيف أصبحت :

لئن قلت صبحاً كيف أمسيت ، مخطئاً فمـا أنـا في ذاك الخطـا بملـوم
طلعت وأفقـي مظلـم لفراقكـم فخلتك بـدراً ، والمسـاء همومـي

وجدير بالذكر أنه كان من بين الكتب التي راجعتها لتتبع أخبار السهيلي ، كتاب « الديباج المذهب لابن فرحون » (ت ٧٩٩) والنسخة التي بين يديّ منه من تحقيق الدكتور (محمد الأحمدي أبوالنور) ، وجاءت ترجمة السهيلي فيه ص ٤٨٠ ، وقد ختمها المؤلف بقوله :

---

(١) هو محمد بن غالب الرفّاء الرصافي (ت ٥٧٢ هـ) شاعر وقته في الأندلس [المصحح] .

« وكان رحمه الله مكفوفاً وعاش اثنتين وسبعين سنة ». وجاء بعد هذه الجملة مباشرة قوله : « وفي كتاب العبر للذهبي » ، وواضح هنا كما يبدو لي ، أن المؤلف يقصد (كما في كتاب العبر للذهبي) ، وأن هناك خطأ ما في النسخ ، ولكن محقق الكتاب التبس عليه الأمر ، فظن أن المراد بقوله (وفي كتاب العبر للذهبي) ، هو النص التالي ، أي ترجمة عبدالرحمن بن محمد بن عسكر شهاب الدين البغدادي ، فرجع إلى كتاب (العبر) ، فلم يجد فيه ترجمته ، فقال في الهامش : « لا وجود لهذا النص في العبر » .. إلى أن قال : « ترجم له ابن العماد في الشذرات ١٠٢/٦ » .. وهو بذلك أبعد النجعة ، وصحة العبارة عندي « وكان (أي السهيلي) رحمه الله مكفوفاً ، وعاش اثنتين وسبعين سنة ، كما في كتاب العبر للذهبي »[١] .

* * *

(١) انظر العبر : ٢٤٤/٤ .

من هو الكرماني *

كنت أحاول أن أكتب شيئاً عن حياة الإمام البصري ابن سيرين ، الذي اشتهر إلى جانب علمه وفضله وورعه ، بقدرته الفائقة على تعبير الأحلام .. وساقني البحث إلى مقدمة ابن خلدون .. فقرأت ما كتبه عن علم تعبير الرؤيا حتى تطرق في بحثه إلى من كتب في هذا العلم فوجدته يقول :

« ولم يزل هذا العلم متناقلاً بين السلف ، وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء ، وكُتبت عنه في ذلك القوانين ، وتناقلها الناس لهذا العهد ، وألّف الكرماني فيه من بعده ، ثم ألّف المتكلمون المتأخرون وأكثروا ، والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القيرواني [1] ، من علماء القيروان ، مثل (الممتع) وغيره ، وكتاب (الإشارة) للسالمي [2] من أنفع الكتب فيه وأخصرها ، وكذلك كتاب (المرقبة العليا) لابن

---

* نشر في العدد (٨٢) من المجلة العربية ، الصادر في ذي القعدة ١٤٠٤هـ = أغسطس ١٩٨٤م .

(١) هو مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني (ت ٤٣٠ هـ).انظر الحديث عن كتابه « الممتع » ومصادر ذكره في كتاب (مكي بن أبي طالب وتفسير القرآن)للدكتور أحمد حسن فرحات ص ١٣٦ . [المصحح] .

(٢) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عمر السالمي (ت ٨٠٠ هـ) ، والاسم الكامل لكتابه : « الإشارة إلى علم العبارة » . قال حاجي خليفة :(اعتمد فيه على كتاب أبي إسحاق الكرماني). كشف الظنون : ٩٧/١ . [المصحح] .

راشد [1] من مشيختنا بتونس » أهـ.

وبدا لي أن أتعرف إلى الكرماني .. من هو ؟ وما كتابه ؟ وهل أشار فيه إلى أخذه عن ابن سيرين ؟

فاستقصيت أسماء الأشخاص الذين حملوا هذه النسبة أعني (كرماني) في الأعلام للزركلي - وقد ذكر منهم عشرة - فلم أجد من بينهم من له ذكر في تعبير الرؤيا ..

وأحصيت الذين ذكرهم الأستاذ (عمر رضا كحالة) في كتابه (معجم المؤلفين) فوجدته ذكر ثلاثة وثلاثين اسماً ، تعقبت ترجماتهم فلم أجده ذكر من بينهم من له كتاب في التعبير .

ورجعت إلى بروكلمان في كتابه (تاريخ الأدب العربي) فوجدته يقول عن الكتاب ومؤلفه ما نصه : ٤/ ٣٣٠ ..

« وكتاب تعبير الرؤيا لأبي إسحاق الكرماني (الفهرست ص ٣١٦ س ٢٦ . حاجي خليفة ٣٠٧/١ ، رقم ٧٦٠، ٦٣/٥) درسه أبوبكر بن الأنباري المتوفى سنة ٩٣٩/٣٢٧ ، انظر ياقوت : الإرشاد المجلد السابع ص ٧٤ ، س ٢ » اهـ .

ماهي الإضافة التي أفادنا بها بروكلمان ؟ لقد زاد النسبة كنية ، فعرفت أن الكرماني هو أبو إسحاق ، ولكن اسمه لا يزال مجهولاً ..

ما علينا .. فلنتبع مصادر بروكلمان ..

---

(١) هو محمد بن عبدالله بن راشد البكري القفصي(ت ٧٣٦ هـ) ، والاسم الكامل لكتابه : « المرقبة العليا في تعبير الرؤيا » . قال ابن فرحون : (كتابٌ غريبٌ في فنه) . الديباج المذهب : ٣٣٤. نيل الابتهاج : ٢٣٥ . الأعلام : ٢٣٤/٦ . [المصحح] .

أما الفهرست فلم تزد عبارته عن هذا النص : « كتاب تعبير الرؤيا للكرماني » ، ولا شيء بين يدي النص .

أما حاجي خليفة فقد ذكره في ١٤٠٥/٢ في الطبعة التي بين يدي فقال ما نصه : « ولأبي إسحاق الكرماني ذكر فيه .. إلخ » وليس في النص ما يعرف بالمؤلف ولا تاريخ وفاته ..

مهلاً لعلنا نجد الجواب الشافي عند أبي بكر بن الأنباري .. ولكن بروكلمان على دقته ، لم يذكر اسمه مكتفياً بلقبه وكنيته وتاريخ وفاته .. حسناً فهي كافية .

فهو كما جاء في الأعلام محمد بن القاسم ، لم يذكر صاحب الأعلام شيئاً عن كتاباته في التعبير ، ولا كحالة في (معجم المؤلفين) ، كما أن بروكلمان حينما قال : درسه ، لم يذكر أين درسه ؟ ، ولكنه أشار إلى ترجمته في (معجم الأدباء) لياقوت فوجدت فيها ٣٠٧/١٨ أن جارية الراضي سألته يوماً عن تعبير رؤيا فقال : أنا حاقن ، ثم مضى من يومه فحفظ كتاب (الكرماني في التعبير) ، وجاء من الغد ، وقد صار معبراً للرؤيا !

والأنباري توفي سنة ٣٢٧ هـ ٩٣٩م ، وهكذا لم أجد في (معجم الأدباء) ما يعرف بالكرماني .. فهل وصلت إلى مرحلة اليأس ؟

مهلاً فلندع للأمل فسحة .. أما وأنني لم أجد طلبتي في تلك المراجع التي ذكرت فلم لا تكون لي رحلة إلى بلاد الهند .. وبلاد الهند بلاد الكنوز والعجا ئب .. ولم تكن الرحلة بعيدة ، فقد كان على مقربة مني .. وبأقل من ثلاث خطوات يقبع عالم هندي فاضل من بلدة (تونك) هو (محمود حسن التونكي) ت ١٣٦٦هـ منطوياً بين دفتي كتابه (معجم

المصنفين) .

حقاً إن الكتاب لم يتمّ ، ولم يطبع منه فيما أعلم إلا أربعة أجزاء في مجلدين ولم يتجاوز من الأسماء اسم إبراهيم ، إذن فهو في أول الألفباء .. وأنا لا أعرف اسم صاحبنا الذي أبحث عنه .

لكن لِمَ لا يكون (إبراهيم) .. أليس هو أبا اسحاق ؟ .

صحيح أن الأجزاء الأربعة التي طبعت من (معجم المصنفين) لم تفهرس فهرسة مفصلة .. لكن .. ما علينا فلنستعرض جميع أسماء (إبراهيم) بحثاً عن الكرماني أبي إسحاق .

وأَجْدَت المحاولة ، وظفرتُ بصاحبنا .. فماذا قال في تعريفه ؟ ٢٢٨/٣ (الترجمة رقم ١٥٦) .

« المعبِّر إبراهيم الكرماني ، المتوفى قبل سنة ٣٨٢ :

« الشيخ العلامة المعبِّر أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله الكرماني ، كان من قدماء المعبِّرين المشهورين . قال الجلبي في حرف الدال من كشف الظنون كتاب (الدستور) في التعبير لإبراهيم الكرماني المتوفى(....) وفي القلمية لإبراهيم بن محمد الكرماني المتوفى سنة ٨٤٢ اثنين وأربعين وثمانمائة .. ثم قال في حرف الكاف (كتاب التعبير) لأبي إسحاق الكرماني ذكر أنه رأى يوسف الصديق عليه السلام في المنام فأعطاه قميصه فلبسه ، وقال : مافي كتابي شيء إلا وقد جرَّبته ، وأنه أخذ التأويل من صحف إبراهيم عليه السلام ، ومن كتب دانيال ، وعن سعيد بن المسيب ، وعن ابن سيرين . قال العامل عُفي عنه : وسماه النابلسي في طبقات المؤلفين في التعبير إبراهيم بن عبدالله الكرماني .. ورأيت في كتاب (منتخب الكلام) في تعبير الأحلام للشيخ أبي سعيد الواعظ أنه

حكى أن إبراهيم بن عبدالله الكرماني ، رأى كأن يوسف عليه السلام كلّمه ، فقال له : علمني مما علمك الله فكساه قميص نفسه فاستيقظ، وهو أحد المعبرين . انتهى . قال العامل عُفي عنه ، فما أرخه الجلبي في وفاة المترجم سنة ٨٤٢ لا يكاد يصح ، وذلك لأن الشيخ أبا سعيد الواعظ صنف كتابه في سنة ٣٨٢ اثنين وثمانين وثلاثمائة والله أعلم » اهـ .

هذا هو نص ما أورده التونكي ، أوردته كاملاً لتسهل مناقشته .. فلقد أدركت منه أن الكرماني أبا إسحاق هو : إبراهيم بن عبدالله ، أو ابن محمد ..

وعرفتُ أن صاحب كشف الظنون أورده في حرف الدال في كلمة (الدستور) وهو اسم كتابه .. وهذا الاسم لم يرد في أي كتاب من تلك التي أشارت إلى الكرماني .. ولكنه أورده في حرف الكاف تحت اسم (كتاب التعبير) فقال : (ولأبي إسحاق الكرماني ذكر فيه أنه رأى يوسف الصديق .. » إلخ ..

فهو هنا لم يسمه بل كناه فقط .

والنسخة المطبوعة من كشف الظنون ، فيها بياض في مكان ذكر وفاة الكرماني ، ولكن التونكي أفادنا أن القلمية (الخطية) فيها ذكر سنة الوفاة وهي ٨٤٢ .. وقد أوضح لنا التونكي نفسه أن ذلك خطأ ، لأن الشيخ أبا سعيد الواعظ ألف كتابه سنة ٣٨٢ ، ولذلك فإن الكرماني كان قبله مادام الواعظ قد نقل عنه .

أقول : وأضيف إلى ذلك ما جاء في مقدمة ابن خلدون من إشارته إلى أن الكرماني جاء من بعد ابن سيرين .. أي أنه كان قريباً منه ، وابن خلدون نفسه توفى سنة ٨٠٨هـ ، وترتيب كلام ابن خلدون يدل على أقدمية الكرماني ، وقد أورد التونكي نفسه كلام ابن خلدون

عندما تكلم عن علم (تعبير الرؤيا) في مقدمته التفصيلية ١/ ١٨٠ من معجم المصنفين .

أما الاختلاف في اسم أبيه ، وهل هو محمد أو عبدالله فإننا نجد في تراثنا مثله الشيء الكثير .. ولكن الغريب في الأمر أن لا يرد اسمه لا في كتاب (الأعلام) للزركلي ، ولا في (معجم المؤلفين) لكحالة ، ولا في (هدية العارفين ، أسماء المؤلفين) .

وبعد .. فبقي سؤال هو ما مصير كتابه الذي يبدو أنه كان معروفاً إلى القرن الثامن على عهد ابن خلدون ؟

ذلك ما يحتاج إلى بحث آخر ، أتركه للعالمين بالمخطوطات وفهارسها في الشرق والغرب ! [1]

* * *

(١) يجد القارىء في الصفحات التالية الاستجابة الكريمة للأستاذ محمود السيد الدغيم.

الكرماني وكتابه *

أسعفني الحظ إذ عثرت على العدد « ٨٢ » من المجلة ، ذو القعدة ١٤٠٤هـ ، أيلول ١٩٨٤م ، ولدى مطالعتي لكناشة الشهر « من هو الكرماني » للكاتب عبدالعزيز الرفاعي ، استوقفني الفضول فتوجهت فوراً إلى مكتبة السليمانية لأبحث عن المخطوط المذكور .

بدأت أبحث عن الكتاب في أرشيف السليمانية ، فوجدت بطاقة تحمل الرقم ٦٢٣٤ « مكتبة حاج محمود أفندي » كتب عليها « تعبير الرؤيا للفاضل الكرماني ، فدلفت فوراً إلى قاعة المطالعة ، وطلبت المخطوطة من القيّم ، وماهي إلا لحظات حتى وجدتها أمامي ، ومواصفاتها هي : مخطوطة بخط النسخ يعود تاريخها إلى سنة ١٠٣٤ ، وأبعادها ٢٧٥ مم × ١٧٥ مم ، أما مساحة الكتابة فهي ١٩٠مم × ١١٥ مم ، وعدد الأوراق ١٣٧ ورقة . والمخطوطة ليست كاملة ، وإنما أتى الزمان على شيء كثير منها ، وإليكم وصف الموجود منها :

يقع الكتاب في ثلاثين فصلاً ، وقد بدأه المؤلف بالفهرسة المفصلة

---

* نشر في صفحة « ساحة الحوار » ، العدد (٩١) من المجلة العربية ، الصادر في شعبان ١٤٠٥هـ = أيار (مايو) ١٩٨٥م .

حيث ذكر محتويات الفصل الأول ثم الفصل الثاني مستعملاً اللونين الأسود والأحمر ، ويقع الفصل الأول في خمسة وثلاثين باباً ، الباب الأول في رؤية آدم وحواء ، والباب الثاني في رؤية قابيل وهابيل ، والباب الثالث في رؤية شيث الخ .. والباب الرابع والثلاثون في رؤية محمد ﷺ ، والباب الخامس والثلاثون في علاوته من الرؤيا .

ثم يأتي الفصل الثالث : في رؤية الروح الأمين والملائكة المكرمين صلوات الله عليهم ويقع في اثني عشر باباً .

ويليه الفصل الرابع : في رؤية الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين رضي الله عنهم ، وهو في أربعة أبواب .

الفصل الخامس : في رؤية الجان والشيطان والغيلان والدجال ، وهو بابان .

أما فهرس الفصل الثلاثين فهو في تأويل رؤية دار الصفا وما فيها من النعيم والجحيم و الصراط ويوم القيامة وما تحققه من الأشراط ، وهو في خمسة عشر باباً .

وبعد انتهاء الفهرسة يقول الكرماني :

« فذلك ثلاثون فصلاً في ألف وثلاثمائة وستة وتسعين باباً تفضي إلى ذكر خمس عشرة مقالة ضمنها أهل هذه الصناعة فواتح مصنفاتهم ومبادىء مؤلفاتهم ، ليتحقق بها المعبرون تأويل ما يعبرون ، وهذه جملتها :

فالمقالة الأولى في ذكر النوم ، والمقالة الثانية في آداب النائم ، والمقالة الثالثة في ذكر كيفية الرؤيا ، والمقالة الرابعة في ذكر ملك الرؤيا ، والمقالة

الخامسة في ذكر ماهية الرؤيا[١] ، والمقالة السادسة في ذكر أصناف الرؤيا الصحيحة ، والمقالة السابعة في ذكر أصناف الرؤيا الباطلة ، والمقالة الثامنة في ذكر أوقات يصح ما يرى فيها أو يبطل أو يسرع أو يبطيء ، المقالة التاسعة في ذكر الأزمنة التي تقوى فيها الرؤيا أو تضعف ، المقالة العاشرة في ذكر ماهية الرؤيا [١] ، المقالة الحادية عشرة في آداب القاص لرؤياه ، والمقالة الثانية عشرة في آداب المعبر ، والمقالة الثالثة عشرة في ذكر ما يقال عن قص الرؤيا ، والمقالة الرابعة عشرة في ذكر الأيام السبعة التي يسأل فيها عن الرؤيا ، والمقالة الخامسة عشرة في ذكر المتخيرين من طبقات مشاهير المعبرين وهم مائة رجل وخمس عشرة طبقة » .

ويتابع الكرماني ذكر أبواب وفصول كتابه حتى يصل إلى الفصل الثلاثين فيقول : « طبقات مشاهير المعبّرين وهم مائة رجل من خمس عشرة طبقة ، قال نصر بن يعقوب : قد ضمن الحسن بن الحسين الخلال كتابه المترجم بـ (طبقات المعبرين) ذكر أسماء سبعة آلاف وخمسمائة معبر ثم تخير منهم ستمائة رجل ونطق بأسمائهم في كتابه (تعبير الرؤيا) .. فكرهت تطويل تأليفي هذا بإعادتها واقتصرت على ذكر مائة رجل من مشاهيرهم الذين ضربوا في هذا العلم بسهم وأخذوا منه بقسم وجعلتهم خمس عشرة طبقة ، ونموذجاً يدل على ما وراءه ، وألغيت ذكر معبري براهمة الهند ونساكهم للعجمة التي في أسمائهم واشتباهها على القارىء » . اهـ .

ثم يذكر في الطبقة الأولى الأنبياء ، وفي الطبقة الثانية الصحابة ، وفي الطبقة الثالثة التابعين ، وفي الطبقة الرابعة الفقهاء ، حيث يذكر أبا ثور

---

(١) كذا في المقال المنشور في المجلة ! [المصحح] .

والأوزاعي وسفيان الثوري والشافعي وأبا يوسف ·

ثم يأتي خرم في المخطوطة .. دون إكمال الطبقات ، وقد شمل النقص عدداً من الأوراق استمر حتى بداية الفصل الأول :

الفصل الأول مؤلف من ثلاثة أبواب .. سقط من المخطوطة قسم من الباب الأول وهو في رؤية الله تعالى المبشرة وشؤونه المحذرة والمنذرة ·

ثم يأتي الفصل الثاني في رؤية الأنبياء عليهم السلام وهو كامل ليس فيه نقص ، يليه الفصل الثالث المكون من أحد عشر باباً كاملاً باستثناء الباب الحادي عشر إذ لا يوجد منه سوى صفحة واحدة ، وكذلك الباب الثاني عشر قد سقط بكامله ، وهو في رؤية الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين رضي الله عنهم وهو في أربعة أبواب ·

ثم يأتي الفصل الخامس في تأويل رؤية الجان والشيطان والغيلان وفيه بابان تامان ·

يليه الفصل السادس في تأويل رؤية الإنسان وأعضائه ، وهو في « ٣٦ » باباً يبدأ بذكر النطفة والحبل حيث يقول : « والحبل زيادة في دنيا صاحب الرؤيا ذكراً كان أو أنثى فإن رأى رجل أن فيه حبلاً فإنه في هم ثقيل خفي عن الناس يخاف ازدياده وفشوه ، وإن رأت امرأة أنها حبلى فإنها تواضب أمر زوجها وتنال منه مالاً وزيادة نامية » أهـ .

ثم تتابع أبواب الفصل كاملة ويليها الفصل السابع في تأويل ما يخرج من السبل في الأبدان وهو في ثلاثة وثلاثين باباً أولها في ألبان الحيوان · وهذا الفصل يأتي كاملاً ، يليه الفصل الثامن في تأويل رؤية الأديان والعبادات والسنن وهو في ثمانية وثمانين باباً تتوارد كاملة حتى الباب الحادي والثلاثين وهو في رؤية التوراة والإنجيل حيث يوجد العنوان يليه

بياض في الصفحة ، وقد كتب على الهامش « تفسيره ساقط في الأصل » .
ثم تكتمل الأبواب دون نقصان .

ثم يأتي الفصل التاسع في تأويل السلطان ومن يتسم به من الحشم والأعوان وهو اثنان وعشرون باباً تامة ، يليها الفصل العاشر في تأويل الأعمال وتبويبها على الحروف ، وهو في خمسة وخمسين باباً أولها في رؤية ماجاء على حرف الألف كأكل الإنسان لحمه ولحم غيره و الإياب من السفر وأكل الطعام والاغتسال إلخ .. وآخر باب في رؤية ما جاء على حرف الياء كاليأس واليتم .. إلخ .

ويرد الفصل الحادي عشر في تأويل رؤية الحروب وحالاتها ونكاياتها وسائر آلاتها ، ويقع في ستين باباً تاماً دون نقص .

ويليه الفصل الثاني عشر في رؤية الصناع والعمل وأصحاب الحرف مرتبة على حروف المعجم ماعدا حرفي الياء والطاء وهو في خمسة وعشرين باباً كاملاً .

ويتبعه الفصل الثالث عشر في رؤية الأدوات المستعملة وآلات العملة مبوباً على نسق الحروف ماعدا حروف الدال والصاد والطاء والياء ، وهو في ثلاثة وأربعين باباً تتوارد كاملة حتى عنوان الباب الثاني والأربعين في علاوة الوتد من الرؤيا المعبرة . ثم يتبعه بياض يليه انتهاء المخطوطة .

وقد كتب في الهامش : كان الفراغ من رقمه على ماوجد في الأم وذلك يوم الجمعة غرة شهر ذي الحجة سنة ١٠٣٤ .

تجدر الإشارة إلى عدة نقاط وهي :

١ - راجعت البطاقات التي تحمل أسماء الكتب في السليمانية فوجدت

بطاقة هذا الكتاب تحت اسم : تعبير الرؤيا للكرماني .

٢ - راجعت البطاقات التي تحمل أسماء المؤلفين في مكتبة السليمانية فوجدت بطاقة هذا الكتاب تحت نفس الاسم والمؤلف.

٣ - كتب على الصفحة الأولى من المخطوطة : تعبير الرؤيا للفاضل الكرماني .

٤ - خلال مطالعتي للكتاب وردت في المتن أكثر من مرة عبارة تقول : « قال نصر بن يعقوب » ، وهذا ما يدل على أن الكتاب ليس للكرماني المذكور في مقالة السيد عبدالعزيز الرفاعي .

وإنني أرجح أن الكتاب الذي ذكره حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون هو هذا الكتاب ، حيث وردت العبارة لدى حاجي خليفة : « كتاب تعبير الرؤيا للكرماني » ، وهذا ما وجدته على البطاقات والمخطوطة .

٥ - جاء في الأعلام للزركلي ، المجلد الثامن ، صفحة ٣٥٢ : « الدينوري نحو ٤١٠ هـ ، ١٠٢٠م نصر بن يعقوب الدينوري ، أبو سعد : عالم بالأدب من كبار الكتاب .. له تصانيف منها التعبير القادري في الأحلام ألفه للقادر بالله ».

٦ - جاء في مخطوطة إبراهيم بن يحيى بن غنام الحنبلي حينما تعرض لذكر الطبقة السادسة من المفسرين « والطبقة السادسة من أصحاب التأليفات محمد بن سيرين وإبراهيم بن عبدالله الكرماني وعبدالله بن مسلم القتيبي .. الخ ».

٧ - جاء في مخطوطة إسماعيل بن نظام الملك في التعبير : « أبو سعد نصر بن يعقوب سنة سبع وتسعين وثلاثمائة - برسم خزانة كتب الخليفة

أبو العباس القادر بالله » ، ثم يتابع سرد أسماء المؤلفين حتى يذكر : « إبراهيم بن عبدالله الكرماني » .

المخطوطة في السليمانية تحت رقم ١٧٢٨ « بعد ابن سيرين مباشرة » .

٢ ذو الحجة ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤/٨/٢٨م

محمود السيد الدغيم - تركيا

سَــوَّار العنبري *

في تراثنا العربي الإسلامي أسر كثيرة تتوارث العلم والأدب والشعر ، على سبيل المثال انحدر من أسرة زهير بن أبي سلمى سلسلة من الأولاد والأحفاد كلهم شعراء .. فجاء كعب بن زهير صاحب (بانت سعاد) وجاء أخوه بجير وجاء بعد ذلك عدد من الأحفاد الشعراء يتراوحون في مستوى جودتهم ·

وبنو الأثير الإخوة الثلاثة كانوا أسرة علم ، وقد وضع عنهم كتيباً الصديق الأديب (محمد الحمدان) ·

وفي مكة كانت أسرة (الطبري) أسرة علم وفقه وحديث ، وكذلك آل ظهيرة ·

وفي العصر الحديث جاءت الأسرة التيمورية ، وأسرة قطب (الأطياف الأربعة) ، منهم سيد قطب رحمه الله ، ومحمد قطب حفظه الله ·

وفي أثناء مطالعتي لكتاب (الجوهرة في نسب النبي ﷺ وأصحابه العشرة) لمحمد الأنصاري التلمساني المشهور بالبري (المتوفى على وجه التقريب سنة ٦٨٠هـ) ١٨٩/١ وجدته يعدّد المشهورين من بني العنبر بن عمرو ابن تميم ، فيذكر أبا عبدالله سَوَّار بن عبدالله العنبري قاضي البصرة لأبي جعفر المنصور ، وأنه أقام قاضياً بها سبع عشرة سنة ، وولي صلاة البصرة مرتين ، ومات وهو أميرها سنة ست وخمسين ومئة ·

---

* نشر في العدد (٨٣) من المجلة العربية ، الصادر في ذي الحجة ١٤٠٤هـ = أيلول (سبتمبر) ١٩٨٤م ·

وأبوه أبو السَّوَّار عبدالله بن قدامة بن عثرة من ولد كعب بن العنبر ، روى عن أبي برزة الأسلمي وروى عنه ثوبة العنبري ، وولي أيضاً قضاء البصرة مثل ابنه سَوَّار ، وأبوالسَّوَّار معدود في الطبقة الثانية من تابعي أهل البصرة .

وقد عزا المؤلف هذا النص إلى مسلم [(١)]. ثم قال :

« وولي عبدالله بن سَوَّار القضاء بعد أبيه وولي القضاء ابنُ ابنِه أيضاً ، وهو سَوَّار بن عبدالله ، فولوا القضاء أربعة في نسق ، وخرَّج عن سَوَّار الأخير الترمذي ، وكان سَوَّار أبو عبدالله فقيهاً ، عدلاً ، صالحاً . روي أن رجلاً من الأعراب تقدَّم إلى سَوَّار في أمر فلم يصادف عنده مايحب ، فاجتهد ، فلم يظفر بحاجته . قال : فقال الأعرابي ، وكانت في يده عصا :

رأيت رؤيا ثم عبَّرتها — وكنت للأحلام عبَّارا

بأنني أخبط في ليلتي — كلباً فكان الكلب سَوَّارا

ثم أنحى على سَوَّار بالعصا ، فما عاتبه سَوَّار بشيء .

وأورد من قصصه في عدله ، أنه مات رجل بالبصرة ، وكان لأبي جعفر المنصور عليه دَيْن ، وكانت عليه ديون للناس ، فكتب المنصور إلى سَوَّار: بلغني أن فلاناً توفي ، فانظر في تَرِكَتِه ، فاستوفِ منها ما لنا قِبَله ، واقسم ما بقي بين الغرماء . فكتب إليه سَوَّار : وصلني كتاب أمير المؤمنين ، وعلمت ما تضمنه ، وإني قَدَّمْتُ كتاب الله على كتابه ، وإنما أمير المؤمنين غريم من الغرماء يسعه مايسعهم . فكتب إليه المنصور : ملأتُ بك الأرض عدلاً ياسَوَّار .. !

والشاهد في كل ذلك أن هؤلاء أربعة من أسرة علم واحدة تولَّوا القضاء

---

(١) الذي في « الكنى » للإمام مسلم ١/ ٤١٠ : (أبو السوار قدامة بن عبدالله [قال محقق الكتاب : وجدته في كتب الرجال عبدالله بن قدامة] العنبري . سمع أبا برزة ، روى عنه ثوبة العنبري) .

واحداً بعد الآخر ، يتوارثون العلم والفقه والقضاء .

وقد رأيت محقق الكتاب أعني (الجوهرة) وهو الدكتور (محمد ألتونجي) يضبط سَوَّاراً بفتح السين وتشديد الواو .. فعذرته لما قرأت بيت الأعرابي صاحب العصا ، فلا يستقيم البيت الثاني إلا بالتشديد .. إلا أن يكون الأعرابي مولعاً بالتشديد كيفما اتفق يخبط الاسم كما خبط صاحبه .

وقد جاء ذكر سَوَّار بن عبدالله بن سَوَّار بن عبدالله في معجم الأدباء ٦/١٣٤ ، ولكن محقق الكتاب وهو الدكتور (أحمد فريد رفاعي) ضبط اسم سَوَّار بكسر السين وتخفيف الواو ، ولا أدري على ما استند في ذلك ؟ فالمحقق الأول معه شاهد وهو بيت الأعرابي الذي ذكرته .

أما الزركلي في الأعلام ، فقد تابع - على ما يبدو - محقق (معجم الأدباء) فضبطه بكسر السين ، ومصدره (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي ، ٩/٢١٠ ، وهو فيه غير مضبوط .. والطريف أنه أورد عنه خبراً يقول إنه لا يقول لا ، إن كان عنده قال : نعم . وإن لم يكن عنده قال : يقضي الله ، وأورد الشاهد :

ما قال : لا قط إلا في تشهده   لولا التشهد لم نسمع له لا لا

أقول : وهذا الشاهد يتفق في صدره مع الشاهد المشهور للفرزدق ويختلف عنه في عجزه .. قال الفرزدق :

ماقال : لا قط إلا في تشهده   لولا التشهد كانت لاؤه نعم

وقد جاءت ترجمة لسَوَّار بن عبدالله بن سَوَّار أيضاً في (أخبار القضاة) لوكيع ، يراجع الجزء الثالث من الطبعة الأولى ص ٢٧٨ ، وقد ضبطه فيه مصحح الكتاب (عبدالعزيز مصطفى المراغي) بفتح السين وتشديد الواو .

كما جاءت ترجمة جده سَوَّار الكبير في الجزء الثاني منه ص ٥٧ وهي

ترجمة مطولة .. تكرر فيها اسمه كثيراً في أشعار للسيد الحميري ولغيره ، ودل السياق فيها على أن ضبط الاسم لا يصح إلا بالتشديد ، كما دلت أخباره فيه على أنه ينحدر من أم تركية .. وأنه وُلّي القضاء في البصرة ، ثم أصبح أميراً ، وأن وفاته كانت يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من ذي الحجة ، أي من سنة ١٥٧هـ ، كما جاء في الكامل لابن الأثير ٦/١٣، وعمره أربع وسبعون سنة .

وكان سَوَّار الكبير يروي عن الحسن البصري ، وابن سيرين ، ويقول : هما سيدا أهل البصرة .

ويستطيع من يستهويه البحث في حياة هذا العَلَم أن يرجع إلى الأغاني ، وعيون الأخبار ، والمعارف لابن قتيبة .. فسيجد فيها أخباراً له ، وذلك غير المراجع التي مرّ ذكرها في هذه الكناشة ، وعلى ذكر (المعارف) لاحظت أنه قال عن العنبريين أنهم ثلاثة قضاة في نسق (ص ٥٩٠) ، والصحيح ما ذكره صاحب (الجوهرة) أنهم أربعة في نسق : فقد أهمل ذكر عبدالله الجد الذي كان قاضياً أيضاً ، ولاينبغي أن أنسى المرجع الأخير الذي أعطى كلمة الفصل في سوار بالتخفيف ، أو سوار - بالتشديد - ألا وهو ابن دريد (ت ٣٢١) حيث قال :

« وكان سَوَّار من أفاضل أهل البصرة ، وكان ولي الصلاة والقضاء والمعونة [١] للمنصور ، و(سَوَّار) فعال من سار يسور سوراً إذا وثب » .

---

(١) قال ابن الأنباري : (وقولهم : قد ولي فلان المعونة . قال أبو بكر : قال الرستمي : معناه قد ولي فلان العون ، أي ولاّه السلطانُ عونَه على حفظ المدينة . قال : والمعونة لفظها لفظ مفعولة وتأويلها تأويل المصدر) . الزاهر : ١/٤٣٠ .

طريف العنبري *

يروي أبو الفرج الأصفهاني في كتابه (الأغاني) في (ذكر بَصْبَص جارية ابن نفيس وأخبارها) ، أن أبا جعفر المنصور ، ثاني خلفاء بني العباس ، كان يعجبه أن يحدو به الحادي بشعر (طريف العنبري) ، فهو آلف في سمعه من غناء بَصْبَص ، وأحرى أن يختاره أهل العقل !

ترى من هو (طريف العنبري) هذا الذي يعجب به أبو جعفر ، وأبو جعفر هو من هو في رجاحة عقله ؟

يكتفي الزركلي في (الأعلام) بأن يقول :

« طريف بن تميم العنبري ، أبو عمرو : شاعر مقلّ ، من فرسان بني تميم في الجاهلية ، قتله أحد بني شيبان » أ.هـ .

أما متى ولد ؟ ومتى مات ؟ أو في أي عهد من عهود الجاهلية هو ؟ فهي أسئلة لا جواب لها في (الأعلام) ، بل لم يذكر إلا مصدراً واحداً عنه في هامشه هو (سمط اللآلي ٢٥٠ و ٢٥١) ولم يزد ..

أما أبو عبيد البكري (ت ٤٨٧) صاحب (سمط اللآلي في شرح أمالي القالي) فقد أورد قول (طريف العنبري) :

---

* نشر في العدد (١١٨) من المجلة العربية ، الصادر في ذي القعدة ١٤٠٧هـ = حزيران (يونيو) ١٩٨٧م .

إن قناتي لنبع ما يؤيسها عض الثقاف ولا دهن ولا نار

ثم أورد بعده بيتاً آخر هو :

وإن جاري لا يرضى لمنعته بأن يكون لـه من غيرنا جـار

وقال يُعَرّف به :

« هو طريف بن تميم العنبري ، يكنى أبا عمرو ، فارس من فرسان بني تميم ، شاعر مقل ، جاهلي ، قتله حَمَصِيْصة الشيباني ، بشراحيل الشيباني ، من بني أبي ربيعة » أ هـ.

هذا ما قاله صاحب السمط ، ويلاحظ أن الزركلي أورده بالنص ، إلا أنه حذف اسم حَمَصِيصة ، وقال بدله : « أحد بني شيبان ».

قلت : إن الزركلي اكتفى بمصدر واحد هو (السمط) ، وفاته أن لمحققه إضافات مهمة في الهامش ، فقد ذكر (عبدالعزيز الميمني) مصدرين هما الطبري ٢٩٨/٩ ، ومجموعة المعاني ٥٠ ، حيث أوردا بعد البيت الأول قول الشاعر :

متى أُجِرْ خائفاً تَأْمَنْ مَسارِحُهُ وإن أُخِفْ آمناً تَقْلَقْ به الدارُ

إن الأمور إذا أوردتها صدرتْ إن الأمور لهـا ورد وإصـدار

أقول : بحق يعجب أبو جعفر بهذا الشاعر ، وهذا شعره !

ولم يكتف الميمني (الراجكوتي) بهذا الهامش ، فقد عاد إلى تعريف حَمَصِيصة ، فقال في الهامش : « هو ابن شراحيل المقتول . وما هنا عن الاشتقاق ١٣١ ، وخبر مقتل طريف في (المغتالين) نسختي ٩٨ ، والعقد ٣٤٥/٣ ومعجمه [١] ٥٠٥ ، والبلـدان (مبايض) ، والمعاهد ٧١/١ » .

هذا تعليق المحقق ، وهو بعلمه وسعة اطلاعه (رحمه الله) يفتح باباً

---

(١) يقصد معجم البكري : (معجم ما استعجم) .

واسعاً لمزيد من المعلومات .. ليت الأستاذ الزركلي (رحمه الله) أشار إليها واستفاد منها ، وكان التدقيق من دأبه ·

وجدير بالذكر أن اسم الشاعر يرد في (السمط) الطريف العنبري ، بأل .. وليس (طريف) كما ورد في (الأعلام) .. وقد جاء اسمه كذلك في موضع آخر من السمط ، في ص ٣٨١ ، حينما استشهد عمرو بن سعيد بن العاص بالبيت الأول : إن قناتي ·· إلخ ·

لكن ابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١ هـ) في (الاشتقاق) ٢١٤ ، طبعة الخانجي ، ذكره في رجال بني العنبر فقال : (طريف) بدون أل ، ونص كلامه :

« ومن فرسانهم في الجاهلية : طريف بن تميم ، كان فارس عمرو بن تميم في الجاهلية ، قتله حَمَصِيصة الشيباني · و(طريف) من قولهم : طريف الرجل وتالده ، فالطريف ما استفاده ، والتالد : ما ولد عنده ، والشيء المستطرف معروف ، والطارف والتالد ، والطريف والتليد سواء ، وتطرَّف فلان عسكر بني فلان ، إذا أغار على أطرافه ، وبه سمي الرجل : مطرِّفا ، والطِّراف : خباء عظيم من أدَم أو غيره · قال الشاعر [١] :

ببهكنة تحت الطِّراف الممدد

والطَّرف : طَرف العين ، وتسمى العين طارفة ، والمِطرف : كساء يشتمل به ، والطِّرف : الفرس الكريم ، وربما سمي الرجل الكريم طِرفاً · ولطريف هذا عقب بالبصرة » ·

وهكذا علمنا من هذا الاستطراد (الطريف) أنه كان للشاعر عقب

---

(١) الطريف حقا أنه (أيضا) طرفة بن العبد ·

بالبصرة على أيام ابن دريد ·

أما أحمد بن عبد ربه الأندلسي(ت ٣٢٨ هـ = ٩٤٠م) ، فقد ذكر يوم (صَعْفُوق) ٢٠٧/٥ ، من أيام الجاهلية ، وكان لبكر علي تميم ، وفيه أغارت بنو أبي ربيعة على بني سليط بن يربوع فأصابوا منهم أسرى ، فأتى طريفُ بن تميم العنبري فروةَ بنَ مسعود ، وهو يومئذ سيد بني أبي ربيعة ، ففدى منهم أسرى بني سليط ورهنهم ابنه ، فأبطأ عليهم ، فقتلوا ابنه فقال :

لا تأمنن سليمى أن أفارقها ... صرمى الظعائن بعد اليوم صعفوق

أعطبت أعداءه طوعا برمته ... ثم انصرفت وظني غير موثوق

وذكر بعده يوم مبايض (٢٠٨/٥) ، وفيه ذكر أن الفرسان كانوا في أيام عكاظ في الشهر الحرام ، يأمن بعضهم بعضاً ، ولكن بعضهم كانوا يتقنعون لئلا يعرفوا ، ولكن طريف بن تميم لم يتقنَّع ، وكان قد قتل شراحيل الشيباني ، أحد بني عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان ، فقال حَمَصِيصة : أروني طريفاً ، فأروه إياه ، فأخذ يتأمله ، ففطن طريف فقال : مالك تنظر إليَّ ؟ فقال : أتوسمك لأعرفك ، فلله عليَّ إن لقيتك أن أقتلك أو تقتلني · فقال طريف في ذلك :

أوكلما وردت عكاظ قبيلةٌ ... بعثوا إليَّ عريفَهم يتوسَّمُ

فتوسموني ، أنني أنا ذلكم ... شاكي سلاحي في الحوادث مُعْلم

تحتي الأغر ، وفوق جلديَ نثرة ... زغف ترد السيف وهو مثلم (١)

حولي أُسَيِّد والهجيم ومازن ... وإذا حللت فحول بيتي خَضَّم (٢)

---

(١) النثرة : الدرع · وزغف : يريد مُحكمة الصنع ·

(٢) يعدد أسماء بطون قومه الذين حوله في حَجِّه ، أما إذا حل وانتهى الحج ، ورجع إلى بلده فحول بيتي خضم : اسم قبيلة العنبر بن عمرو بن تميم ، وكلهم يحمونه ويفتدونه ·

حتى كان يوم (المبايض) ، حينما التقت بنو شيبان مع بني تميم ، وكان النصر لبني شيبان ، وانهزم طريف ، فاتبعه حَمَصِيصة فقتله ، وفيه يقول :

ولقد دعوتُ طريفَ دعوة جاهل ... سفهاً وأنت بمعلم قد تعلمُ

وأتيت حياً في الحروب محلهم ... والجيش باسم أبيهمُ يتقدمُ

فوجدت قوماً يمنعون ذمارهم ... بسلاً إذا هاب الفوارس أقدموا

وإذا دعوا : أبني ربيعة شمروا ... بكتائب دون السماء تلملمُ

حشدوا عليك وعجلوا بقراهمُ ... وحموا ذمار أبيهم أن يشتموا

سلبوك درعك والأغر كليهما ... وبنو أسيّد أسلموك وخَضَّمُ

أقول : وهكذا نعلم من هذه الأبيات أن حَمَصِيصة أخذ بثأره ، وسلب خصمه الدرع التي افتخر بها ، وفرسه الأغر ، ولم تحمه القبائل التي كان يفتخر بها : بنو أسيد وخضم .

وقبل أن أزايل ما أوردته من (العقد الفريد) ، أود أن أنبه أن الطبعة التي رجعت إليها منه ، وهي طبعة ١٣٦٥ هـ للجنة التأليف والترجمة والنشر ، سقط من فهارس أعلامها كل من اسم طريف العنبري ، وحَمَصِيصة ، وكأن المفهرس تجاوز سهواً الصفحات التي ورد بها اسماهما معاً .

وفي معجم البلدان لياقوت قال عن (مبايض) : إنه موضع قُتل فيه طريف بن تميم فارس بني تميم ، قتله (حميصة بن جندل)، وقُتل فيه أبو جدعاء الطهوي ، وكان من فرسان تميم ..) .

وكما نرى ، فان اسم حَمَصِيصة يرد مرة بالميم بعد الحاء ثم صاد فياء فصاد أخرى ، بينما يرد مرة بالحاء بعدها ميم فياء فصاد واحدة بعدها تاء .. وقد يرد أحياناً (حصيصة) بدون ميم ، ويرد حنصيصة (يراجع العقد الفريد وهوامشه من الطبعة المذكورة آنفاً) .

وجاء في وصف طريف في كتاب (أيام العرب في الجاهلية) ط ٣ ص ٢٠٨ في ذكر يوم (مبايض) أنه كان رجلاً جسيماً ، وفيه أنه كان على بني ربيعة (هانيء بن مسعود) الذي خطط للمعركة ، فنجحت خطته ، وفيه أن عمرو بن سواد رثى طريفاً بقوله :

لا تبعدنْ ياخير عمرو بنِ جندب   لعمري لمن زار القبور ليبعدا

عظيم رماد النار لا متعبس   ولا مؤيساً منها إذا هو أوقدا

ومن اقتران اسم هانيء بن مسعود باسم طريف العنبري في معركة (مبايض) ، نستطيع أن ندرك أن طريفاً عاش في فترة البعثة أو قبلها بقليل ، لأن هانيء بن مسعود اشترك في يوم (ذي قار) الذي يرجح أنه بعد البعثة .. وهذه معلومة يحسن أن تضاف إلى ترجمته .. هذا على حسبان أن زعيم بني شيبان هو هانيء لا فروة بن مسعود .

أما مبايض فيقول ابن بليهد في (صحيح الأخبار) :

(إنه معروف بهذا الاسم إلى هذا العهد ، في جبل مجزل ، مما يلي شمال العرقة ، يقع شرقي وادي سدير ، أما عن (صعفوق) فيقول : إنه لا يعلم قرية بهذا الاسم ، ولكنه يعرف أكثبة رمال ، يقال لها (صعافيق) غربي بلد (الزلفي) ، ربما كانت بين هذه الأكثبة .

أما (معجم ما استعجم) للبكري ، فليس به ما يضاف ، إلا أنه ضبط (مُبايض) بضم الميم ، ويقال فيها (أبايض) ، وقال عن حَمَصِيصة إنه حَمَصِيصة بن جندل بن قُنانة الشيباني ، في قول آخر بعد المشهور (حَمَصِيصة ابن شراحيل) ، ويلاحظ أنه ورد هنا بالحاء ثم الميم . وأما عن (صعفوق) فقال بفتح أوله ، وإسكان ثانيه ، بعده فاء وواو وقاف ، ثم قال : (موضع قد تقدم ذكره في رسم مبايض).. ولكنه في رسم مبايض لم يذكر عنه شيئاً .

أبو حذيفة البخاري *

حين نتحدث عن تراثنا التاريخي والأدبي والعلمي بإعجاب كبير لا ننسى ما دخله من أكاذيب وافتراءات ، ودس غير يسير .. ولكن من لطف الله بهذا التراث القيم الغزير ، أن جعل من بين علومه علم الرجال ، فخضعت الروايات والرواة لعملية غربلة دقيقة ، لكي نعلم مَن الصادق ومَن الكاذب ! فكان من السهل أن تسقط روايات الكاذبين والمدلسين وهواة القصص الملفقة .

أكتب هذا وقد ساقتني المصادفة إلى الاطلاع على ترجمة أبي حذيفة البخاري (إسحاق بن بشر) ، مولى بني هاشم المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، وذلك في كتاب (معجم الأدباء) ٦/ ٧٠ من طبعة دار المأمون .. نقلها عن تاريخ بغداد للخطيب ، والفهرست لابن النديم .. وقد جاء فيها أن له من الكتب : كتاب المبتدأ ، وكتاب الفتوح ، وكتاب الردة ، وكتاب الجمل ، وكتاب الألوية ، وكتاب صفين ، وكتاب حفر (زمزم) .

وكما يرى القارىء فإن معظم مؤلفاته تدور حول موضوعات حساسة جداً في تاريخنا الإسلامي .. فما مبلغ الثقة في هذا المؤلف ؟

رأيت أن أرجع إلى مصادر ياقوت نفسها ، لآخذ الخبر اليقين منها مباشرة .

---

* نشر في العدد (٨٤) من المجلة العربية ، الصادر في المحرم ١٤٠٥هـ = تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٤م .

يقول الخطيب في تاريخ بغداد : إن إسحاق بن بشر البخاري ، ولد ببلخ واستوطن بخارى فنسب إليها ، وحدث عن خلق من أئمة العلم أحاديث باطلة ، وروى عنه جماعة من الخراسانيين ، ولم يرو عنه من البغداديين سوى إسماعيل بن عيسى العطار ، فإنه سمع منه مصنفاته ورواها عنه ، وإن هارون الرشيد بعث فأقدمه بغداد ، وكان يحدث في المسجد المنسوب لابن رغْبان ، وإن كتابه في بدء الخلق فيه أحاديث ليست لها أصول ، ويروي عن قوم لم يدركهم ، واكتشف بعض علماء مكة كذبه وقال عنه بعضهم : أبو حذيفة الخراساني كذاب · وإنه متروك الحديث ساقط ، رُمي بالكذب ·

أما صاحب الفهرست ، أعني ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ) فقال عنه : من أصحاب السير والأحداث ، ثم سرد مؤلفاته ولم يزد على ذلك شيئاً ص ١٠٦ طبعة رضا تجدد ، وحينما ذكر تلميذه إسماعيل العطار ص ١٢٢ قال عنه : من أهل بغداد ، من أصحاب السير ، ثم ذكر الكتب نفسها التي ذكرها لأستاذه (الطبعة نفسها) · والراجح أن تلميذه لم يؤلف هذه الكتب ، وإنما رواها عن أستاذه ·

وقد ترجم عمر رضا كحالة في (معجم المؤلفين) لإسماعيل العطار فقال : مؤرخ توفي في رمضان ٢٣٢هـ ، ٨٤٧ م ، من تصانيفه : المبتدأ ، حفر زمزم ، الردة ، الفتوح ، الجمل · ومصادره : ابن النديم ، ومعجم الأدباء ، ولم يذكر الخطيب ، ويبدو أنه لم يرجع إليه ·

أما الزركلي فلم يذكره في الأعلام ، ولكنه ذكر أستاذه البخاري وقال :إنه وصم بالكذب ، ومصادره : تاريخ بغداد ٣٢٦/٦ ، ولسان الميزان ١: ٣٥٤ ·

وهذا نموذج واحد من نماذج الكذابين الذين ألفوا لنا في بدء الخلق ، وفي موقعة الجمل ، وصفين .. إلخ·

وشتان ما بين البخاريين ·

* * *

الرضي الأَسْتَراباذي *

كتاب (خزانة الأدب) من الكتب الموسوعية الكبيرة الشهيرة ، وهو وإن يكن في الأساس كتاب نحو ، إلا أن مؤلفه شحنه بالنصوص ، وتراجم الأدباء والشعراء ، وعلماء العربية ، واشتمل على كثير من الأمثال والأشعار .

ومؤلفه هو عبدالقادر البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ ، وهو كما يرى القارىء من المتأخرين ، ومع ذلك فإنه يشير إلى مراجع ومخطوطات كانت معروفة على عهده ، وأصبحت الآن مفقودة ، أو في حكم المفقود .

والخزانة طبعت كاملة مرتين ، الطبعة الكاملة الأولى في مطبعة بولاق سنة ١٢٩٩هـ في مجلدات أربعة ، وذلك ما جاء في مقدمة الأستاذ عبدالسلام هارون في الجزء الأول من الخزانة ، في طبعتها الأخيرة (الثانية) التي طبعت فيها كاملة .

على أن بين الطبعتين جاءت محاولتان لإخراجها ، ولكن لم يقدر لهما التمام .

وقد ألف البغدادي الخزانة وأرادها شرحاً لشواهد الرضي على الكافية ، وهذا الكلام في حاجة إلى شرح ، لابد منه للقارىء غير المتخصص .

والشرح نجده في مقدمة الخزانة نفسها ، بل على التحديد في مقدمة الأستاذ عبدالسلام هارون ..

---

* نشر في العدد (٨٨) من المجلة العربية ، الصادر في جمادى الأولى ١٤٠٥هـ = شباط (فبراير) ١٩٨٥م .

فالكافيـــة أحد كتابين وضعهما ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦هـ : الكافية في النحو ، والشافية في الصرف ..

وجاء الرضي فعُني بالكتابين فشرحهما وحققهما ونقدهما ، وله كتاب مطبوع عن كل منهما ..

وجاء البغدادي فتصدى لشواهد شرح الرضي على الكافية ، فوضع فيه خزانته ، وجاء الأستاذ الكبير محقق الكتاب - أعني (عبدالسلام هارون) رحمه الله - فتصدى للخزانة شارحاً ومحققاً ، وهو عمل ضخم لا يتصدى له إلا أبطال الرجال من العلماء المحققين ، ذلك أن عمله جاء في ثلاثة عشر مجلداً كبيراً .

والأستاذ (عبدالسلام هارون) يرحمه الله ، غني عن التعريف ، بمكانته العلمية الكبيرة ، خاصة في فن التحقيق ، الذي بلغ فيه شأواً بعيداً قلّما يطاوله فيه غيره ، وقد حصل من أجله على جائزة الملك فيصل الأدبية ، وكان لها أهلاً .

وقد أصبحت بيني وبين الخزانة ألفة ، وأنا أجد فيها متعة كلما قرأت الشواهد والأشعار والتراجم ، صابراً على ما أمرّ به أو يمرّ بي من جفاف النحو والصرف .

وبهذه الألفة بيني وبين الخزانة ، صرت أكتشف تباعاً على الأيام ، أي جهد ضخم بذله فيه مؤلفه العالم المطّلع الناقد ، وأي جهد كبير أيضاً بذله فيه محققه .

ولقد وضع المحقق تقديماً جيداً بين يدي الكتاب ، ترجم فيه بتفصيل للبغدادي ، استغرق حوالي العشر صفحات ، وتكلم على مكتبته بحوالي الثمان ، وتحدث عن كتاب الخزانة بحوالي الست ، وقد أحسن في كل ذلك ..

ولكني كنت أطمع أن أجد ترجمة شافية كافية لصاحب شرح (الشافية والكافية) أعني الرضي الأسْتَراباذي ، وكذلك لابن الحاجب ذاته ، وأن يدل على مكان ترجمتيهما ، ولكني أجد له العذر، فابن الحاجب مستفيض الشهرة ، أما الرضي الأسْتَراباذي فلعل أستاذنا المحقق اعتمد على الترجمة التي أوردها عنه

البغدادي نفسه في مقدمته ، التي جعلها ركناً ثالثاً ، من الأركان الثلاثة ، أو الأمور الثلاثة كما عبَّر ، التي دارت حولها مقدمته . ولكن هذه الترجمة لم تشفني - كما أسلفت - فقد اعتذر البغدادي في مستهلها بأنه لم يطلع على ترجمة وافية له . وخلاصة ما ذكره أنه نجم الملة والدين محمد بن الحسن الأسْتَراباذي ، وأنه المعروف بالرضي ، ولقبه نجم الأئمة ، وقيل في وفاته إنها في سنة أربع وثمانين - أو ست - وستمائة ، أي ٦٨٤ أو ٦٨٦ هـ ، وأن لقبه نجم الدين .

هذا لُباب ما ذكره البغدادي ، فهو لم يذكر مولده ولا بلده ، ولا شيوخه ، حتى سنة وفاته ليست معروفة على وجه اليقين .

ولم يتدخل الشارح الأستاذ عبدالسلام هارون ، على سعة علمه واطلاعه ودقة بحثه ، ولم يدلنا على مظانٍّ ترجمته ، ولعله لم يتوصل إلى أكثر مما توصل إليه المؤلف ذاته .

وقد حاولت أن أقوم بجولة في المصادر المتوفرة لديَّ التي عنيت بترجمة الأسْتَرَاباذي ، فوجدت الزركلي في الأعلام يذكر أنه من أهل أسْتَرَاباذ من أعمال طبرستان ، ويجعل وفاته نحو سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م ، ومراجعه :

« خزانة الأدب ١:١٢ ومعجم المطبوعات ٩٤٠ ومفتاح السعادة ١:١٤٧ وكشف الظنون ١٠٢١ و ١٣٧٠ ، وسماه السيوطي في بغية الوعاة ٢٤٨ الرضي وقال : فرغ من تأليف شرح الكافية سنة ٦٨٣ وتوفي سنة ٨٤ أو سنة ٨٦ ».

وكنت أتمنى أن لو ذكر الأستاذ هارون هذه المراجع في هامش الترجمة . . كما فعل محققا كتاب (مفتاح السعادة ومصباح السيادة) لطاش كبري زاده ، فقد أوردا في هامش ص ١٤٢ من الجزء الأول بعض مصادر ترجمته فذكرا السيوطي في البغية : ٢٤٨ ، وابن العماد في الشذرات ١ : ٣٩٥ ، والبغدادي في هدية العارفين ٢: ١٣٤، وحاجي خليفة في كشف الظنون : ١٣٧ ، والعاملي في أعيان الشيعة

٤٤ : ١٢ - ٢١٦ [كذا في هامش مفتاح السعادة ، والصواب : ١٢- ١٦] .

وصاحب معجم المطبوعات ليس في ترجمته ما يضيف جديداً..

أما صاحب هدية العارفين ، إسماعيل البغدادي المتوفى سنة ١٣٣٩هـ ففي ترجمته بعض الإضافات ١٣٤/٢ ، قال ما نصه : « محمد بن الحسن الأسْتَراباذي » مير رضي الدين السمناكي نزيل نجف الأشرف المتوفى في حدود سنة ٦٨٤ .. فعلمنا أنه مير ، وأنه السمناكي ، وأنه كان نزيلاً بالنجف .

وبالرغم من أن هذه المصادر التي ذكرتها لم توف الرجل حقه من الترجمة ، إلا أن هناك بصيصاً من الضوء يمكن أن يضاف إلى ترجمة البغدادي له في خزانة الأدب ..

ومن العجيب حقاً أن يشتهر أمر مؤلفات الرضي الأسْتَراباذي شهرة مستفيضة وأن يظل هو مجهولاً أو شبه مجهول .. لا نعرف عن حياته إلا النزر القليل .. وكثيراً ما يقع هذا في تراثنا .. بل يقع العكس أحياناً ، فيشتهر بعض الرجال على ضآلة ما قدموا من أعمال .. والدنيا حظوظ !

وعلى هامش البحث أود أن أنبه ، أنه ورد في الكشاف الفهرستي في الجزء الثالث من كتاب (مفتاح السعادة) في مادة الأسْتَرَاباذي الخلط بين رجلين يحملان النسبة إلى أُسْتَراباذ ، أحدهما صاحبنا وهو في الجزء الأول ص١٤٢ و١٨٣ ، أما الآخر فمن ورد ذكره في الجزء الثاني ص ٣٢٣ ، وهو عبدالجبار الأسْتَراباذي المتوفى سنة خمس وأربعمائة .

أقول : وهذا الأسْتَراباذي هو في الحقيقة (الأسد آبادي) ، وهو القاضي عبدالجبار ، أحد أئمة المعتزلة ، وليس (الأسْتَراباذي) كما ورد في الموضع المشار إليه من الجزء الثاني ، وهو تطبيع .

ومما يجدر ذكره أن ياقوتاً الحموي سرد في مادة أُسْتَراباذ من معجم البلدان

عدداً من المنسوبين إليها هم القاضي أبو نصر سعد بن محمد بن إسماعيل المطرفي الأسْتَرَاباذي قاضي أسْتَراباذ ، وكان صالحاً حسن السيرة ومات بآمل طبرستان في حدود سنة ٥٥٠ ، وأبونعيم عبد الملك بن محمد بن عدي الأسْتَراباذي ، أحد الأئمة .. له كتاب في الجرح والتعديل ، وهو أقدم من أبي أحمد بن عدي الجرجاني صاحب كتاب الجرح والتعديل[1] أيضاً وشيخه وتوفي سنة ٣٣٠ عن ثلاث وثمانين سنة ، والحسين بن الحسين بن محمد بن الحسين بن رامين الأسْتَراباذي أبو محمد القاضي ، أقام ببغداد إلى أن مات بها سنة ٤١٣ .

أما صاحب (معجم المؤلفين) فقد ورد في فهرسه ٤٣ أسْتَرَاباذياً ، فمن شاء رجع إليه .

وجدير بالذكر أن الأستاذ عمر رضا كحالة ، صاحب معجم المؤلفين المذكور ، لم يسعه التوسع في التعريف بالرضي ، ولكنه أضاف إلى مؤلفاته عدا الشرحين المشهورين : حاشية على شرح تجريد العقائد ، والحاشية القديمة ، وحاشية على شرح الجلال الدواني لتهذيب المنطق والكلام ، ومراجعه هي المصادر التي ورد ذكرها في هذا المقال ، زائداً فهرس المؤلفين بالظاهرية ، وهو مخطوط ، وبروكلمان .

* * *

---

(١) اسمه « الكامل في ضعفاء الرجال » .

ذو الخِرَق الطُّهَــوِي *

من شواهد الرضي على الكافيــة ، التي شرحهــا البغدادي في كتابه العظيم (خزانة الأدب) هذا الشاهد :

يقول الخنى ، وأبغض العُجم ناطقاً   إلى ربنا صوت الحمار اليُجَدَّعُ

والشاهـد فيه دخـول (أل) علـى الفعـل المضـارع (يجدّع) ، وقالوا إنها اسم موصول أي الذي يجدع ، على نحو قول الفرزدق :

ماأنت بالحكمِ التُّرضى حكومَتُهُ   ولا الأصيل ولا ذي الرأي والجدل

ومـعنى يجـدع .. يحـبس أو يسـجن أو لـعله يسـاء مـعلفـه ، وإلى هذا المعنى الأخير أميل .

وإذا كنا نلتــمس العــذر للفـرزدق في إدخـال « أل » على فـعل « ترضى » للضـرورة الشـعرية ، فـإنا نلتـمس مـثله لشاعـر الشـاهد ، فلو قـال « المجدع » لجاء وصفاً للحمار لا للصوت ولكان هناك ما يسمونه إقواء ، أي لجاءت القافية مكسورة لا مرفـوعة كما هي في أبيات الشـاهد ، بل هناك بيت آخر جاءت فيـه « ال » داخلة على الفعل المضارع . فأبيات الشاهد كما أوردها البغدادي في خزانته ١/٣٤ هي

---

* نشر في العدد (٩٠) من المجلة العربية ، الصادر في رجب ١٤٠٥هـ = نيسان (أبريل) ١٩٨٥م .

كما يلي :

أتاني كلام ابن الثعلبيّ ابن دَيْسَق ... ففي أيّ هذا - ويله - يتترّعُ ؟
يقول الخنى ، وأبغض العجم ناطقاً ... إلى ربنا صوت الحمار اليُجَدَّع
فهلا تمناها إذِ الحرب لاقح ... وذو النُّبَوان قبرُه يتصدّع
يأتك حيًا دارم وهما معا ... ويأتك ألف من طُهَيَّة أقرع
فيستخرج اليربوع من نافقائه ... ومن جحره بالشيحة اليتقصَّعُ
ونحن أخذنا الفارس الخير منكم ... فظل - وأعيا ذو الفقار - يُكَرَّعُ
ونحن أخذنا - قد علمتم - أسيركمُ ... يساراً فنحذي من يسار ونتقع

والأبيات - كما يرى القارىء - تحتاج إلى شرح ، ولكن ليس هذا موضعه ، ومن شاء ذلك رجع إلى خزانة الأدب ١/ ٣٥ ، ولكنني أوردتها لأكثر من سبب ، من ذلك الحرص على إيراد السياق أو الصورة كاملة ، لإدراك (جوّ) القصيدة ، ومنها إيراد بيت الشاهد ، والبيت الآخر المماثل الذي فيه اليربوع ، واليربوع والجربوع .. حيوان نعرفه جيداً نحن سكان الصحراء ، وهو ما بين الفأر والأرنب ، ومنها ذكر (طُهَيّة) .. وهذه النقاط مهمة سيرجع إليها الحديث .

ولنبدأ بطُهَيَّة قبيلة الشاعر ، صاحب الأبيات ، وهو ذو الخِرَق الطُّهَوي .. فطُهَيّة - كما جاء في الخزانة نفسها ١/ ٣٩ - حي من تميم ، سُمُّوا باسم أمهم طُهَيّة بنت عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم . قال : وهي أم أبي سُود وعوف بن مالك بن حنظلة ، والنسبة إليها طُهْوي بسكون الهاء ، وبعضهم يفتحها على القياس أهـ .

والطريف أنه يحمل لقب ذي الخِرَق من طُهَيّة وحدها ثلاثة شعراء ، لا يعرف على وجه الدقة أيهم قائل هذه الأبيات ، وإن كان هناك قول في تعيينه .. وهذا

الكلام على ذمة البغدادي ، فإنه يقول :

« ومن لُقِّب من الشعراء من بني طُهَيَّة ذا الخِرَق ثلاثة : أحدهم خليفة بن حمل بن عامر بن حميري بن وقدان بن سُبيع بن عوف بن مالك بن حنظلة بن طُهَيَّة ، والثاني قُرط ، ويقال له ذو الخِرَق بن قرط أخو بني سعيدة بن عوف بن مالك بن حنظلة بن طُهَيَّة ، وهو فارس أيضاً ، والثالث : شمير بن عبد الله بن هلال بن قُرط ابن سعيدة » . ثم استطرد يقول : « فلا يظهر أن هذا الشعر لمن هو من هؤلاء الثلاثة » . ولكنه نقل عن العيني « أن ذا الخِرَق الطُّهَوي صاحب الشعر اسمه دينار ابن هلال » .

ثم قال : إن من يلقب بذي الخِرَق من الشعراء من غير طُهَيَّة اثنان : أحدهما ذو الخِرَق اليربوعي .. والثاني : ذو الخِرَق بن شريح ، وهما من شعراء الجاهلية .

ثم ذكر من لقب ذا الخِرَق من غير الشعراء ٤٤/١ .. لكن يبدو أن الأمر مختلف عند أبي زيد الأنصاري في كتابه (النوادر في اللغة) ، فقد أشار إلى ذي الخِرَق في مواضع ثلاثة هي في الصفحات ٦٦ و ١١٦ و ١٤٣ (تصوير دار الكتاب العربي ببيروت) ، وكأنه عنده علم فرد ، وقد ذكر عنه في أول موضع أنه جاهلي .

وقد قال أبو زيد في (اليجدع): إنه أراد الذي يجدع فحذف الذال والياء . قال أبو الحسن الأخفش في شرح نوادر أبي زيد : رواه لنا أبو العباس ثعلب : اليتقصع ، واليجدع ، قال { أي ثعلب } : هكذا رواه أبو زيد . قال : والرواية الجيدة عنده هي المتقصع والمجدع ، وقال { يعني أبو زيد } : (لا يجوز إدخال الألف واللام على الأفعال ، فإن أريد بها « الذي » كان أفسدَ في العربية) ، وكان لا يلتفت إلى شيء من هذه الروايات التي تشذ عن الإجماع والمقاييس.

أقول : إنني أرى الحق مع أبي زيد ، ولكن حركة القافية لا تستقيم كما

يريدها الشاعر ، ولا مخرج له إلا ذلك الشذوذ ، وهو شذوذ خير ما يقال فيه إنه ضرورة شعرية لا أكثر .

وهذا هو الأمر الآخر الذي أردته بإيراد نص الأبيات كاملاً ، وهو البيت الذي فيه ذكر اليربوع ، أعني قوله :

فيستخرج اليربوع من نافقائه ومن جحره بالشيحة اليتقصّعُ

فليست الوقفة عند هذا البيت في كلمة القافية (اليتقصَّعُ) فحسب ، بل هناك في الواقع أكثر من وقفة ، منها النافقاء ، نعم ما هي النافقاء ؟

أعود إلى الخزانة .. خزانة الأدب ، والفوائد ١/ ٤٠ ، حيث نعلم أن لليربوع الذكي بابين في جحره ، باب لدخوله الاعتيادي واسمه (القاصعاء)، وباب احتياطي للخروج الاضطراري ، وهو باب غير مرئي هو(النافقاء) أي النفق الخفي الذي ينفق منه أعني يخرج منه ، ولا أعني أن يموت ، فإنه يضرب فيه برأسه فينفذ إلى الخارج .. حيث الهرب ..

يقول صاحب الخزانة ، وهذا مهم : « ونافق اليربوع : أخذ في نافقائه ، ومنه المنافق ، شُبِّه باليربوع ، لأنه يخرج من الإيمان من غير الوجه الذي دخل فيه ، وقيل : لأنه يستر كفره ، فشبه بالذي يدخل النفق ، وهو السرب - يستتر فيه » .

أرأيتم من أين أتى المنافق .. ذلك اليربوع ؟ !

وفي بيت اليربوع .. أعني بيت الشِّعر الذي به اسمه لا بيته الذي فيه نافقاؤه .. يأتي ذكر الشيحة .. بالحاء .. فما هي الشيحة ؟

قال صاحب الخزانة ١/ ٤٠ : (وقوله : « بالشيحة » ، رواه أبو عمر الزاهد وغيرُه تبعا لابن الأعرابي : « ذي الشيحة » ، وقال : لكل يربوع شيحة عند جحره) .. أي نبتة من نبات الشيح .. ولكن الأسود الغندجاني لم يرض بهذا القول ، وعَدَّه تصحيفاً ، كما جاء فيما نقله عنه البغدادي : (وردَّ الأسود أبو محمد

الأعرابي الغندجاني على ابن الأعرابي فقال : ما أكثر ما يُصَحِّفُ في أبيات المتقدمين ، وذلك أنه توهم أن ذا الشيحة موضع ينبت الشيح ، وإنما الصحيح : (من جحره بالشيخة) بالخاء المعجمة ، وقال : هي رملة بيضاء في بلاد بني أسد وحنظلة · وكذا رواه الجرمي أيضاً ، والشين في الروايتين مكسورة) ·

وهكذا نرى الغندجاني (ولعله فعل ذلك في كتابه ضالة الأديب) ينتقد ما يقع في أبيات المتقدمين من تصحيف ، ويقول إن الصحة الشيخة بالخاء لا الشيحة التي رأوا أن تكون عند جحر كل يربوع .. ! وهو انتقاد يلفت النظر حقاً ، ولعلنا نذكره كلما وقعنا على ما فيه خروج عن المألوف والمعروف من الألفاظ والمعاني ، كهذا الذي يحتم على كل جربوع أن تكون لبابه شيحة ·

أعود إلى ذي الخِرَق ، فأقول مكرراً : إنه يبدو أن أبا زيد الأنصاري عندما ذكره في المواضع الثلاثة من نوادره ، كان يعني رجلاً واحداً لا يتعدد ، وإلا لأشار إلى ذلك ، ومعناه أن اللقب إذا أُطلق ذهب لصاحب الأبيات لا غيره ·

وجدير بالذكر أنني تتبعت ما ذكره الآمدي في (المؤتلف والمختلف) عمن تسمى أو تلقب ذا الخِرَق ، فوجدته ذكر (ص ١٠٩) خليفة بن عامر ، وقال : إنه لقب ذا الخِرَق لقوله :

لما رأت إبلي جاءت حمولتها ... غَرثى عجافاً عليها الريشُ والخِرَقُ

وقال : إن له أبياتاً جياداً في كتاب بني طُهَيَّة · ثم ذكر في ص ١١٩ أسماء أخرى ممن لقب ذا الخِرَق ، ولم يذكر منهم خليفة ..

وهكذا نرى أن هناك كتاباً عن بني طُهَيَّة ، ولعله في أشعارهم ، ولعل عند الباحثين علماً عن هذا الكتاب ، وهل هو موجود في المطبوع أو المخطوط ، أو هو في عالم المفقود ؟

* * *

ابن فُورَّجــــــة *

أثناء مطالعاتي العابرة لكتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) ، لاحظت أن اسم (ابن فُرَّجة) يأتي مضبوطاً بضم الفاء وتشديد الراء وفتح الجيم (٣/٣٠) .

ولكن (ياقوت) نفسه عندما ترجمه ١٨/١٨٨ قال عنه :

« محمد بن حمد بن محمد بن عبدالله بن محمود بن فُورَّجَة ، بضم الفاء وسكون الواو وتشديد الراء المفتوحة وفتح الجيم ، البَروجردي ، أديب فاضل مصنف ، له كتاب الفتح على أبي الفتح ، والتَّجنّي على ابن جِنّي ، يردّ فيه على أبي الفتح بن جني في شرح شعر المتنبي ، ومولده في ذي الحجة سنة ثلاثين وثلاثمائة ، كان موجوداً سنة خمس وخمسين وأربعمائة . ومن شعره :

« أيها القاتلي بعينيه رفقا — إنما يستحق ذا من قلاكا

أكثر اللائمون فيك عتابي — أنا واللائمون فيك فداكا

إن لي غَيْرَةً عليك من اسمي — إنه دائما يُقَبِّلُ فاكا »

وهنا تنتهي ترجمة ابن فورَّجة كما وردت في معجم الأدباء ، ولكن هذه

---

* نشر في العدد (١٠٢) من المجلة العربية ، الصادر في رجب ١٤٠٦هـ = نيسان (أبريل) ١٩٨٥م .

لترجمة تثير أكثر من سؤال ..

ماهو الضبط الحقيقي لهذا الاسم ؟ أهو فُرَّجة بتشديد الراء وبلا واو .. أم هو فورَّجة ؟ إنه إشكال .. ويأتي في هامش الترجمة إشكال جديد ، فكاتبه يقول : إن صاحب (فوات الوفيات) قال : فوزجة بالزاي المفتوحة وليس بالراء ٠

وقد رجعت إلى ابن شاكر (ت ٧٦٤ هـ) في (فوات الوفيات) فوجدت الأمر كما ذكر صاحب الهامش ووجدته - أيضاً يذكر عن ياقوت أن وفاته بنهاوند في ذي الحجة سنة ثمانين وثلاثمائة ..وهو بهذا يُنهي الإشكال الثاني الذي ورد في نص ياقوت حيث قال إنه ولد في ذي الحجة سنة ثلاثين وثلاثمائة ، وكان حياً سنة خمس وخمسين وأربعمائة .. أي إنه عاش مائة وخمساً وعشرين سنة .. إذن فلا بد أن يكون هناك خطأ ما .. والغريب أن نص ابن شاكر منقول عن ياقوت نفسه .. ولكن من أين ؟ ذلك مالم أستطع معرفته .. فترجمته في معجم الأدباء هي ما نقلت نصها آنفاً.. وليس فيها تحديد لسنة وفاته .. ومن العجيب أن السيوطي (ت ٩١١ هـ) نقل في (بغية الوعاة) طبعة ١٣٩٩هـ (١/ ٩٦) أن مولده سنة ثلاثين وثلاثمائة ، وأنه كان موجوداً في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة .. أي أنه عمَّر مائة وسبع سنوات .. ولم يقف السيوطي عند هذا النص ولم يعلّق عليه .. حقاً إنه يوجد من المعمَّرين من يتجاوز المائة ، ولكن ذلك ملفت للنظر على أية حال .. فهل كان ابن فورَّجة من المعمَّرين .. ؟ ولكن صاحب (الفوات) يحدد وفاته نقلاً عن ياقوت بسنة ثمانين وثلاثمائة ، أي إنه لم يعش إلا خمسين عاماً .. بالرغم من أن الزركلي في الأعلام جعل مولده سنة ٣٨٠هـ ، ووفاته نحو سنة ٤٥٥ هـ ، مع أن هنا نصين متعارضين : نص ياقوت في الترجمة التي أوردتها أن مولده سنة ثلاثين وثلاثمائة ، ونص ابن شاكر أن وفاته سنة ثمانين وثلاثمائة ٠

فهل يكون الصحيح ما ذهب إليه الزركلي في (الأعلام) في هامش ترجمته

أن الصواب في تاريخ مولده هو سنة ثمانين وثلاثمائة ؟

يبدو أن مناقشة إشكال سنة وفاته ، قد ذهبت بي بعيداً عن الإشكال الواقع في ضبط اسمه وهل هو فرّجة أم فورَّجة بالراء أم فوزجة .. بالزاي ، كما قال ابن شاكر ؟ وهذا ما سأحاول حلّه ، وبالله أستعين ..

في الأبيات الثلاثة التي أوردتها له ، تأتي إشارة في البيت الأخير إلى معنى اسمه :

إن لي غَيْرَةً عليك من اسمي إنه دائما يُقَبِّل فاكا

ماذا يعني هذا ؟

يقول كاتب الهامش في (معجم الأدباء) إن السيوطي يقول : إن الشعر يؤيد أن اسمه حمد ! ويعقب المهمش على ذلك ، بأن الأقرب أنه يريد فورجة . كأنه فورجة ، أي تشبث بالأسنان .. ا هـ . هكذا قال المهمش ، وهي عبارة غامضة كما ترى ..

ولم يفدني الرجوع إلى (بغية الوعاة) شيئاً ، حيث قال بعد أن سرد الأبيات الثلاثة :

قلت : هذا الشعر يؤيد أن اسمه حمد .

فإني أقول : إن هذه العبارة أيضا غامضة .. فمن أين أتى السيوطي بأن هذا الشعر يدل على أن اسم ابن فورجة حمد [1] .. ؟ فالاستنباط بعيد ..

قد يكون الجواب في كتب اللغة . وقد رجعت إلى مادة الكلمة في (لسان العرب) وفي (تاج العروس) فلم أجد ما ينقع الغُلّة . على كثرة صيغ الكلمة ومعانيها ..

ولكني وجدت مفتاح الحل .. حل اللغز - أو ما أعتقده كذلك - في (المعجم

---

(١) ربما أراد السيوطي - يرحمه الله - أن الـ « حَمْد » لا يفارق فاه . [المصحح] .

الوسيط) حيث قال :

« فرجن الدابة : نظف جلدها بالفرجون ، وفرجن الثوب ونحوه : نظفه بالفرجون ، والفرجون : آلة من حديد لها أسنان تنظف بها الدابة ، والفرجون : أداة ذات شعر تنظف بها الثياب ونحوها (معرَّب) وانظر : الفرشة » .

وامتثالاً لأمره نظرت (الفرشة) فوجدته يقول :

« الفرشة : أداة تنظيف الثياب أو الأسنان ونحوها (مولَّد) وهي تحريف (فرجون)، الجمع فرش » .

قلت : أفادكم الله .. وزادني صاحب (المنجد) أن كلمة الفرجون : أي المحسَّة ، معرب عن (برجون الفارسية) ..

ولقارىء أن يقول : ولكن ما علاقة كل هذا بالأديب الشاعر ابن فورَّجة الذي تجنَّى على ابن جني ؟

أقول : الجواب يكمن في بيت الشاعر نفسه حينما قال :

إن لي غيرة عليك من اسمي إنه (دائما) يُقَبِّلُ فاكا

ترى ما هو (الشيء) الذي يصح أن يلازم ثغر ذلك الحبيب (دائماً) ؟

إنه لا يمكن أن يكون غير (السواك) أو ما في حكمه وهو (الفرجة) أو (الفرشة) .. فإذا جعلناها (الفرجة) بالتشديد أو (الفورَّجة) بإدخال الواو .. مع الحرص على التشديد .. فقد وصلنا إلى اسم الشاعر الذي ألغز أو أشار إليه .. وهو (الفورَّجة) ، وظهر جلياً أنه دائماً يقبل فم ذلك الحبيب .. ويكون الشاعر على حق في هذه (الغَيْرة) التي دخلت قلبه .. وهي غَيْرة معروفة .. فطالما حسد الشعراء (المساويك) . ومما أحفظ في هذا .. ولا أحفظ إلا القليل ، قول الشاعر في قصيدة ، أو هي (دانة) تغنى .. وهو شاعر مجهول عندي .

أغار عليها من أبيها وأمها ومن لجة المسواك إن لج في الفم

وإذا توفر الاقتناع بهذا التفسير ، انقطع تماماً احتمال ورود الاسم بالزاي أي (الفوزجة) كما قال به ابن شاكر في (الفوات) ، يعني فاتته هذه ، كما فاتت الإمام السيوطي .

لكن هل هذا يدل على أن (الفرشة) أي فرشة الأسنان كانت معروفة على عهد ابن فورجة .. ؟ أقول : لم لا ؟ فالمسواك استعمال عربي ، مأخوذ من البيئة العربية .. ولا يمنع أن تكون الحضارة الفارسية حيث جاء استعمال البرجن أو الفرجون ، أو الفرشة أو الفورجة ، بتبادل القلب بين الجيم والشين - أقول : لا يمنع أن تكون قد عُرفت فرشة الأسنان ، فشاع استعمالها في الأوساط العربية ، أو بعض تلك الأوساط القريبة من ديار الفرس ؟ ولا يخفى أن (ابن فورجة) كان فارسياً بروجردياً ، وبروجرد ، بلدة بين همذان والكرَج ، كانت معروفة بزراعة الزعفران ، كما يقول ياقوت في (معجم البلدان) . ولكنه هناك لم يذكر ابن فورجة

* * *

وابن فورَّجة شاعر ، وقد أورد الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) نتفاً من أشعاره في كتابه (الوافي بالوفيات ٣/٢٤ طبعة ١٣٩٤ هـ) .

وهو ناقد ، وهو على ما يبدو كان متخصصاً بابن جني ينقده ، كما فعل في كتابيه (الفتح على أبي الفتح) و(التجني على ابن جني) ، وكتاب الفتح مطبوع .

أما أبو الفتح ، غريم ابن فورجة ، فهو عثمان بن جني الموصلي المتوفى سنة ٣٩٢ هـ ، وأبوه رومي ، لعل اسمه جون أو جونيه - سمعت ذلك من حديث الشيخ عبد الله العلايلي ، فله عنه دراسات - وكان حفياً بالمتنبي وشعره ، حتى قال (أعني المتنبي) : ابن جني أعرف بشعري مني . وقد ترجم له الزركلي في الأعلام ، ودلَّ على مراجعه .

وقبل أن أختتم الحديث عن ابن فورّجة .. لابد من إيراد ملاحظة على ما ورد في ترجمته في (كشف الظنون) لحاجي خليفة (ت ١٠٦٧ هـ) فقد كناه أبا الفتح ، وورد اسم محمد بن أحمد ص ٨١١ ، وقال : إنه كان حياً سنة ٤٣٧ هـ ، ولكنه عاد في ص ١٢٣٣ فسماه محمد بن حمد .. ولم يكنه .. واذا صح أن زيادة الألف قبل (حمد) كان تصحيفاً فبماذا نفسر إيراد كنيته بأبي الفتح .. إلا إذا اختلط الأمر بابن جني .. وكنيته .. ولكن البغدادي (ت ١٣٣٩ هـ) في هدية العارفين ٧٢/٢ ترجم له وكناه أيضاً بأبي الفتح ، وقال عن كتابه « الفتح » إنه فرغ من تأليفه بنهاوند سنة ٤٦٢ هـ ، وهذا يدل على أنه كان حياً لأبعد مما ذكر ياقوت وحاجي خليفة والزركلي وهو ما يجعلني أرجح أن صحة تحديد مولده هو سنة ٣٨٠ هـ لا ٣٣٠ هـ ، والله أعلم .

* * *

حول ابن فورَّجة *

للأستاذ مروان العطية

أخي الفاضل الشيخ عبدالعزيز الرفاعي .. حفظه الله وأدامه

لقد تمتعت ببحثكم الأخير عن « ابن فورِّجة .. العالم بالأدب والشاعر المبدع ، وشعره كالروض المطور والوشي المنشور على حد تعبير الثعالبي في تتمته » .

وسرّني ما توصلتم إليه من تحليل واستنتاج لكشف معنى اسمه ، واستطعتم بذلك إلقاء الضوء على اسمه وتبيين معنى بيته :

إن لي غَيْرَةً عليك من اسمي　　　إنه (دائماً) يقبِّل فاكا

و قلتم : « إنه لا يمكن أن يكون غير (السواك) أو ما في حكمه وهو (الفرُّجة) أو(الفرشة) .. وظهر جلياً أنه دائماً يُقَبِّل فم ذلك الحبيب .. و يكون الشاعر على حق في هذه (الغيرة) التي دخلت قلبه .. وهي غيرة معروفة » .

وأقول : كم سررت بهذه النتيجة الممتعة ، وطالما استثقلت ذلك التحليل الذي خرج به علينا الأستاذ عبد الكريم الدجيلي (محقق كتاب الفتح على أبي الفتح لابن

---

* نشر في باب « ساحة الحوار » من العدد (١٠٧) من المجلة العربية ، الصادر في ذي الحجة ١٤٠٦هـ = آب - أيلول (أغسطس - سبتمبر) ١٩٨٦م .

فورَّجة) حيث يقول ص ١٢ من المقدمة : « ابن فورَّجة ترجمتها باللغة الفارسية (فورٌ) بمعنى الولد و(جة) أداة للتصغير ، فعلى هذا يكون معناها الابن الصغير ؟ .

ولكنني وقفت عند اسمه ووفاته وأحببت أن أرسل إليكم هذه الملاحظات :

١ - في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (تحقيق الدكتور إحسان عباس) ، وهي المعتمدة لأنها نسخت ما قبلها بما فيها من تشويه وتحريف ونقصان ، نجده يقول :

« محمد بن حمد [٢] بن فورَّجة - بالفاء المضمومة وبعد الواو والراء جيم مشددة [١]- البروجردي » .

وهكذا جاء الاسم مضبوطاً بالراء وليس بالزاي ، وهو وهم مطبعي وقع فيه كل من نقل عن الطبعة القديمة من هذا الكتاب .

و ثمة أمر جدير بالانتباه وهو ما قاله الباخرزي المقتول سنة ٤٧٦ هـ في دميته - والباخرزي من تلامذة ابن فورَّجة -:

* أبوعلي حمد بن محمد [٢] بن فورَّجة البروجردي ..

وقد سبقه في ذلك الثعالبي في تتمته (تتمة اليتيمة ١٢٣/١ طبع طهران) .

* أبو علي محمد بن حمد [٢] بن فورَّجة البروجردي ..

وهكذا نجد أن الثعالبي والباخرزي ينصان على ضبط اسمه بالراء وهما معاصران له ، بل أحدهما وهو الباخرزي تلميذ له .

---

(١) لم يُنَبِّه الأستاذ العطية على أن التشديد للراء لا للجيم ! [المصحح] .

(٢) لم يُنَبِّه الأستاذ العطية على أن الاسم في دمية القصر (حمد بن محمد) ، وفي تتمة اليتيمة - وفوات الوفيات أيضاً - : (محمد بن حمد) ! [المصحح] .

٢ - وهذا الأمر يقودنا إلى الحديث عن وفاته ·

وأقول : الصحيح ما أورده الزركلي في أعلامه بأن ولادته سنة ٣٨٠ هـ ، ووفاته نحو ٤٥٥ هـ ، لأن ابن فورَّجة أخذ عن المعري في بغداد سنة ٤٠٠ هـ ، كما في تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٣٢ ، والذي يلفت النظر أن أبا العلاء المعري أجاب ابن فورَّجة على قصيدته بقصيدة عامرة فيها ثناء عاطر عليه إذ يقول في آخرها :

ولو لم ألق غيرك في اغترابي   لكان لقاؤك الحظ الجميلا

وهذا يدل على علو مكانة التلميذ ابن فورَّجة عند أستاذه وشيخه أبي العلاء المعري وسمو مقامه ·

كما نجد تلميذه الباخرزي يذكره في دمية القصر ٤١٥/١ ، وهو عنده : في الصنعة من الفحول ، والتنبيه على فضله طرف من الفضول ، وشعره فرخ شعر الأعمى ، أعني شاعر معرة النعمان · وإن كان هذا الفاضل منزَّهاً عن معرة العُميان .. حتى يقول :

وأنشدني لنفسه بالري سنة أربعين وأربعمائة :

جعلتك منك يا سكني ملاذا   وجئتك عائذاً إذ لا معاذا

وهكذا نجد أن تلميذه ينص على السماع منه حتى سنة ٤٤٠ هـ ·

ونجد ابن فورَّجة في كتابه (الفتح على أبي الفتح) يقول في آخره :

« وما توخينا دعوى الفضل على أبي الفتح بن جني ، ولا سمت هممنا إلى مباراته ، وبودنا لو أدركنا القراءة عليه والاستفادة منه » ·

وهو ينصف ابن جني فيما يقول ، ويتضح أنه عندما توفي ابن جني سنة ٣٩٢ هـ كان ابن فورَّجة دون سن الطلب وإلا لأخذ عنه واستفاد منه ·

وهكذا يتضح الوهم الذي وقع فيه مصحح الطبعة القديمة لفوات الوفيات ،

وهو في طبعتها الجديدة المحققة : « مولد ابن فورجة بنهاوند في ذي الحجة سنة ثمانين وثلاثمائة » .

وقال المحقق في الهامش ٣/ ٣٤٥ : « هكذا هو في الوافي ، وفي المطبوعة : وفاة ، وهو خطأ لا محالة ، وذكر بهامش الزركشي أنه توفي بالري سنة ٤٤٤ هـ ، نقلاً عن إنباه الرواة للقفطي » .

وبالرجوع إلى إنباه الرواة ١/ ٣٣٥ نجد القفطي يقول : وكان هذا الشيخ متصدراً للإفادة بالري في سنة أربعين وأربعمائة .

وهكذا يبقى ما رجَّحه العلامة الزركلي في أعلامه هو الصواب حول وفاته نحو ٤٥٥ هـ ، وحبذا لو رجع الدكتور إحسان عباس إلى الإنباه لصحح بذلك حاشيته الخاطئة ولكن ..

٣ - وثمة أمر آخر جدير بالانتباه وهو الاختلاف حول اسمه وكنيته : سماه تلميذه الباخرزي في دميته : حمد بن محمد بن فورَّجة وذكره مرتين : ١/ ٢٥ و٤١٥ ، وتابعه في ذلك القفطي في الإنباه ١/ ٣٣٤ والفيروزآبادي في البلغة ٧٤ ، ثم السيوطي في البغية ١/ ٩٧ و ٥٤٧ و ٢/ ٣٨٢ .

وبما أن تلميذه الباخرزي نص على اسمه حمد بن محمد ، فلا مجال للاجتهاد والنقاش ، والتصحيف في هذا الاسم يحدث غالبا في تراثنا الحبيب .

وأما كنيته فهي كما نص عليها معاصره الثعالبي وتلميذه الباخرزي : أبو علي حمد بن محمد بن فورَّجة . .

وقد اختلط الأمر على حاجي خليفة والبغدادي فكنياه بأبي الفتح كما ذكرتم ، وقد كناه بذلك أستاذه أبوالعلاء المعري في قصيدته التي أشرت إليها سابقاً وفيها يقول :

كلفنا بالعـراق ونحـن شـرخ   فلـم نلمـم بـه إلا كهـــولا

وشارفنـا فـراق (أبي علي) *   فكانـا أعـز داهيـة نـزولا

سقـاه اللـه أبلـج فارسيـا   أبت أنـوار سؤدده الأفـولا

ولو لـم ألق غيرك في اغترابي   لكـان لقاؤك الحظ الجميـلا

إلى آخر القصيدة ، وهي كما قلت : تدل على عُلُوِّ مكانة ابن فورَّجة عند أستاذه وشيخه أبي العلاء المعري - حكيم المعرة وشاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء - وسمو مقام التلميذ عند الأستاذ .

* * *

* أبو علي = ابن فورجـة .

جرير .. سبعـــة *

إذا ذكر اسم جرير .. انصرف الذهن إلى جرير الشاعر المشهور بالرغم من أن البغدادي (ت ١٠٩٣هـ) قد أحصى في خزانته سبعة من الشعراء يحملون اسم (جرير) ١/٧٧ معتمداً على الآمدي (ت ٣٧٠هـ) في (المؤتلف والمختلف) .

والآمدي وإن لم يذكر العدد ، فقد ذكر المعدود ، ذكر ستة أسماء يحمل كل منهم حقاً اسم (جرير) ، أما السابع فهو بضم الجيم وفتح الراء (جُرَير) ص ٧١ من طبعة دار الكتب العلمية ..

والشعراء السبعـــة هم :

١ - جرير بن عطية بن الخَطَفى الشاعر المشهور (ت ١١٠ هـ) ، وهذا لا يحتاج إلى تعريف ، فكتب الأدب مليئة بشعره وأخباره ، وقد ترجم له صاحب (الأعلام) .

٢ - جرير بن عبد الله ، أحد بني عامر بن عقيل ، فارس شاعر وهو القائل :

ويسأل هذا الناس هل وقع الحيا وأسأل عن طي ألا أين حلت ؟

وهذا لم يترجمه الزركلي ، وهو غير جرير بن عبدالله البَجَلي (الصحابي) رضي الله عنه ، الذي جاء ذكره في كتاب (معجم الشعراء في لسان العرب)

---

* نشر في العدد (١٠٣) من المجلة العربية ، الصادر في شعبان ١٤٠٦هـ = آيار (مايو) ١٩٨٦م.

للدكتور (ياسين الأيوبي) ، على أنه ورد في مادة (بجل) من اللسان لابن منظور المتوفى سنة ٧١١ هـ . وقد أورد له بيتاً مفرداً .

قال في اللسان في مادة (بجل) : « وبجيلة قبيلة من اليمن ، والنسبة إليهم بَجَلي بالتحريك ، ويقال إنهم من معد ، لأن نزار بن معد ولد مضر وربيعة ، وإياداً ، وأنماراً ، ثم إن أنماراً ولد بجيلة وخثعم فصاروا باليمن ، ألا ترى أن جرير بن عبد الله البَجَلي نافر رجلاً من اليمن إلى الأقرع بن حابس التميمي حَكَم العرب فقال :

يا أقرع بن حابس يا أقرعْ   إنك إن يُصرَع أخوك تصرعْ

لكن أبا محمد الأعرابي الغندجاني في (فُرحة الأديب) أورد قصة منافرة بجيلة وكلب ، واشتراك جرير بن عبد الله البجلي فيها ، وجاء البيت الذي أورده صاحب اللسان ، في (رجز) منسوب لابن الخثارم البجلي (ص١٠٥ وما بعدها) .

ومن منهج الدكتور الأيوبي في كتابه ، أن يورد مصادر ترجمة الشاعر ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، ولكنه حينما ذكر جرير بن عبد الله البجلي لم يذكر عنه أي مصدر ، بينما من المعروف أنه - رضي الله عنه - أحد صحابة رسول الله ﷺ ، وترجمته موجودة في مظانها من كتب تراجم الصحابة كالإصابة لابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) وله في سير أعلام النبلاء ترجمة ضافية ٢ / ٥٣٠ ، وليس بها أنه كان شاعراً .

وكذلك ابن حجر لم يذكر في ترجمته أنه كان شاعراً ، ولم يترجم الزركلي لهذا الصحابي .

٣ - جرير بن الحرقاء أو الخرقاء وهي أمه ، قال الآمدي : له أشعار في كتاب بني عجل ، فهو عجلي ، وله مناقضة مع الأخطل ، ورد على الفرزدق ..

أقول : لم يترجم له الزركلي ، وقد ورد ذكره في مواضع من (طبقات فحول الشعراء) ، تراجع القطعة ٤١٥ وما حولها قبل وبعد .

٤ - جرير بن عبد المسيح الضبعي ، وهو المتلمس ، الشاعر المشهور بلقبه هذا .

وقد ترجم له في (الأعلام) ، توفي سنة ٥٠ قبل الهجرة ، وهو خال طرفة بن العبد ، له ديوان شعر مطبوع .

٥ - جرير بن كليب بن نوفل بن نضلة ، قال الآمدي : « كذا ذكر ابن حبيب في كتابه الذي ذكر فيه شعراء القبائل ، ولم يذكر له شعراً ، ولا وجدت له في قبائل بني أسد ذكراً ، وهو إسلامي » . وجاء في الهامش : « سمّاه أبو تمام جزء بن كليب الفقعسي ، وقال أبو محمد الأعرابي : « هو جرير بن كليب لا جزء » .

وفي (الحماسة) تحقيق الدكتور عبد الله عسيلان (طبعة المجلس العلمي في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٣٦/١) جاءت القطعة الشعرية الخاصة به ، معنونة هكذا :

(وقال جري بن كليب الفقعسي ، ويروى حَري ويروى جزء بن كليب) .

وهكذا نرى اختلافاً عجيباً في اسم هذا الشاعر ، فهو جرير ، وجزء ، وجري ، وحري .. فأيها الصحيح ؟ .

إنني أميل إلى أن يكون اسمه جريراً لسببين :

الأول : أن الآمدي أدرجه فيمن يحمل اسم (جرير)، ولو كان لديه شك في اسمه لاحترز .

الثاني : أن أبا محمد الأعرابي (الغندجاني) معروف بدقته غالباً وتحريه للصواب .. والله أعلم .

هذا وأود أن أضيف أن الفقعسي ، نسبة إلى فقعس ، وهو حي من بني أسد ..

٦ - جرير بن الغوث بن مردان ، أخو بني كنانة بن القين . قال الآمدي بعد

إيراد نسبه : وجدت في كتاب بني القين قصيدة أولها :

طرقت سمية من بعيد بعدما كادت حبالك من سمية تقضب

وأضاف قائلاً : ولم أر فيها ما يصلح للمذاكرة فأثبته .. اهـ .

وهكذا أعرض الآمدي عن إيراد القصيدة أو شيء منها .

وهذا أيضاً لم يترجم له الزركلي .

٧ - أما السابع ، وهو الأخير ، جُرَير - بضم الجيم وفتح الراء - أبو مالك المدلجي ، أحد بني مدلج بن مَيْزن بن هلال بن ضبة [١] بن عبد بن كبير بن عُذرة ، وهو القائل :

وإِنا لنمنع عُوذ النساء إذا غاب شاهد أنفارها
إذا الخيل جالت على الذائديـ ـن حول المخاض بأغبارها
وخضّبها بدم كالجسا د مُقبلةً .. وبأدبارها

ويقال : قالها هلال بن أبي سلمى المدلجي .

هذا ماقاله الآمدي في المؤتلف والمختلف .

وليس لجُرير هذا ترجمة في (الأعلام) للزركلي .. ولا لهلال بن أبي سلمى المدلجي .

والمصادر التي بين يديَّ شحيحة في معرفة المزيد عن هؤلاء الشعراء إذا استثنينا الشاعرين المشهورين منهم ، أعني ابن الخَطَفَى والمتلمس ..

وليس في تراثنا القديم معاجم للشعراء .. أعني فيما وصل إلينا من هذا التراث ، فمعجم ياقوت للشعراء لا يزال مفقوداً ، أما (معجم الشعراء)

---

(١) كذا في المؤتلف والمختلف ، وهو تصحيف . والصواب « ضِنَّة »كما في الأعلام (ضنة) ، نقلاً عن نهاية الأرب للقلقشندي ص ٢٦٣. وتاج العروس ، مادة (ضنن) : ٢٦٦/٩ . [المصحح].

للمرزباني (ت ٣٨٤ هـ) ، فالمجلد المطبوع منه يبدأ بحرف العين ، وينتهي بالياء ، وما قبل ذلك فمفقود أو هو في حكم المفقود حتى الآن .

أما شعراء القبائل ، أو دواوين شعراء القبائل التي نجد الإشارة إليها في تراثنا هنا وهناك ، فقد ذهب بها الضياع إلا ماندر ، ومن هذا الذي ندر (شعراء هذيل) ..

وللأسباب ذاتها ، فإنه يصعب علينا جداً أن نضيف شيئاً ذا بال ، إلى أولئك الشعراء السبعة الذين حملوا اسم (جرير) .

وعلى سبيل المثال ، إذا طرقنا باب أبي الفرج الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ) ، في موسوعته الكبرى كتاب (الأغاني) ، في محاولة التعرف إلى (جرير) جديد ، غير أولئك الذين سردت أسماءهم فيما سلف ، فإنا لا نجد ترجمة صريحة لأي واحد ، بل لا نجد أية ترجمة صريحة لأيهم غير الشاعرين الاثنين المشهورين .

وكل ما أستطيع أن آخذه عنه ما ورد في أخبار (الأسود بن يعفر) عن (جرير بن سهم التميمي) الذي كان يسير أمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويقول :

يافرسي سيري وأمّي الشاما   وخلّفي الأخوال والأعماما
وقطعي الأجواز والأعلاما   وقاتلي من خالف الإماما
إني لأرجو ، إن لقينا العاما   جمع بني أمية ، الطغاما
أن نقتل العاصي والهماما   وأن نزيل من رجال هاما

لكن .. هل كان هذا الرجز من إنشاد الشاعر لنفسه .. أم كان متمثلاً به ؟

فقد ورد في الخبر نفسه ، أنه لما انتهى إلى مدائن كسرى ، وقف الإمام علي ، ووقف الناس ، فتمثل جرير بن سهم التميمي قول (الأسود بن يعفر) :

جرت الرياح على مكان ديارهم   فكأنما كانوا على ميعاد

قال له الإمام : فلِمَ لَمْ تقل كما قال الله عز وجل :

﴿ كَم تَركُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيونٍ * وَزُرُوعٍ ومَقَامٍ كريمٍ * ونَعْمَةٍ كَانُوا فيهَا فَاكِهِين * كَذَلِكَ وأوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِين ﴾[1]. ثم قال : يا ابن أخي إن هؤلاء كفروا النعمة ، فحلت بهم النقمة .. فإياكم وكفر النعمة فتحل بكم النقمة » .

فهل يكون التميمي قد استشهد في الأولى ، كما فعل في الثانية ؟ أما إذا كانت تلك الأبيات له ومن مقوله ، فهو بلا شك (جرير) جديد يضاف إلى أولئك السبعة .

* * *

(١) سورة الدخان ، الآيات ٢٥ - ٢٨ .

أبناء جرير *

ولعل من المناسب ونحن في سياق الحديث عن جرير بن الخَطَفَى أن نتحدث عن أبنائه ، أو بالأحرى عن بعض أبنائه ، الذين يمتون إليه - أيضاً - بقرابة الشعر مع الدم ، إذ يبدو أن الشعر يحيط بجرير من جميع أقطاره ، كما تحيط البحار بالجزر .. فمعروف من ترجمته أن جده حذيفة ، وهو الخَطَفَى (بفتحات ثلاث) كان شاعراً ، وسُمي الخَطَفَى لقوله :

وعنقا باقي الرسيم خيطفا

والعَنَق : نوع من سير الدواب ، والرسيم : أثر الدابة في الأرض ، أما الخيطفى فسرعة انجذاب السير ..

وله أبناء شعراء ، ومن أحفاده من عرف بالشعر .

ومناسبة الحديث عن جرير ، ما قرأته في خزانة الأدب ١/ ٧٥ في ترجمته ، فقد أورد الأبيات التي سُمي الجد من أجلها بالخطفى وهي قوله :

يرفعن بالليل إذا ما أسدفا

أعناق جنان وهاماً رجفا

وعنقا باقي الرسيم خطفا

---

* نشر في العدد (١٠٥) من المجلة العربية ، الصادر في شوال ١٤٠٦هـ = تموز (يوليو) ١٩٨٦م .

ثم نقل ما قاله عنه ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) .. وقد جاءت أخبار جرير في هذا الكتاب في ص ٤٦٤ طبعة دار المعارف ، حيث قال : إنه « كان له من الولد عشرة : منهم ثمانية ذكور ، منهم بلال بن جرير ، وكان أفضلهم وأشعرهم » . وقال : « ومن ولد جرير ، عكرمة بن جرير ، وكان شاعراً ، ونوح ابن جرير ، وكان شاعراً » .

فالحديث هنا يروق عن هؤلاء الشعراء من أولاد جرير ، ومن عقبه ..

نقل صاحب الخزانة ٧٦/١ عن المدائني ، قال : « كان جرير أعق الناس لأبيه ، وكان ابنه بلال أعق الناس له » .

وقد أورد صاحب (الشعر والشعراء) بعض أخبار وأشعار بلال ، في ترجمة أبيه جرير ، وهي أخبار وأشعار تدور حول الهجاء وحده ، ولكنها تدل على شاعرية جيدة ، كما نرى في هذه الأبيات التي قالها في قوم من بني فُقيم يقال لهم : بنو ناشرة .

عددنا فقيما وآباءهم	فشر فقيم بنو ناشرهْ
قصار العقال ، طوال الخطى	مناتين ، ليست لهم بادرهْ
يعدون غرماً قرى ضيفهم	فلا عدموا صفقة خاسرهْ
إذا ضفتهم ثم ساءلتهم	وجدت بهم علة حاضرهْ
وليسوا إذا قلت : ماذا هم ؟	بأصحاب دنيا ولا آخرهْ

وقد ترجم الزركلي لبلال هذا في (الأعلام) ، وسرد مراجعه لمن شاء أن يتوسع في البحث .. أما عكرمة ونوح فلم يترجم لهما .

أما عمارة بن عقيل بن بلال ، حفيد جرير ، فقد أورد له صاحب (الشعر والشعراء) في ترجمة جرير ص ٤٦٤ بيتين يهجو فيهما دينار ويحيى ابني عبد الله :

مازال عصياننـــا لله يسلمنـــا حتى دفعنـــا إلى يحيى وديـنـــار

الى عُليجين لم نقطع ثمارهما قد طال ما سجدا للشمس والنـار

وهكذا نرى أن الهجاء خصلة في الأسرة يتوارثونها .. وقد ترجم الزركلي لعمارة ، ودلنا على أن (شاكر العاشور) جمع شعره في ديوان مطبوع ، ووفاته سنة ٢٣٩ هـ ، وسرد الزركلي مراجعه ، ومنها مجلة العرب ٨/٧٧٣ ، وهو القائل :

وما النفس إلا نطفة بقـــــرارة إذا لم تكدر كان صفواً غديرهـا .

* * *

أمية .. سبعة شعراء *

ترجم (البغدادي) في (خزانة الأدب) لأمية بن أبي الصلت الثقفي فى الجزء الأول ص ٢٤٧ ، ثم ذكر في ص ٢٥٣ ، أنه تتبع مَن اسمُه (أمية) ، وهو يقصد الشعراء فقال : إنه وجدهم خمسة ، أحدهم أمية بن أبي الصلت ، والثاني أمية بن كعب المحاربي ، والثالث : أمية بن خلف الخزاعي ، والرابع : أمية بن أبي عائذ الهذلي ، والخامس : أمية بن الأسكر الكناني . ثم قال : ولم يذكر واحداً منهم الآمدي في كتابه (المؤتلف والمختلف) مع أن هذا من شرط كتابه . ووعد بأن يترجم لمن يأتي له شعر في الشواهد .

وقبل أن أعلق بشيء على ما يتصل بهؤلاء الشعراء ، أود أن أنوه بهذه الحاسة النقدية التي نلمسها لدى البغدادي ، وبحسن تتبعه ، وسعة اطلاعه ، وجودة مراجعه ، واهتدائه إلى مواطن بحوثه وتعليقاته وتدقيقاته .

ثم أقول : إن الآمدي (الحسن بن بشر) المتوفى سنة سبعين وثلاثمائة ، لم يورد البتة مادة (أمية) في معجمه (المؤتلف والمختلف) مع أن ذلك - حقاً - من شرط كتابه .. وجلَّ من لا ينسى ولا يغفل .

أما أول من ترجم لهم البغدادي نفسه ، ممن يحمل اسم (أمية) من

---

* نشر في العدد (١٠٤) من المجلة العربية ، الصادر في رمضان ١٤٠٦هـ = حزيران (يونيو) ١٩٨٦م .

الشعراء ، فهو (أمية بن أبي عائذ الهذلي) ، جاءت ترجمته في ٢/٤٣٥ قال عنه : (العَمْري أحد بني عمرو بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل ، شاعر إسلامي مخضرم على ما في (الإصابة) عن (المرزباني) . وفي (الأغاني) أنه من شعراء الدولة الأموية ، وأحد مدّاحهم ، له في عبد الملك بن مروان ، وعبد العزيز قصائد ، وقد وفد إلى عبدالعزيز بن مروان بمصر ، وأنشد قصيدته التي أولها :

ألا إن قلبي معْ الظاعنينا ... حزين ، فمن ذا يعزي الحزينا ؟

وسار بمدحة عبد العزيـ ... ـز ركبان مكة والمنجدونا

وقد ذهبوا كل أوب بها ... فكل أناس بها معجبونا

محبَّرة من صحيح الكلا ... م ليست كما لفق المحدثونا ؟[1]

وطال مقامه بمصر عنده ، وكان يأنس به ، ووصله بصلات سَنِيَّة ، فتشوق إلى البادية ، وإلى أهله ، فأذن له ووصله . .) .

هذا ما قاله البغدادي في ترجمته ، التي أوردها في نهاية كلامه على الشاهد (١٥٣) :

ويأوي إلى نسوة عُطَّل ... وشعثاً مَراضيعَ مثلَ السَّعالي

حيث قال إن هذا البيت للشاعر أمية المذكور من قصيدة طويلة عدتها ستة وسبعون بيتاً ، على رواية أبي سعيد السكري في (أشعار الهذليين) مطلعها :

ألا يالَقَومِ لِطَيفِ الخيال ... يؤرِّقُ من نازحٍ ، ذي دلالِ

وقد أورد بعض أبياتها . . وفيها قوله :

خيالٌ لجَعْدَةَ قد هاج لي ... نُكاساً من الحُبِّ بعد اندمالِ

---

(١) ترى ماذا يقول هذا الشاعر لو عاش إلى زمن صرعة الشعر المنفلت ؟ !

تَسَدَّى مع النوم تمثالها ... دُنُوّ الضَّباب بطَلٍّ زُلالِ
فباتت تسائلنا في المنام ... وأحبب إليّ بذاك السؤالِ
تُثنِّي التحيةَ بعد السلامِ ... ثم تفدِّي بعمٍّ وخالِ
فقد هاجني ذكرُ أمِّ الصبيِّ ... من بعد سُقْمٍ طويلِ المِطالِ
ومرِّ المنون بأمر يغو ... ل من رُزء نفسٍ ومن نقص مالِ
إلى الله أشكو الذي قد أرى ... من النائبات بعافٍ وعالِ
وإظلالَ هذا الزمان الذي ... يُقَلِّبُ بالناس حالاً لحالِ
وجَهْدَ بلاءٍ إذا ما أتى ... تَطاولَ أيّامُه والليالي

وكما يلاحظ القارىء فإن البغدادي قد أورد المصادر التي أخذ عنها الشعر والترجمة .. وإن كان الأستاذ (عبد السلام هارون) محقق الكتاب قد استدرك عليه بأن عدة قصيدته اللامية ٨٣ بيتاً كما في شرح (أشعار الهذليين) للسكري .. تحقيق (عبد الستار أحمد فراج) ، وهو في ذلك على حق . وأضيفُ أن عدة القصيدة النونية هناك واحد وخمسون بيتاً .. ولأمية هناك قصائد أخر ..

وقد ترجم صاحب (الأعلام) للشاعر ، مستنداً إلى البغدادي ، ولكنه ذكر أن وفاته نحو سنة ٧٥ هـ / ٦٩٥ م .

* * *

وجاء ذكر (أمية بن حرثان بن الأسكر الكناني) في الشاهد رقم ٤٢٥ في ٦/١٤ :

قومي اللّذو بعكاظ طيَّروا شَرراً ... من روس قومك ضربا بالمصاقيل

وترجم له في ص ١٨ معتمداً على صاحب (الأغاني) ، وذكر أن ابنه (كلاب) أدرك النبي ﷺ فأسلم مع أبيه ، ثم هاجر ، ثم أورد القصة المعروفة

عن اشتياق أمية لابنه كلاب بعد أن أغزاه عمر رضي الله عنه ، وما قاله من شعر ، ليعطف قلب الفاروق عليه ، وقد كان له ما أراد .

وفي كل أخباره التي ذكرها البغدادي ، كان يشير إلى مراجعه ، وليس فيها ما يدل على عمره ، وفي أية سنة أسلم ، وفي أية سنة مات ، كما أن صحبته للنبي ﷺ فيها نظر .

هذه خلاصة ما أورده (البغدادي) .

ترجم له الزركلي في (الأعلام) ، وجعل وفاته سنة ٢٠ هـ = ٦٤١ م .

وصاحب (الأغاني) ذكره في موضعين ، أولهما في خبر أساقفة نجران مع النبي ﷺ ١٣٨/١٠ طبعة الساسي ، فأورد قصة تزويجه ابنته الحسناء ، وفيها أرسل كلمته : (مرعى ولا كالسعدان) التي ذهبت مثلاً .

أما الموضع الثاني فهو في الأخبار الخاصة به ١٥٦/١٨ حيث ذكر نسبه وطرفاً من أخباره وأشعاره .

وجاء ذكره - أيضا في كتاب (المعمَّرون والوصايا) لأبي (حاتم السجستاني) ت ٢٥٠ هـ ٨٦٤ م ، ص ٨٥ من طبعة ١٩٦١ م ، وفيه قال : إن (مربعة كلاب) في (البصرة) منسوبة إلى ابنه (كلاب) .

أما (ابن حجر ت ٨٥٢ هـ) ، فقد ترجمه في (الإصابة) في القسم الأول ، وكذلك ترجم ابنه (أبي) . وفي ترجمته قال : إنه كان يسكن (الطائف) ، كما قال إنه ترجم لابنه كلاب .

وذكره بإيجاز شديد ابن حزم في (جمهرة أنساب العرب) ١٨٣ وأفاد أن له أخاً هو أبيّ بن حرثان .

* * *

أما أمية بن كعب المحاربي ، وأمية بن خلف الخزاعي ، فلم تأت ترجمة

لهما في (الخزانة) ، إذ لم يأت لهما شيء في (الشواهد) ٠

ولم يترجم لهما الزركلي في أعلامه ، ولم يذكرهما صاحب (الأغاني) ٠

وجاء في (معجم الشعراء في لسان العرب) للدكتور (ياسين الأيوبي) ذكر (أمية بن خلف) ، وأن له بيتين من الشعر في مادة (شوظ) و (يمن) ، وبالرجوع إليهما في (اللسان) ، وجدته يقول في (شوظ):

« الشُّواظ ، والشُّواظ : اللهب الذي لا دخان فيه ، قال أمية بن خلف يهجو حسان بن ثابت ، رضي الله عنه :

أليس أبوك فينا كان قيناً　　لدى القينات فسلاً في الحفاظِ

يمانيا يظل يشد كيراً　　وينفخ دائباً لهب الشواظِ »

ويقول في (يمن) : « قال الجوهري : اليمن بلاد العرب ، والنسبة إليها يمني ويمان ، مخففة ، والألف عوض عن ياء النسب فلا يجتمعان ، قال سيبويه : وبعضهم يقول : يمانيّ بالتشديد ، قال أمية بن خلف :

يمانياً يظل يشدُّ كيراً　　وينفخ دائباً لهب الشواظ »

ولكن : أي أمية بن خلف ؟ أهو القرشي المعروف ، أم هو الخزاعي الشاعر الذي عدّه صاحب الخزانة ؟ لقد ذهب القرشي بالشهرة ، فإذا أطلق الاسم فإنه يذهب إليه ٠

ولكن البحث يدل على أن قائله هو (أمية بن خلف الخزاعي) ، كما هو في « المقاصد النحوية : ٥٦٣/٤ » ، حيث قال العيني :

« ألا من مبلغ حسان عني　　مغلغلة تدب إلى عكاظ

أقول : قائله هو (أمية بن خلف الخزاعي) يهجو حسان بن ثابت الأنصاري ، وبعده :

« أليس أبوك قيناً كان فينا　　لدى الغايات فسلاً في الحفاظ

يمانيــاً يظل يشـد كيــراً   وينفـــخ دائمـاً لهب الشــواظ

فأجابه حسان رضي الله عنه :

« أتاني عـن أمـيــة ذرو قـــول   ومـا هـو بالمَغـيب بذي حفــاظ
سـأنشـر إن بقـيت لكم كـلامــاً   يُنَشَّر في المجــامع من عكاظ
قـواف كـالسـلام إذا اسـتـمـرت   من الصم المعـجـرفـة الغـلاظ
تزورك إن شـــتـــوت بكـل أرض   وترضخ فــي مـحلك بالمقــاظ
بنيتُ عليك أبيــاتــاً صــلابــاً   كـأمـر الوسق يقـفص بالشظاظ
مـجللــة تعـمـمـه شنـــــارا   مـضرَّمـة تأجـــج كـالشـــواظ
كـهـمزة ضيغم يحمــي عـرينــا   شديد مغـارز الأضلاع حـاظـي
تغـض الطرف إن ألـقـــاك دوني   وترمي حين أدبر باللحاظ »أهـ

وبعدها شرح لغريب ألفاظ الأبيات ، لمن أراد الرجوع إلى ذلك وقد أضربت عن إيراده لئلا يتشعب الحديث ويطول ، مما يبعدني عن القصد .

والعيني هو محمود بن أحمد ، بدر الدين العيني الحنفي ت ٨٥٥ هـ .

أقـول : وأبيـات حسـان رضي الله عنه ، جاءت في ديوانه ١٥٣/١ من طبعة دار صادر ببيروت ، تحقيق الدكتور وليد عرفات ، مع شيء من التغيير ، وفيه أنه قالهـا في هجــاء (أمية بن خلف الجمحي) ، وهذا يسوقنا إلى إشكال جديد ، فهل المهجو هو أمية الخزاعي ، أم أمية الجمحي ؟

وإذا عرفنا - أيضاً - أن بعض المصادر القديمة تذكر شعراً لأمية بن عبد شمس ، فهو أمية السابع ؛ فهذا أبو الفرج في الجزء ١٦ ص ٧٤ من الأغاني طبعة الساسي ، يورد هذه الأبيات له في مدح ابن ذي يزن :

جلبنا النُّصح تحمــله المطايا   إلى أكوار أجمــال ونــوقِ

مغلغلة مرافقــها ثــقــالاً إلى صنعــاء من فجٍّ عمــيقِ

تؤمّ بنا ابن ذي يزن وتَهــدي مخالبهــا إلى أمم الطــريقِ

فلما وافقت صنعاء ســارت بدار الملك والحسـب العـريقِ

ولم يفـت (الزركلي) حينمــا ترجــم لـه فــي (الأعـلام) أن يذكــر أن له أبيـاتــاً من الشعـر في رحلتــه إلــى (سيف بن ذي يزن) لتـهنئته بانتصاره على الحبشة .

* * *

سُحيم بن وَثيل الرياحي *

- ١ -

أنا ابن جلا ، وطَلاّع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

بيت معروف من الشعر ، تمثل به الحجاج في العراق ، حينما ولي الإمارة ، ولكن من هو قائله ؟ كنت أود أن أعرف ذلك ، حتى وجدته في كتاب (خزانة الأدب) لعبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٣) ، أثناء مطالعتي لهذا الكتاب ، فقد أورده في الشاهد الثامن والثلاثين ، فتكلم عليه ، نحوياً ، ولغوياً ، (١/ ٢٥٥) وذكر قائله ومن يتفق معه في الاسم ، وقد أحببت أن أقف عند بحثه القيم هذا معلّقاً أو معقّباً .

والمعنى الذي أراده الشاعر ، أنه رجل واضح ، بارز ، تبدو أعماله وآثاره جلية شاخصة ، وهو رجل همام ، طَلاّع أنجد ، يقصد الأمور العظيمة ، ويعرفه الناس متى تهيأ للحروب والمهمات الجليلة .

ولكن من هو الشاعر ؟

إنه سُحيم بن وَثيل الرياحي ، ونسبه كما أورده البغدادي : سُحيم بن وَثيل بن أُعيفر بن أبي عمرو بن إهاب بن حِميَري ، بلفظ النسبة إلى حِميَر . قال ابن الكلبي في جمهرة الأنساب : حميَري بن رياح يقال فيه : حَمَّري أيضاً أي

---

* نشر في العدد (١٠٦) من المجلة العربية ، الصادر في ذي القعدة ١٤٠٦هـ = آب (أغسطس) ١٩٨٦م .

بفتح الحاء وتشديد الميم .

وقال في ضبط اسمه : « سُحيم » ، مصغّر أسحم ، تصغير ترخيم من السُّحمة بالضم وهي السواد ، ووَثِيل بفتح الواو وكسر الثاء المثلثة ، وهو في اللغة كما في القاموس ، الليف ، والرشاء الضعيف ، والحبل من القنب ، والضعيف ، وفي الإصابة لابن حجر، وتبعه السيوطي في شواهد المغني ، أنه بالتصغير ، وهو غير منقول .. » أهـ .

ومعنى هذا أن هناك قولا بأنه (وُثيل) بضم الواو ، ولكن البغدادي لا يراه وارداً .

ورياح الذي ينسب إليه الشاعر ، هو كما ذكر البغدادي جده : رياح بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن عمرو بن تميم بن مرّ بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان .

وقد أورد البغدادي أبيات القصيدة كما يلي :

أنا ابن جلا وطَلَّاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

وإن مكاننا من حِمْيَرِيٍّ ... مكانُ الليث من وسط العرين

وإني لن يعود إليّ قِرني ... غداة الغِبِّ إلا في قرين

بذي لِبَدٍ يصدّ الركب عنه ... ولا تؤتي قرينتُه لحين

عذرت البُزل إذ هي خاطرتني ... فما بالي وبال ابْنَي لَبُون ؟

وماذا يبتغي الشعراء مني ... وقد جاوزتُ حدَّ الأربعين ؟

أخو خمسين مجتمع أشُدِّي ... ونجّذني مداورة الشؤون

فإن عُلالتي وجراء حولي ... لذو شِقٍّ على الضَّرَع الظنون

كريم الخال من سَلَفَيْ رياح ... كنصل السيف وضاح الجبين

متى أحلل إلى قطن وزيد   وسلمى تكثرِ الأصوات دوني

وَهَمَّام متى أحلل إليه   محل الليث في عِيص أمين

ألفّ الجانبين به أسودٌ   منطّقة بأصلاب الجفون

وإن قناتنا مَشِظٌ شظاها   شديدٌ مدّها عُنُقَ القرين

وذكر في سبب الأبيات ، أن رجلاً أتى الأبيرد الرياحي وابن عمه الأخوص ، وهما من رُدف الملوك من بني رياح (أي أنهم ينوبون عن الملوك) ، يطلب منهما هناء (قطراناً) لإبله . فقالا له : إذا أنت أبلغت سحيم بن وثيل الرياحي هذا الشعر أعطيناك ، فقال : قولا . فقالا : اذهب وقل له :

فإن بداهتي وجِراء حولي   لذو شِق على الحِطم الحرون

ومعنى البيت ، أنني إذا دخلت السباق ، وجاء من حولي المتسابقون ، كنت من الإعياء والشيخوخة أميل على فرس متحطم عجوز ، بطيء السير من إعيائه .. أي يُعَيِّرانه بكبره وتقدُّم سنه وتأخُّر عافيته .

تقول الرواية : فلما أتاه وأنشده الشعر أخذ عصاه ، وانحدر في الوادي ، يُقْبِل فيه ويدبر ، ويهمهم بالشعر ، ثم قال : اذهب وقل لهما ، وأنشد الأبيات . فجاءا إليه فاعتذرا ، فقال : إن أحدكما ليرى أنه صنع شيئاً حتى يقيس شعره بشعرنا ، وحَسَبه بحَسَبنا ، ويستطيف بنا استطافة البعير الأزب (أي النفور) .

ومن المفيد أن أشرح الأبيات ، أو ما غمض منها شرحاً مجملاً ، فإن الشاعر يقول في بيته الثالث : إن قرينه من الفرسان لا يأتي إلا في حماية رجل شجاع ليرد عنه سطوته .

أما في البيت الخامس فهو يقول : إنه يعذر أقرانه إذا تعرضوا له ، أما الشبان فهم ليسوا أكفاءه ·

وفي البيت السادس يلتفت إلى تحدي الشعراء فيقول : إنه حقاً تجاوز الأربعين فلم يعد شاباً ، ولكنه كما يقول في البيت السابع ، أخو خمسين عاماً ، اجتمعت قوته ، وأصبحت له حنكة طويلة في الحياة ·

أما في البيت الثامن فيقول : إنني وخصومي هؤلاء الذين يعيِّرونني بكبر السن ، متى أخذنا في السباق أو القتال ، فإني (أميل) حقاً على فرسي ، ولكن ليس من الضعف ، وإنما لأمزق شمل هؤلاء الصغار·

ثم يتمدَّح بنسبه وأخواله في البيت التاسع ، فيقول : إنه كريم الخال ، وجده رياح ، فهو إذن كنصل السيف أي حدّه ، وضاح الجبين ، ظاهر أمره مشتهر ، معروف المكانة ! فإني - وهذا ما يقوله في البيت العاشر- متى نزلت في أخوالي ، قطن ، وزيد ، وسلمى ، فسترتفع أصواتهم للترحيب بي ، وكذلك الأمر - كما يقول في البيت الحادي عشر - إذا نزلت في أعمامي ، مثل عمي همَّام ، فإني أكون محل الليث في الغابة ، ويصف الغابة في البيت الثاني عشر بأنها كثيفة الجانبين ، بها الأسود المنطّقة التي تلبس ملابس الحرب وتضع السيوف في وسطها وهي سيوف قوية .. تكمن في جفونها أو قراباتها · وفي البيت الثالث عشر والأخير ، يقول : إن شوكتهم حادة الشظى والأطراف ، تمتد سطوتها إلى عنق الخصم لتقضي عليه ·

ونقل البغدادي عن ابن دريد ، أن سُحيم بن وَثيل من الشعراء المخضرمين فقد عاش أربعين سنة في الجاهلية ، وأربعين سنة في الإسلام ، وله أخبار مع زياد

ابن أبيه ، وهو الذي افتخر مع غالب بن صعصعة والد الفرزدق في نحر الإبل ، فبلغ ذلك علياً رضي الله عنه فأفتى بحرمة ما نحره سُحيم .

وقال البغدادي إنه سيورد القصة مشروحة في باب الاشتغال في قول جرير :

تَعُدّونَ عَقْرَ النِّيبِ أفضلَ مجدِكم بني ضَوْطَرى ، لولا الكَمِيَّ المقنَّعا

وبمراجعتها في الباب المذكور { ٣/٥٨} ، لخص القصة بأنه أصاب أهلَ الكوفة مجاعةٌ ، فخرج أكثرالناس إلى البوادي - وكان (غالب) أبو الفرزدق الشاعر رئيسَ قومه - فاجتمعوا في أطراف السماوة من بلاد كلب على مسيرة يوم من الكوفة ، فعقر غالب لأهله ناقة ، صنع منها طعاماً وأهدى إلى قوم من تميم جفاناً . وأهدى إلى سُحيم جفنة فكفاها ، وضرب الذي أتى بها ، وقال : أنا مفتقر إلى طعام غالب ؟ ونحر سُحيم لأهله ناقة ، فلما كان من الغد نحر غالب لأهله ناقتين ، ونحر سُحيم ناقتين ، وفي اليوم الثالث نحر غالب ثلاثاً ، فنحر سُحيم ثلاثاً ، فلما كان اليوم الرابع نحر غالب مائة ناقة ، ولم يكن لسُحيم هذا القدر فلم يعقر شيئاً ، ولما انقضت المجاعة ، ودخل الناس الكوفة ، قال بنو رياح لسُحيم : جررت علينا عار الدهر ، هلاّ نحرت مثل ما نحر غالب ، وكنا نعطيك مكانَ كلِّ ناقةٍ ناقتين ؟! فاعتذر أن إبله كانت غائبة ، ونحر نحو ثلاثمائة ناقة ، وكان ذلك في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فمنع الناسَ من أكلها وقال : إنها مما أُهِلّ لغير الله به ، ولم يكن الغرض منه إلا المفاخرة والمباهاة ! فجُمعت لحومها على كُناسة الكوفة ، فأكلها الكلاب والعِقْبان والرَّخَم .

وذكر أن القالي أورد الحكاية مفصلة في ذيل أماليه ، وأورد ما قيل فيها من الأشعار ، وما مُدح به غالب وهُجي سُحيم .

ويلاحظ أن البغدادي أورد اسم سُحيم ، ولم يذكر أي سُحيم هو [1] ، لولا إشارته إلى بني رياح ، التي دلت على أن المقصود سُحيم بن وَثيل الرياحي ، ولولا ما سبق أن ورد في كلامه على الشاهد السابق وهو (أنا ابن جلا) الذي ورد كلامه عليه في الجزء الأول من الخزانة ، على بعد المسافة بين الشاهدين ، وقد سكت المحقق فلم يعلق في الهامش ليعرف بأمر سُحيم ، وليربط ما بين الخبرين ·

* * *

- ٢ -*

وذكر (القالي) وهو إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٧ م) في كتابه (ذيل الأمالي والنوادر ، ص ٥٢) قصة معاقرة الإبل بين غالب بن صعصعة والد الفرزدق الشاعر ، وبين سُحيم بن وَثيل الرياحي الشاعر ؛ والجديد الذي ذكره القالي أن سُحيماً كان رجلاً فيه شِنْغيرة (أي سوء خلق وفحش وبذاءة) وأذى للناس ، وقد تعرّض لهجاء بعض الشعراء كطارق بن ديسق ، وأنه قال مرتجزاً ، وهو يعقر إبله :

كيف ترى جُحَيْدراً يرعاها
بالسيف .. يُخْليها إذا استخلاها
يَنْتَثِرُ الخَزِيزَ من ذُرَاها

وأنه قال :

---

(١) ذكر البغدادي اسم سحيم كاملاً في ص ٦٠ ؛ [المصحح] ·

* نشر في العدد (١٠٧) من المجلة العربية ، الصادر في ذي الحجة ١٤٠٦هـ = آب - أيلول (أغسطس - سبتمبر ١٩٨٦م) ·

لَهَانَ بما يَجْنِي عُفَيْرٌ وجَحْـــدَر   وذو السيف قد دنّى لها كلَّ مُقْرَمِ
ألا لا أبالي أن تُعَـــدَّ غَرامــةً   عَلَيَّ إذا ما حَوْضُكـم لم يُهَـــدَّمِ
فَسَبَّحْتُ في الظلماء لمأ رَأَيْتُهُم   نَجِيّاً ، وما يخفى لدى الله يعلـم

* * *

وقد عَدَّ (محمد بن سلام الجمحي) ت ٢٣١هـ ، سُحيماً في الطبقة الثالثة من الإسلاميين ص ٤٨٥ من (طبقات فحول الشعراء) وقـال عنـه ص ٤٨٩ : « شريف مشهور الأمر في الجاهلية والإسلام ، جيد الموضع في قـومه ، شـاعر خنذيذ (مجـيد مـفلق) ، وكـان الغالب عليه البداء (أي البـداوة) والخُشْنَةُ » . ثم أشـار إلى قـصـة المناحـرة ، وأورد خـبـراً وقع في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فقد استعمل سَمُرَةَ بنَ عمرو بن قُرْط ابن جابر بن جندب العنبري ، على رد الإبل الضالة لعمرو بن تميم وفلج وما يليها في الدهناء فكان لا يخبر بضالة في قوم إلا أخذها فعرَّفـها ، فبلغه أن ناقة في إبل بني وَثيل ، فـأتاهم وفي معيتـه أَعْبُدٌ له ، ولـم يكن هناك أحد من بني َوثـيل ، وأمـهم ليلى بنت شداد من بني حِمْيَري بن رياح بن يربوع ، وهي عجوز كبيـرة ، في غلمة لهم ، فـقال : اعـرضوا عليّ الإبل ، فـأبت ، فـأخذ ليعـرضها ، فـأهوت إليه ، فـدفعـها ، فـادعت أن ثنيتـيها سقطتا ، فـتركـها وترك الإبل ، فلما قـدم (سُحيم بن وَثيل) إلى أمه أخبرته الخبر فـسكت حتى يلقى عبيدة بـن غـاضـرة بن سمرة لينتقم منه ، فـصرعـه فدق فـمـه ، فـاستعـدى عليـه سمرة الخليـفـة عثمـان رضي الله عنه ، واسـتدعـى سُحيـماً ، وحبست إبله حتى ضاعت ، فـاحتج عند عـثمـان رضي الله عنه قائلاً : يا أمير المؤمنين ، إنـه كسـر فم أمي ! فـأجابـه : ألا استعديت عـليه (أي شكوته) ، وانتـهى الأمر حينما تدخل كل من يزيد بن مسعود (وهو أخو ليلى بنت مسعود ، أم عـبيدالله بن علي بن أبي طالب) ، ونعيم أبي

قُرّان اليربرعي ، فحملا للعنبري مائة من الإبل ، فقال سُحيم في ذلك :

كفاني أبو قران ، نفسي فداؤه ومن يك مولاه فليس بواحد

ولصاحب (الأغاني) رواية أخرى لقصة المناحرة جاءت في الجزء ١٩ ص ٥ من طبعة الساسي .

وقد أورد القصيدة السيوطي في (شرح شواهد المغني) ص ٤٥٩ بزيادة بيت واحد بعد قوله (كريم الخال) وهو :

متى أحلل إلى قطن وزيد وسلمى تكثر الأصوات دوني [1]

أقول : قطن وزيد من رجال سعد العشيرة ، كما جاء في (الاشتقاق) لابن دريد (ت ٣٢١ هـ) ، فهو يفتخر بآبائه وأخواله .

وقد جاء ذكر سُحيم بن وَثيل في (الاشتقاق) ص ٢٢٤ ط ١٣٧٨ هـ ، في ذكر قبائل (ثعلبة بن يربوع) ، فذكر أنه عاش في الجاهلية أربعين سنة ، وفي الإسلام ستين سنة ، وأن له عقباً في الكوفة . وفسر الأسحم بالأسود ، والوَثيل من الوثالة وهي الرجاحة .

ومما يضاف إلى الأبيات المذكورة ، بيت ورد في الأصمعيات بعد قوله : فإن علالتي ... وهو :

سأحيي ما حييت وإن ظهري لمستند إلى نضد أمين

وقد وردت بعض الأبيات في حماسة البحتري ، القطعة ٢٥ بدأت بقوله : أنا ابن جلا .. والبيت الذي بعده هو :

صليب العود من سلفي نزار كمثل البدر وضاح الجبين

وهذا البيت لم يرد في النص الذي أسلفته .

وجدير بالذكر أن بعض الرواة ، قد خلط بين أبيات هذه القصيدة

---

(١) البيت موجود في الخزانة أيضاً ، [المصحح] .

وقصيدة وردت في (المفضليات) للمثقب العبدي رقم ٧٦ (يراجع هامش شرح شواهد المغني للسيوطي ص ٤٥٩) .

* * *

وقد أورد (الجاحظ) ت ٢٥٥ في (البيان والتبيين) ٣٤٣/٣ الطبعة الرابعة خمسة أبيات له أولها :

تقول حدراء : ليس فيك سوى الـ ـخمر معيب يعيبه أحد

ويبدو أنه قالها في جاهليته ، ولعل حدراء هي زوجته .

والأبيات أيضاً في (عيون الأخبار) لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ، ولكنه ذكر اسم سُحيم مجرداً ولم ينسبه . وهناك اختلاف يسير في بعض ألفاظ الأبيات (٢٥٩/١) .

* * *

ويذكره الزبيدي في مادة (سحم) في المستدرك على القاموس ، فيفيد أنه شاعر ، وأن ابنه جابراً شاعر أيضاً .. ومنه نعلم أن له ابناً اسمه جابر . أما صاحب القاموس نفسه فقد ذكره في مادة (وثل) .

وجعل الزركلي في (الأعلام) وفاته نحو سنة ٦٠هـ / ٦٨٠ م ، معتمداً على قول ابن دريد ، وإن لم يذكر (الاشتقاق) بين مراجعه ، ولكنه على ما يبدو ، نقل عمن نقل عنه .

ويفيدنا ابن خِلّكان (ت ٦٨١ هـ) في (وفيات الأعيان) ٦ / ٨٦ في حديثه عن الفَرزدق الترجمة رقم ٧٨٤ أن لسُحيم ديوان شعر صغير .

وجاء له في (لسان العرب) في مادة (يسر) قوله :

أقول لهم بالشعب إذ يَيْسرونني ألم تعلموا أني ابن فارس زهدم [1]

وفيه على أثر إيراد هذا الشاهد قوله : « كان وقع عليه سباء ، فضرب عليه بالسهام ، وقوله : يَيْسرونني : أي يجزئونني ويقسّمونني » .

أقول : ولا أعتقد أن هذا هو المراد ، بل أحسب هذا البيت من القطعة الميمية السالف ذكرها ، وأن المقصود من (ييسرونني) أي يطلبون مني أن أنحر .. وذلك في عملية التحدي التي تعرض سُحيم لها في (المناحرة) .

وأورد له صاحب (لسان العرب) أيضا في مادة (رأس) قوله :

وهم قتلوا عميد بني فراس برأس العين في الحجج الخوالي

وذكر أن أبا عبيدة أنشد في يوم رأس العين هذا البيت لسُحيم ابن وَثيل .

وذكر أبو عبيد البكري (ت ٤٨٧ هـ) صاحب (معجم ما استعجم) في مادة (رأس العين) من كتابه : « موضع في ديار بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان ... وفيه أغارت بنو رياح بن يربوع عليهم ، وقتلوا منهم معاوية بن فراس ، وسبقوا بالإبل ، ففي ذلك يقول سُحيم بن وَثيل الرياحي :

هُمُ قتلوا عميد بني فراس برأس العين في الحِجج الخوالي
وذادوا يوم طِخْفَةَ عن حماهم ذِيَادَ غرائب النَّعْم النِّهال

كما ذكره في مادة (الأربعاء) فقال : « كانت فيه وقعة لبني رياح على بني حنيفة ، قال سُحيم بن وَثيل الرياحي :

ألم تَرَنا بالأربعاء وخَيْلَنا غَدَاةَ دَعَانا قَعْنَبٌ والكَيَاهِمُ

---

(١) وفي رواية (لازم) .

وقد أضاف إلى هذا البيت بيتاً آخر بعده في مـادة (ذو خَيْم) :

رَدَدْنَا لمولاكم زُهَيْرٍ لَبُونَـهُ   وَجُدِّلَ فينا ابْنَا حمارٍ وعاصِمُ

وذكـر أنه في هذا الموضع أدركت بنو رياح عَدِيَّ بنَ حـمـار ، وكـان أغار على أهل بيت منهم ، فقتلوا عدياً وأخاه عمراً ، وارتجعوا الغنيمة فقال سُحيم بن وَثيل :

وظلت بذي خَيْم تسوق قلاصها

وفي موضع (سُحَام) ذكر له البكري هذا البيت :

تركنا بِمَرُّوت السُّحَامة ثاويـــــاً   بُجيراً وعَضَّ القيدُ فينا المُثَلَّمـا (١)

وفي مـادة (القُحْقُح) قـال : إنـه مـوضـع بين ديار شـيبـان وديار بني رياح ، وفيـه أدركت بنو يربوع المُجَبَّهَ ، أحد بني أبي ربيعة بن ذهل ، وكـان أغار على سرح لهم ، فقتلوه ، وقـتلوا عمرو بن القُرَيم ، أحد بني تيم ابن شيبان ، وقال سُحيم بن وَثيل الرياحي :

ونحن تركنـا ابن القُرَيم بقُحْقُحٍ   صريعاً ومولاهُ المُجَبَّـهَ لِلْفَـــمِ

فهو يومُ القُحْقُح ، ويومُ بطن المالَةِ » أ هـ .

وجاء في مادة (سبع) من (لسان العرب) قول سحيم :

مررت على وادي السباع ولا أرى كوادي السباع حين يُظلم واديـا

وفي مادة (قرع) أورد قوله :

إذا البغل لم يقرع له بلجامــه   عدا طوره في كـل ما يتعـــود

وفي مادة (نجا) أورد له أبياتاً من الرجز :

---

(١) ذكر البكري (المروت) في مادته، فقال : واد بالعالية ، بين ديار بني قشير وديار بني تميم ، وبالمروت أدركت بنو تميم بني قشير ، وقد أصابت منهم سبياً ونَعَماً ، فقتلوا رئيسهم بجير بن عبدالله ابن سلمة بن قشير بن كعب وغيره ، وأورد البيت وذكر فيه السخامة بالخاء وترجم المثلم فقال : المثلم ابن عامر بن حزن القشيري .

إني إذا ما القوم كانوا أنجيـــهْ
واضطرب القوم اضطراب الأرشيهْ
هناك أوصيني ولا توصي بيـــهْ

ولابن منظور تعقيب بعد إيراد هذه الأبيات ، مع اختلاف الروايات في بعض ألفاظها ، وأورد أيضاً في المادة نفسها قوله :

قالت نساؤهم ، والقوم أنجيـــةٌ   يعدى عليها كما يعدى على النعم

ومن كثرة استشهاد ابن منظور بأشعاره ، نعلم أن لسُحَيم شعراً مشهوراً .

* * *

- ٣ -*

وفي محاولة لاستقصاء أخبار سُحيم بن وَثيل الرياحي نُثبت المصادر التالية :

١ - في بلوغ الأرب :

جاء ذكره في (بلوغ الأرب) للسيد (محمود شكري الألوسي) ت ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م في كلامه عن (المعاقرة) ، ولكنه أورد اسمه مجرداً ، أي سُحيم فقط ، فلم ينسبه لا في المتن ولا الهامش (٣ / ٣٠ ط ٣) ، أما في كلامه عن (الميسر) ٣/ ٥٤ فأورد البيت :

أقول لهم بالشعب إذ ييسرونني   ألم تعلموا أني ابن فارس زهدم

---

(١) نشر في العدد (١٠٨) من المجلة العربية ، الصادر في المحرم ١٤٠٧هـ = أيلول (سبتمبر) ١٩٨٦م .

ثم قال :

« أي يفعلون بي ما يفعل الياسرون بالميسور ، وقيل من يسروا الشيء إذا اقتسموه ، وسمي المقامر ياسراً لأنه بسبب ذلك الفعل يجزىء لحم الجزور . وقال الواحدي : من يسر الشيء إذا وجب ، والياسر الواجب بسبب القِدْح ، وكان الميسر من مفاخر العرب ، لأنهم كانوا يفعلونه في أيام الشدة ، وعدم اللبن ، وأيام الشتاء » أهـ .

وقال في الهامش : « البيت لسُحيم بن وَثيل اليربوعي الرياحي ، وقيل لابنه جابر بن سُحيم ، وييسرونني هو من الميسر أي يجزئونني ويقتسمونني ، ويروي يأسرونني من الأسر ، وقوله : ألم تعلموا ، يروى بدله : ألم تيأسوا ، والمعنى واحد ، وقوله : أني ابن فارس زهدم ، يروى : أني ابن قاتل زهدم ، وهو رجل من عبس- وزهدم اسم فرس بشر بن عمرو ، أخي عوف بن عمرو ، وعوف جد سُحيم بن وَثيل ، قاله أبو محمد الأعرابي - فعلى رواية أني ابن قاتل زهدم يصح أن يكون الشعر لسُحيم ، قال الزبيدي : ويروى هذا البيت أيضاً في قصيدة أخرى على هذا الروي :

أقول لأهل الشعب إذ ييسرونني ألم تيأسوا أني ابن فارس لازم [1]
وصاحب أصحاب الكنيف كأنما سقاهم بكفّيه سمام الأراقم

قال : وعلى هذه الرواية أيضاً يكون الشعر له دون ولده لعدم ذكر زهدم في البيت » أ.هـ .

(١) لازم : اسم فرس .

٢ - وفي أيام العرب :

ويأتي كتاب (أيام العرب في الجاهلية) للأستاذ محمد أحمد جاد المولى وزميليه (الطبعة الثالثة) ، على ذكر سُحيم بن وَثيل عندما يذكر (يوم الصرائم) بين بني عبس وبني يربوع قوم سُحيم ، وفيه يورد بيتاً واحداً لسُحيم هو قوله :

وافى ابن زنباع وفروة عقدنا وفيهم دماء الحي لما تُصرّم

وكذلك في (يوم صوأر) على زعم أنه كان في الإسلام وليس في الجاهلية ، وقد آثر المؤلفون ذلك عن وعي منهم ، كما جاء في هامش صفحة ٤٠١ ، وفيه ذكر المناحرة ، ولكن لم يرد في الخبر شعر لسُحيم .

٣ - في تاريخ الطبري :

وورد في تاريخ الطبري (١٣٢/٦ ط ٢ - دار المعارف) بيت من الشعر معزواً إلى ابن الحر هو قوله :

لا كوفة أمي ولا بصرة أبي ولا أنا يثنيني عن الرحلة الكسلْ

في مستهل خمسة أبيات ، ولكن الطبري قال بعد إيراده :

« قال أبو الحسن : يروى هذا البيت لسُحيم بن وَثيل الرياحي » .

ولم يعلق المحقق ، وهو (محمد أبو الفضل إبراهيم) على ذلك بشيء ؟ .

٤ - في النوادر في اللغة :

وجاء ذكر سُحيم بن وَثيل في كتاب (النوادر في اللغة) لأبي زيد

الأنصاري (ت ٢١٥ هـ) ص ١٥٨ ، ط ١٤٠١ هـ ، وهذا نص ما ورد :

« وقال سُحيم بن وَثيل اليربوعي ، وأدرك الإسلام : (قال أبو الحسن : وكان مخضرماً يعني سُحيماً) :

كانت عُبيد شهود الحي فاعتزلوا وحِمْيَري فلم يعجز ولم يلم

ظلت نساؤهم والقوم أنجية يُعدى عليها كما يُعدى على النعم

(قال أبو الحسن : يقال ماء خِضْرِم : إذا تناهى في الكثرة واتسع ، فمنه سمي الرجل الذي شهد الجاهلية والإسلام مخضرماً ، كأنه استوفى الأمرين ، ويقال : أذن مخضرمة إذا كانت مقطوعة ، فكأنه انقطع عن الجاهلية إلى الإسلام) .

« عبيد وحِمْيَري : قبيلتان من بني يربوع ، وقوله : لم تُلِم ، لم تَأْتِ أمراً تلام عليه ، أو تستوجب الملامة عليه ، وواحد الأنجية نجي ، كما ترى ، وهي جماعة يتناجون ، كما قال تعالى : ﴿ خَلَصُوا نَجِيّاً ﴾ [١] ، و(الأنجية) جماعة النجي ، كأنهم الجماعات ، قال الراجز :

إني إذا ما القوم كانوا أنجيه

ومنه النجوى ، أي الجماعة يتناجون ، قال عز وجل : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ [٢] ، والنجوى أيضاً : المناجاة . قال : ﴿ وأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ [٣] ، وقال : ﴿ فَقَدِّموا بينَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ [٤] ؛ وأما قوله تعالى :

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٨٠ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٤٧ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية ٣ .

(٤) سورة المجادلة ، ١٢ .

﴿ مَا يَكُون مِنْ نجْوى ثلاثةٍ ﴾ [1] ، فيمكن أن يعني الجماعة ، ويمكن المناجاة ، يحتمل المعنيين . أبو حاتم :

كما يُعدى على الغنم » أ.هـ

أقول : إلى هنا انتهى ما ذكره أبو زيد ، وأود أن أعقب على هذا النص بما يلي :

١ - أبو الحسن المذكور هو علي بن سليمان ، الأخفش الأصغر ت ٣١٥ هـ كما نبّهني إلى ذلك الأستاذ عبد الله كحيلان جزاه الله خيراً .

٢ - أنه أورد قول الراجز : (إنّي إذا ما القوم كانوا أنجيه) ولم ينسبه ، بينما هو في كتب الأدب منسوب لسُحيم بن وَثيل نفسه ، كما مرّ بنا ، وكان السياق يقتضي أن ينسبه إليه ، مادام الحديث عن سُحيم نفسه ، وهذا الإغفال من أبي زيد قد يشكك القارىء في صحة نسبة الرجز إليه ، والله أعلم .

٥ - في الفهرست :

وجاء ذكر (سُحيم بن وَثيل) في كتاب (الفهرست) للنديم أو ابن النديم (ت ٣٥٨ هـ) طبعة رضا تجدد ص ١٧٩ في سياق الشعراء الذين عمل أبو سعيد السكري (ت ٢٧٥ هـ) أشعارهم ، وذلك يؤيد ما سبق أن ذكرته من أنه كان له ديوان صغير ، نقلاً عن وفيات الأعيان .

وقد أضاف صاحب الفهرست ، أن كلاً من الأصمعي وابن السكيت قاما أيضاً بصناعة ديوان هذا الشاعر .

---

(١) سورة المجادلة ، ٧ .

٦ - في تاريخ التراث :

وجاء ذكر (سُحيم بن وَثيل) في (تاريخ التراث العربي) للبروفيسور (فؤاد سيزكين) الجزء الثاني من المجلد الثاني ط ٣ ١٤٠٣ هـ / ص ١٦٤ . ومصادره في معظمها هي المصادر التي أوردتها في هذه المقالات ، إلا قليلاً مما لم يتيسر لي الوقوف عليه ، ومن ذلك مرجعان بغير اللغة العربية .

وقد لاحظت على ما ذكره ما يلي :

١- أنه أورد ما قاله ابن دريد في الاشتقاق ١٣٨ على هذا النحو : (عاش أربعين عاماً أو ستين عاماً بعد ظهور الإسلام) . بينما النص في الطبعة التي بين يدي (طبعة الخانجي سنة ١٣٧٨هـ) ص ٢٢٤ يقول : (عاش في الجاهلية أربعين سنة ، وفي الإسلام ستين سنة ، وله عقب في بادية الكوفة) ويبدو أن هناك تطبيعاً ، وسيرد استنتاج المؤلف المستند على مقولة ابن دريد ، فيما بعد .

٢ - وقال : « وأشهر قصائده في الأصمعيات طبعة أولى رقم ٧٦ » . ومما يؤسف له حقاً أنه لم يصل إلينا من شعره إلا القليل ، وأجمل ذلك قصيدة (أنا ابن جلا) ، وهناك قطعة أخرى في الخمريات وردت في البيان والتبيين ٣٤٣/٣ من خمسة أبيات فقط ، وهي أيضاً في عيون الأخبار ٢٥٩/١ .

٣ - وقال عن القصيدة المذكورة : « نظمها وهو مسلم ناهز الخمسين » ، وأحال إلى البيت السابع من القصيدة .

والمعلومة استنتجها الباحث الجليل من قول الشاعر (أخو خمسين) .. على اعتبار ما ذكره ابن دريد من أنه عاش أربعين سنة في

الجاهلية ، فيكون فيما بعدها قد أصبح مسلماً ..

٤ - وذكر أنه مات سنة ٤٠ هـ / ٦٦١ م أو بعد ذلك ، وأرجح أنه مات بعد ذلك ، اعتماداً على الاستنتاج نفسه ، فإن ابن دريد يذكر أنه عاش ستين سنة في الإسلام ، فتكون وفاته نحو سنة ٥٠ هـ ٠ وقد ذهب الزركلي في الأعلام إلى أن وفاته نحو سنة ٦٠هـ = ٦٨٠م ، مضافاً إلى ما ورد في بعض المصادر ، أن له أخباراً مع زياد ابن أبيه ٠

٥ - وقد أجاد المؤلف الفاضل حينما سرد عدداً من المصادر التي رجع إليها ٠

ويمكن أن يضاف إليها : النوادر لأبي زيد ١٥٨ ، والاشتقاق ٢٢٤ - وإن كان قد أشار إليه ، واستند عليه في بحثه ، ولكن لم يرد ضمن بيان المصادر - وشرح شواهد المغني ١/٤٥٩ ، وجاء في هامشه تعداد بعض المصادر المفيدة ، وكذلك في هوامش الأصمعيات عقب الأصمعية الأولى ، وهي التي تخص سُحيم بن وَثيل .. من طبعة دار المعارف ، وفيها تفصيل تنفرد به فيما أحسب ٠

٧ - في معاهد التنصيص :

وجاء في كتاب (معاهد التنصيص على شواهد التلخيص) ، وهو للعباسي المتوفى سنة ٩٦٣ هـ طبعة ١٣٦٧ هـ ، ١/٣٣٩ ، ذكر سُحيم ، حيث أورد بيته (أنا ابن جلا) في شاهد إيجاز الحذف ، حين أراد (أنا ابن الذي جلا) ، وقال : إن البيت من قصيدة من الوافر أولها :

أفاطم قبل بَيْنِك متعيني ومنعك ما سألت كأن تبيني

ثم أورد منها أبياتاً ، وذكر قصيدة الأبيرد ، وابن عمه الأخوص ،

ولكنه أشار إلى قصيدة (المثقب العبدي) التي مطلعها هو (أفاطم قبل .. إلخ) معتمداً على (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، وأورد أبياتها ، ثم قال : « لعل اتفاقهما في المطلع من باب توارد الخواطر » ·

أقول : إن كتب القدامى فيما اطلعت عليه ، لم تنسب لسُحيم ذلك المطلع ، ولم يفت بعضهم الإشارة إلى تداخل بعض أبيات القصيدة مع أبيات المثقب ، ولكن يحسن - في ظني - الاعتماد على رواية الأصمعي في الأصمعيات · وقد وردت القصيدة في (منتهى الطلب) لمحمد بن المبارك بن ميمون البغدادي ، المتوفى في نهاية القرن السادس الهجري في ثلاثة عشر بيتاً كما جاء ذلك في كتاب (قصائد جاهلية نادرة) للدكتور يحيى الجبوري ص ٣١ ، حيث ذكر أنها وردت في الجزء الخامس من المخطوطة ، وعدد أبياتها ١٣ وهي في خزانة الأدب في ثلاثة عشر بيتاً ·

٨ - وفي لسان العرب :

ومما يتصل بالحديث عن (سُحيم بن وَثيل الرياحي) ، أنه ورد في كتاب (معجم الشعراء في لسان العرب) للدكتور (ياسين الأيوبي) وقد اعتمدته في الاهتداء إلى مواطن الشواهد المنسوبة في اللسان إلى هذا الشاعر ، أنه - أعني الدكتور ياسين - نسب إليه شاهدين ليسا له ، في موضع (عسق) وفي موضع (كفى) ..

قال صاحب اللسان في (عسق) :

« فأما قول سُحيم :

فلو كنت ورداً لونه لعسقنني ولكن ربي شانني بسواديا

.. فليس بشيء ، إنما قلَب الشين سيناً لسواده وضعف عبارته عن الشين ، وليس ذلك بلغة إنما هو كاللثغ ، قال محمد بن مكرم : هذا قول ابن سيده ، والعجب منه كونه لم يعتذر عن سائر كلماته بالشين ، وعن شانني في البيت نفسه ، أو يجعلها من عسق به أي لزمه .. إلخ » .

وخلاصة الكلام يدل على أن الشاعر المتحدث عنه هو سُحيم عبد بني الحسحاس وليس سُحيم بن وَثيل الرياحي .. وهو في البيت يصرح بلونه الأسود .. فضلاً عن أن صاحب اللسان لم ينسبه واكتفى بالقرينة .

وفي (كفى) قال صاحب اللسان ما نصه :

« وقوله تعالى : ﴿ وكَفَى بِنا حَاسِبِينَ ﴾ [1] إنما هو كفى الله وكفانا ، كقول سُحيم :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا » .

فهنا أيضاً لم ينسبه ، والشطر من قصيدة مشهورة لسُحيم عبد بني الحسحاس ، وليست لسُحيم بن وَثيل ، ولها قصة مشهورة معروفة في كتب الأدب .. ومطلعها : عميرة ودع إن ترحلت غاديا .. كفى إلخ .

وإني أهدي هذه الملاحظة إلى الدكتور (ياسين الأيوبي) مع إعجابي بجهده الكبير في استخراج (معجم الشعراء) من لسان العرب ، كما أهديها إلى الصديق الفاضل الدكتور (نوري حمودي القيسي) ، الذي كتب بحثاً قيِّماً تعقيباً على (معجم الشعراء) ، عنوانه (التمام على ما جاء في معجم شعراء لسان العرب من أوهام) .

* * *

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٤٧ .

سُحيم بن الأعــــرف
أبو سدرة الهُجَيـمي *

حينما وقفت في كتاب (خزانة الأدب) للبغدادي ج١ ص٢٥٥ عند الشاهد النحوي المعروف : (أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا) ، على ترجمة الشاعر (سُحيم بن وَثيل الرياحي) . ثم تأملت عناية المؤلف بذكر من تسمى بسُحيم من الشعراء ص ٢٦٦ من الجزء نفسه ، وعنَّ لي أن أتتبع أخبار هؤلاء الشعراء ، لأزود قرائي بما أصل إليه منها ، حينما فعلت ذلك وكتبت ماكتبت عن سُحيم بن وَثيل ، فإني أقدم الآن ما تجمع لديّ من أخبار سُحيم بن الأعرف المعروف (بأبي سدرة الهُجَيمي) ، مجتازاً أبعد هؤلاء الشعراء شهرة وهو سُحيم عبد بني الحسحاس ، فإن شهرته تغني عن ذكره هنا ، وله ديوان شعر مطبوع ، وفيه أخباره مع أشعاره ، ذلك أنني في هذه الكناشة ، إنما أحاول أن ألقي أضواء على ما أعتقد أنه مازال في حاجة إلى الأضواء .. أما ما أغنت عنه شهرته فموضعه مظانه .. ونص تعقيب البغدادي ، بعد أن فرغ من ترجمة (سحُيم بن وثَيل) هو :

(وله سَمِيَّان من الشعراء : أحدهما ، سُحيم بن الأعرف ، وهو من بني الهُجَيم ، وكان في الدولة الأموية ، ولم يذكر ابن قتيبة في طبقات الشعراء غير هذا ، وأورد طرفاً من شعره ، والثاني سُحيم عبد بني الحسحاس ، وكان عبداً حبشياً وهو صاحب القصيدة التي أولها :

---

* نشر في العدد (١٠٩) من المجلة العربية ، الصادر في صفر ١٤٠٧هـ = تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٦م .

عميرة ودع إن تجهزت غازيـا   كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

وهو من شواهد (مغني اللبيب) ، وسنذكر إن شاء الله ترجمته في الشاهد الرابع والتسعين .. إلخ) .

وهمش محقق الكتاب الأستاذ (عبد السلام هارون) على قوله : (لم يذكـر ابن قتيبة .. إلخ) فقال : (الحق أن ابن قتيبة ذكر أيضاً سُحيم بن وَثيل الرياحـي في ص ٦٢٦ ، كما ذكر أيضاً عبد بني الحسحاس في ص ٣٦٩ ، ولعل هذا الخلاف راجع إلى نقص في النسخ) .

وأقول تعليقاً على هذا الهامش : إن ابن قتيبة ذكر أيضاً سُحيم بن الأعرف في كتابه (الشعر والشعراء) ص٦٤٢ ، القطعة ١٢٤ .

كما أن البغدادي أحال فيما يختص بترجمته لسُحيم عبد بني الحسحاس إلى الشاهد الرابع والتسعين ، بحيث يسهل على المتتبع أن يعود إليه ، ولم يفعل ذلك بالنسبة إلى سُحيم بن الأعرف ، حتى ليبدو من هذا النص أنه لم يذكره في كتابه ، بينما هو في الواقع قد ذكره في الشاهد التاسع والتسعين وهو قوله :

فقلت له : فاهًا لفيك فإنهـا   قلوص امرىء قاريك ما أنت حاذره

وصمت المحقق الفاضل عن هذا النقص ، فلم يستدركه في الهامش ، وقد ورد في طبعته في ١١٦/٢ ، وجاءت ترجمة الشاعر صاحب الشاهد في ص ١١٩ ، ولكن المحقق لم يضع لها عنواناً في حافة الصفحة ، كما هي عادته كلما جاءت ترجمة .. وهذا أدى إلى سقوط اسم هذا الشاعر من فهرس التراجم الخاص بالجزء ، ولكن طبعة الخزانة الصادرة عن مطبعة بولاق ، أشارت إلى الترجمة في حافة صفحتها ، وأشارت إلى ذلك في فهرس الجزء .

وذكر البغدادي أبيات الشاهد ص ١١٨ وهي :

تحسَّبَ هوّاسٌ وأيقن أنني بها مفتدٍ من واحدٍ لا أغامرُه
ظللْنا معاً جارين نحترس الثأى يسائرني ، من ختله، وأسائره
فقلت له : فاهاً لفيك ، فإنها قلوص امرىء قاريك ما أنت حاذره

وشرح الأبيات ، بما خلاصته ، أن الأسد الذي تعرض له ليفترس ناقته ، أيقن أنه سيفتدي نفسه بها ، فظللنا معاً على حذر من الثأى (أي من الغدر) ، ولكني قلت له : اذهب في داهية (فاها لفيك) أي فم الداهية لفيك) ، فإنني سأقتلك (قاريك ما أنت حاذره) .

ثم ذكر ترجمة الشاعر ، فقال : إنها لأبي سدرة الأعرابي من بني الهجيم بن عمرو بن تميم ، له مقطعات مليحة ، منها قوله في حسان بن سعيد عامل الحجاج على البحرين :

إلى حسَّانَ من أكتاف نجد رحَلْنا العيس تَنفخ في بُراها
نَعُدُّ قرابةً ، ونعد صهراً ويسعد بالقرابة من رعاها
فما جئناك من عُدم ولكنْ يَهشُّ إلى الإمارة من رجاها
وأيا ما أتيتَ فإن نفسي تَعدُّ صلاح نفسك من غناها

ثم قال البغدادي : قال ابن قتيبة في كتاب الشعراء : وفيه وفي قبيلته يقول جرير :

وبنو الهُجيم قبيلة مذمومة صُفرُ اللحى متشابهو الألوانِ
لو يسمعون بأكلة أو شَربة بعُمان ، أصبح جمعهم بعُمانِ

(يريد : أنهم يوقدون البعر فتصفر لحاهم بدخانه .

وهو شاعر إسلامي من معاصري جرير والفرزدق) .

هذا ما قاله البغدادي ، ولي هنا وقفة يسيرة :

فقد ذكر ابن قتيبة هذا الشاعر في الموضع الذي أسلفت الإشارة إليه ، وأورد عنه وعن قبيلته ثلاثة أبيات ، ذكر منها البغدادي بيتين وسكت عن

الثالث . أما جملة (يريد أنهم يوقدون البعر فتصفر لحاهم بدخانه) ، فليست من مقول ابن قتيبة ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، وإنما هي تعليق من البغدادي نفسه .

وانتقد أبو محمد الأعرابي ، وهو الأسود الغندجاني (كان حياً إلى سنة ٤٣٠ هـ) في كتابه (فرحة الأديب) انتقد ابن السيرافي ص ٦٤ ، حيث قال عن أبي سدرة ، إنه أسدي ، وذهب إلى أنه من بني الهجيم بن عمرو بن تميم ، وأن له مقطعات مليحة في كتاب بني الهجيم ، ثم أورد ثلاثة أبيات من قصيدته في حسان سالفة الذكر ، وهي الأبيات الأول والثاني والرابع ، بالإضافة إلى بيته (تحسّب هوّاس ..) وبعده ، (فقلت له .. إلخ) .

أقول : وقد جاء البيت :

ظللنا معاً جارين نحترس الثأى   يسائرني من نطفة وأسائره

في الجزء الأول من (الأمالي) ، لأبي علي القالي ص ٢٣٦ مروياً هكذا ، ولم ينسب لأحد ، وفسره قائلاً :

(وصف سبعاً ، نحترس الثأى ، أي كل واحد منا يخاف صاحبه أن يغدر به ، والثأى : الفساد ، وأصله في الخَرْز ، وهو أن تخرم الخُرْزتان فتصيرا واحدة ، فيتسع الثقب فيفسد ، ثم جُعل مثلاً لكل فساد ، ويسائرني ، من السؤر ، وهي البقية ، أي يَرِدُ قبلي فيشرب ، فيُبقي لي ، وأرد قبله فأُبقي له) .

هذا وقد جاء في القاموس المحيط ، ذكر أبي سحمة راجز جاهلي ، ولكنه لم يذكر شيئاً عمّن حمل اسم (سُحيم) من الشعراء ، ولكن الزبيدي في (تاج العروس) استدرك اسم سُحيم بن وَثيل الرياحي ، وفاته ذكر سُحيم بن الأعرف ، فهو مما يستدرك على المستدرك .

صاحب الشمقمقية ، وأبو الشمقمق *

سألني أحد الإخوان الفضلاء الذين تجمعني بهم مجالس المذاكرة ، ممن أحسن الظن بهم ، ويحسنون الظن بي .. أما أنهم يحسنون الظن بي ، فلأنهم يحسبونني على شيء .. والمتنبي يقول :

أعيذها نظرات منك صادقة أن   تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وأما أنني أحسن الظن بهم ، فلأنني لا أحسب في أسئلتهم تعجيزاً ، أو اختباراً لجهلي ، فأنا أعلم - علم اليقين - أن جهلي ليس له مدى ولا ساحل ..

أقول : سألني أخ فاضل كريم ، عما أعرفه عن صاحب القصيدة (الشمقمقية) ، وقال : إنه يعرف لقبه فقط وهو : (الونان) ، ولكنه لم يجد عنه تعريفاً كافياً فيما رجع إليه من المصادر التي راجع عدداً مما تيسر له منها بحثاً عن ترجمة هذا الشاعر ، فلم يحصل على ما يشفي ، وسرد لي من حفظه بعض القصيدة لعله يوقظ ذاكرتي الخامدة .

وقد أجبته لوقتي ، أنني لا أذكر عن هذا الناظم شيئاً ، وإن كنت قد سمعت بالمنظومة .. وقد وعدته بالبحث في بطون الكتب .. لعل وعسى .. ولعلي أنشر عنه شيئاً في كناشتي كما اقترح .

---

* نشر في العدد (١٣٦) من المجلة العربية ، الصادر في جمادى الأولى ١٤٠٩هـ = كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٨م .

أما وقد وقف على المنظومة ، وهي لديه .. فقد انحصر بحثي عن صاحبها .. وهذا جوابي :

١ - أقول : في معجم المؤلفين للأستاذ (عمر رضا كحالة) ترجم له فقال : « أحمد الونان ١١٨٧ هـ = ١٧٧٣ م : أحمد بن محمد بن محمد ابن الونان الحميري ، الفاسي الدار ، (أبو العباس) ، أديب ، شاعر ، من آثاره : الأرجوزة الشمقمقية ، وتشتمل على كثير من الآداب والحكم ، ولطائف الإشارة لأيام العرب ، ووقائعها ومشاهير رجالها » .

ومراجعهُ كتاب مخطوط هو فهرس المؤلفين بالظاهرية .. ومما طبع : ابن زيدان : أخبار مكناس ٣ : ٣٤٤ - ٣٤٧ ، عبد الله كنون : ابن الونان .

تراجع ص ١٥٥ من الجزء الثاني من معجم المؤلفين طبعة دمشق ١٣٧٦ هـ .

٢ - أما الزركلي في أعلامه ، فيقول عنه في مادة أحمد بن محمد المتوفى سنة ١١٨٧هـ = ١٧٧٣ م :

« أحمد بن محمد بن محمد التواتي الحميري ، أبو العباس ، المعروف بابن الونان ، شاعر ، من أهل فاس ، مولده ووفاته بها ، ينتسب إلى حمير ، كان أجداده من سكان توات في صحراء المغرب ، مما اختطته زناتة ، ثم انتقلوا إلى فاس ، وكان له ولأبيه من قبله اتصال بالمولى محمد بن عبدالله (المتوفى سنة ١٢٠٤) . له نظم كثير فيه هجاء وإقذاع ، وكان يقال لأبيه (أبو الشمقمق) ، فاتصلت به هذه الكنية ، وعرفت قصيدة له بالشمقمقية ، وهي ٢٧٥ بيتاً فيها الغث والسمين ، مدح بها أمير المؤمنين عبد الله بن إسماعيل العلوي ، اشتهرت وشرحها جماعة ، منهم الناصري السلاوي صاحب الاستقصاء ، في مجلدين مطبوعين ، والمكي بن محمد

البطاوري ، سمى شرحه (اقتطاف زهرات الأفنان من دوحة قافية ابن ونان - خ - عندي في مجلدين. وأول القصيدة :

« مهلا على رسلك حادي الأينق ولا تكلفها بما لم تطـــق

« قلت : وفي هذا البيت أربع هنات بينات » أهـ.

هذا ما قاله الزركلي ، وقد سرد مراجعه في الهامش وهي كما يلي :

« اقتطاف زهرات الأفنان ١ :٣٢٤ ، وإتحاف أعلام الناس ٣ : ٣٤٤ وذكريات مشاهير رجال المغرب : الرسالة الخامسة عشرة ، وإتحاف المطالع - خ - والأدب العربي والنصوص ٦ : ٣٩٩ ».

* * *

وشمقمق القرن الثاني عشر الهجري .. أعني الشمقمق الونان يذكرني بأبي الشمقمق ، الشاعر أيضاً ، من شعراء القرن الثاني الهجري ، وبين الشاعرين مسافة زمنية قدرها ألف عام .. ! فقد توفي الأخير نحو سنة ٢٠٠هـ = ٨١٥ م ، واسمه مروان بن محمد ، وهو أيضاً شاعر هجاء ، من أهل البصرة ، أصله من خراسان ، من موالي بني أمية ، هكذا يقول الزركلي عنه في أعلامه ، ويضيف : « له أخبار مع شعراء عصره ، كبشار وأبي العتاهية ، وأبي نواس ، وابن أبي حفصة . وله هجاء في يحيى بن خالد البرمكي وغيره ، وكان عظيم الأنف ، أهرت الشدقين ، منكر المنظر ، زار بغداد في أول خلافة الرشيد العباسي . وكان بشار يعطيه في كل سنة مئتي درهم ، يسميها أبو الشمقمق (جزية) ! قال المبرد : كان أبو الشمقمق ربما لحن ، ويهزل كثيراً ويجد فيكثر صوابه » .

ودلنا الزركلي على مصادره ، ثم قال : « أقول : الشمقمق في اللغة : الطويل أو النشيط ، وفي التركية : شِمَقْمَق بكسر الشين وفتح الميمين مدلل »·

أقول : وقد أفادنا الزركلي بالعربية والتركية .. وضبط الشّمقمق في اللغة العربية بفتح أخت السين .. ولكن هل أطلقت كنية الشمقمق عليه لأنه كان طويلاً أو نشيطاً ؟

رجعت في البحث عن هذا إلى (معجم ألقاب الشعراء) - وهو معجم حديث وضعه الدكتور (سامي مكي العاني) من أدباء العراق المعاصرين - فوجدته يقول عنه : « شاعر عباسي من القرن الثاني) اسمه مروان بن محمد ، لقب بذلك لأنه طويل ، والشّمقمق في اللغة الطويل أو النشيط » · ودلنا في الهامش أن مرجعه المرزباني ٣١٩ ، والقاموس : (شمق) ·

أقول : أما المرزباني .. في معجم الشعراء ص ٣١٩ التي حددها الدكتور العاني ، فلم يقل إنه لقب بأبي الشّمقمق لأنه طويل ، بل قال ما نصه : يكنى أبا محمد ، وأبو الشمقمق لقب ، والشمقمق الطويل ، وهو مولى بني أمية من بخارية عبيدالله بن زياد ، وكان خفيف العثنون ، عظيم الأنف ، أهرت الشدقين ، منكر المنظر .. الخ » ، وليس في جميع ماقاله ما يدل على أنه لقب بأبي الشمقمق لطوله ، وكذلك القاموس اكتفى بأن قال : الشمقمق : الطويل · والنشيط ، ثم قال : « وأبو الشمقمق مروان بن محمد شاعر »·

ولقد خرجنا من كلام المرزباني ، بأن أبا الشّمقمق ، بخاري ، من بخارية عبيد الله بن زياد ، وهو فاتح (بخارى) ، كما علمنا منه أنه هو قائل البيتين المشهورين :

إذا حججت بمال أصلـــه دنس   فما حججت ولكن حجت العيـر

لا يقبل اللـــه إلا كـل طيبـــة   ما كل من حج بيت اللـه مبرور

كما استفدنا من شرح القاموس ، أعني تاج العروس ، أن الشَّمقمق على وزن السفرجل ·

وبعـــد ، فقبـل أن أضع القلـم عن هذه الشمقمقـة التي أحسبهـا قد (طالت) فعلاً ، فقد لفت نظـري هذا التشابـه العجيب بين الشمقـمق القديم ، وبين الونان ابن أبي الشمقمق ، فكلاهما شاعـر ، وكلاهما مكثر ، وكلاهما يضم شعره الجيد والرديء ، وكلاهما هَجَّاء مقذع .. وكأن كليهما قد مسَّه (الشمق) وهو (مرح الجنون) كما في القاموس ·

كما لفت نظري ، أن الجاحظ في (الحيوان) ٢٢٥/١ قـال عن أبي الشمقمق القديم : « هو مروان بن محمد ، مولى مروان بن محمد » ، فهل كان مولى الخليفة الأموي مروان بن محمد ، وتطابقا في الاسم ؟

وشيء آخر : فقد ذكر المرزباني في معجم الشعراء ، شاعرين يحملان اسم مروان بن محمد ، أحدهما أبو الشمقمق ، أما الآخر فهـو مروان بن محمد السَّرُوجـي ، قال عنه إنه من بني أمية ، من أهل سَرُوج بديار مُضَر ، كان شيعياً ، رغم أمويتـه ، وقـال في ذلك - من شعـر أورده المرزباني (٣٢١) ؛ وهذا لم يترجمه الزركلي في أعلامه - :

فلئن كنت من أمية إنـــي   لبريء منهـا إلى الرحمن

وختام الختام ، فقد سردت للأخ السائل كوكبـة من المصادر ، ومصادر المصادر ، فيها غنية للباحث ، ولا يخفاه أن المصادر النادرة التي أشار إليها الزركلي في ترجمة الونان ، مما اقتناه في مكتبته الخاصة لاشك أنها موجودة في مكتبة جامعة الملك سعود ، فالزركلي كما هو معروف أهدى مكتبته إلى جامعة الرياض ، أعني جامعة الملك سعود ، وتدل تعليقات الزركلي في

أعلامه ، أنها مكتبة عامرة بنفائس المطبوعات والمخطوطات ..
وشكراً للسائل الكريم فقد أفادني أفاده الله .

* * *

وبعد أن كتبت ما كتبت آنفاً ، ونشرته في (المجلة العربية) ، في العدد الذي ذكرته في هذه الصفحات تلقيت من الأستاذ (سالم المختار الشنقيطي) من المدينة المنورة (شرح القصيدة الشمقمقية) ، للعلامة الشيخ (عبد الله كنون) يرحمه الله ، هدية منه (أعني من الأستاذ الشنقيطي) ومعها كلمة إهداء بليغة ، هي : (أنه مما يدخل السرور إلى نفسي أن أهدي كتاباً لأشخاص لا تربطني بهم علاقة إلا علاقة التلمذة الروحية ولكنها علاقة يصعب وصفها) ، وقد تناولت موضوع هذا الإهداء وصداقة القارىء للكاتب في كلمة نشرتها في العدد (٦١١٥) من جريدة الجزيرة الصادر في ٢٣ ذي القعدة سنة ١٤٠٩ هـ ، ويكفي هنا .. أن أكرر الشكر للأستاذ الشنقيطي على هديته وعلى كلمته الحميمة ، وأن أقول : إن الكتاب الذي أفضل به ، أمدّني بمعلومات قيمة عن هذه القصيدة ، ولا غرو أن يفعل ذلك العلامة الجليل الشيخ عبد الله كنون ، تغمده الله بفيض رحمته .

* * *

الطالبي .. وعين الرضا *

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   ولكن عين السخط تبدي المساويا

هذا البيت أحفظه للإمام الشافعي ، حتى قرأته أخيراً في كتاب (مناهج التأليف عند العلماء العرب) للدكتور (مصطفى الشكعة) في طبعة ١٩٧٤ م ، ص ٦٧ - منسوباً لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، حيث قال : إنه صاحب البيت المشهور ، وذكره ، ولكنه لم يخبر قراءه عن مصدره . أما الزركلي في الأعلام فقد قال في ترجمته : إنه صاحب البيت المشهور ، ثم سرد مصادر الترجمة في هامش الأعلام .

وقد رجعت إلى ديوان الشافعي ، فوجدته فيه ، أول أربعة أبيات ، ص ١٨٦ من طبعة ١٩٨٢ م ، دار الثقافة بيروت ، جمع زهدي يكن .

فهل هذه الأبيات للشافعي حقاً ؟ مع ما هو معروف بأنه عُزي إليه من الشعر ما عُزي لغيره ؟

إذا عدنا إلى الأغاني لأبي الفرج ٦٣/١١ ط الساسي وجدنا من أصواته :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   ولكن عين السخط تبدي المساويا

---

* نشر في العدد (١١١) من المجلة العربية ، الصادر في ربيع الآخر ١٤٠٧هـ = كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٦م .

وأنت أخي مالم تكن لي حاجة ... فإن عَرَضَتْ فإني لا أخا ليا

وقال : « الشعر لعبد الله بن معاوية بن عبد الله الجعفري ، يقوله للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس ، هكذا ذكر مصعب الزبيري ، وذكر (مؤرِّج) فيما أخبرنا به اليزيدي عن عمه أبي جعفر عن (مؤرِّج) وهو الصحيح أن عبد الله بن معاوية قال هذا الشعر في صديق له يقال له قصي بن ذكوان ، وكان قد عتب عليه ، وأول الشعر :

رأيت قصياً كان شيئاً ملفَّفاً ... فكشَّفه التمحيص حتى بدا ليا

فلا زاد ما بيني وبينك بعدما ... بلوتك في الحاجات إلا تنائيا

بينما يروي الأصفهاني في موضع آخر (١١/٧٢) ، أنه كان صديقاً للحسين المذكور ، ثم دخل بينهما شيء من الأشياء ، فتهاجرا من أجله ، فقال عبد الله بن معاوية :

وإن حسيناً كان شيئاً ملففاً ... فمحَّصه التكشيف حتى بدا ليا

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدي المساويا

وأنت أخي مالم تكن لي حاجة ... فإن عَرَضَتْ أيقنتُ أن لا أخا ليا

وقال بعدها : « وله في الحسين أشعار كلها معاتبات » .

وهكذا يتركنا الأصفهاني في حيرة ، بعد أن صرح أن الصحيح هو أن الأبيات في (قصي) وجاء بالنص على اسمه في صلب البيت ، عاد فأورد اسم الحسين في صلب البيت أيضاً ، وعزز الرواية بأن له في الحسين أشعاراً كلها معاتبات .. أي أن هذه إحداها .

على أي حال فقد ترجح لدي أن البيت لعبد الله بن معاوية الجعفري أو الطالبي .. لما سأذكره بعد ..

والبيت - كما قلت - في ديوان الشافعي ، وهو -كما ذكرت آنفاً - من أبيات أربعة هي :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا
ولست بهياب لمن لا يهابني ولست أرى للمرء مالا يرى ليا
فإن تَدْنُ مني تَدْنُ منك مودتي وإن تَنْأَ عني ، تَلْقَني عنك نائيا
كلانا غنيٌّ عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا

والأمر ليس مقصوراً على بيت واحد ، وإلا لحملناه على التضمين ، فيكون الإمام الشافعي هو الذي ضمن البيت ، فالطالبي هو الأسبق ، لأنه توفي سنة ١٢٩ هـ = ٧٤٦ م ، أما الإمام الشافعي فوفاته كانت سنة ٢٠٤هـ = ٨٢٠ م .

فهناك بيت آخر مشترك هو : (كلانا غني .. إلخ) كما في رواية (الكامل) للمبرد (ت ٢٨٦ هـ = ٨٩٩ م) ، فالقطعة كما أوردها معزوة للطالبي (٢١٢/١ طبعة نهضة مصر) :

رأيت فضيلاً كان شيئاً مُلَفَّفاً فكشَّفه التمحيص حتى بدا ليَا
أأنت أخي مالم تكن لِيَ حاجةٌ فإن عَرَضَتْ أيقنتُ أنْ لا أخا لِيَا
فلا زاد ما بيني وبينك بَعْدَما بَلَوْتُك في الحاجات إلا تماديا
فلستُ براءٍ عيبَ ذي الوُدِّ كُلَّه ولا بعضَ ما فيه إذا كنتُ راضيا
فعينُ الرضا عن كل عيب كليلةٌ ولكنَّ عينَ السُّخط تُبْدي المساويا
كلانا غنيٌّ عن أخيه حياتَهُ ونحن إذا مِتْنَا أشَدُّ تغانيا

ولعل منها أيضاً قوله :

إذا المرءُ أرْعى واستشارك فاجتهد له النُّصْحَ وَأَمُرْهُ بما كُنْتَ آتِيَا

وهو في حماسة البحتري ، وقد ورد فيها منفرداً ، ليس معه غيره (ص ١٧٨ ط ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م) .

ولا يبعد اختلاط شعر الطالبي بغيره ، وخاصة أولئك الشعراء

الذين يميلون إلى الحكمة ، وإسداء النصيحة في قالب شعري ، فهناك ما يعزى إليه ، وإلى صالح عبد القدوس مثل :

إذا كنت في حاجة مرسلاً فأرسل حكيماً ولا توصه

وهي أبيات مشهورة ... فقد جاءت في حماسة البحتري ص ١٣٢ معزوة إلى الطالبي . ومثل :

لسنا وإن أحسابنا كرمت يوماً على الأحساب نتكل

نبني كما كانت أوائلنا تبـ ـني ونفعل مثلما فعلوا

فهما يعزيان للطالبي ، وللمتوكل الليثي ، كما جاء في هامش حماسة أبي تمام تحقيق الدكتور (عبد الله عسيلان)٢/٣٨٥ ، طبعة ١٤٠١ هـ ، وتتعدد الأمثلة .

أما أسباب ترجيحي عزو البيت أو البيتين إلى عبد الله بن معاوية فلأن المصادر القديمة كلها تعزوها إليه ، ولأنه هو الأسبق ، ولأن هذا الشاعر له معاتبات شعرية إخوانية متعددة .. ولأن الشعر ، كما هو في رواية المبرد في الكامل ، وبحسب ما أوردته من قبل ، يوجِّه سياقه في البيت الرابع إلى البيت الخامس ، وهو محور هذا المقال :

فلست بِراءٍ عَيْبَ ذي الودِّ كُلَّـه ولا بعضَ ما فيه إذا كنت راضيا

فعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

فقوله : فلست براء عيب ذي الود ، يفسره البيت الذي بعده .. فهما مرتبطان ببعضهما البعض .

على أننا في غنى عن هذا الاستنتاج ، متى وجدنا نصاً جازماً عن نسبة البيت إلى الطالبي .. فهل هناك مثل هذا النص .. ؟ الجواب : نعم ، فهذا الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) ينص على ذلك في (ثمار القلوب) ص ٣٢٦ ط ١٣٨٤ هـ ، فيقول :

(عين الرضا) : أول من ذكر عين الرضا في شعره (عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب) حيث قال في الفضيل بن سائب ، وأرسل البيت الرابع مثلاً :

رأيت فضيلاً كان شيئاً ملففاً فكشَّفه التمحيص حتى بدا ليا
وأنت أخي مالم تكن لي حاجة فإن عَرَضَتْ أيقنت أن لا أخا
فلست براءٍ عيبَ ذي الودِّ كُلَّه ولا بعضَ ما فيه إذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

إذن فقد جزم الثعالبي أنه له ، كما وضح لنا من هو الفضيل المعني في البيت الأول .

* * *

أما الطالبي ، صاحب هذا الشعر ، فشخصية مثيرة حقاً ، فهو ليس شاعراً فحسب ، بل لقد أورد له الجاحظ نصوصاً من رسائله ، تدل على براعته في البيان النثري ، وأنه كان يتمتع بأسلوب في الكتابة رفيع ، فقد كتب (معاتباً) بعض إخوانه :

« أما بعد ، فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك ، ابتدأتني بلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبتني جفاء عن غير ذنب ، فأطمعني أولك في إخائك ، وأيأسني آخرك من وفائك ، فلا أنا في اليوم مجمع لك اطراحاً ، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة ، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك ، فأقمنا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف .. والسلام » .

ينظر (البيان و التبيين) ٨٤/٢ و٨٥ ، فهناك - أيضاً - نص آخر

مؤثر ، وجّهه لأبي مسلم الخراساني حينما سجنه ، لم يكن له صدى لديه ، بل رمى به ، والتمس الوسيلة لقتله .

ولقد أعجب الدكتور (الشكعة) بأسلوبه الفني ، وعَدّ الطالبيّ واحداً من الرواد الذين روّضوا الكتابة من مرحلة التقعر إلى منهج البساطة ، وعَدَّه مرحلة بذاتها من مراحلها . (مناهج التأليف عند العلماء العرب) ص ٦٥ .

وجدير بالذكر أن موضوع (العتاب الإخواني) ، كان على ما يبدو مستحوذاً على اهتمامه شعراً ونثراً .

وكما أن نثره في مستوى من الجودة رفيع ، فإن شعره أيضاً جيد رائق ، متين السبك ، سائغ العبارة ، ولمن شاء أن يتتبع أخباره وأشعاره ، فإنه يسعه الرجوع إلى المصادر التي ذكرتها ، والتي سأذكرها فيما بعد .. ولكن قبل أن أفعل ذلك لابد من الإشارة إلى أن شخصية الطالبي ، لم تكن شخصية فنية فحسب تقف عند الشعر والنثر ، فقد كان عظيم الطموح ، تطلّع إلى الخلافة ، وحاول الوصول إليها ، واحتل فعلاً بعض المناطق في فارس ، حتى قبض عليه أبو مسلم الخراساني ، وقتله ، كما ذكرت من قبل .

وقد رُوي عن الطالبي أنه كان شديد القسوة ، كما يروى أنه لم يكن على تديّن ، فقد نالت بعض المصادر من استقامته الدينية والخلقية .. (ينظر مقاتل الطالبيين) .

كما لا ينبغي أن تفوتني الإشارة إلى موهبته الخطابية ، فقد قال عنه الجاحظ في (البيان و التبيين) ٣١٢/١ : « وكان شاعراً بيِّناً ، وخطيباً لَسِناً » . وقال في ص ٣٥٣ : « ومن خطباء بني هاشم : زيد بن علي ، وعبد الله بن الحسن ، وعبد الله بن معاوية ، خطباء لا يجارون » .

أما مصادر ترجمته وأخباره ، فيما اطلعت عليه ، فهي : الزركلي في الأعلام ، وقد فاته عند تعداد مصادره ذكر الأغاني ، وهو من أهم المصادر عنه ، والبروفيسور سيزكين في تاريخ التراث العربي ، الجزء الثالث من المجلد الثاني ص ٥٦ ، والدكتور عبد الله عسيلان في تحقيقه لكتاب الحماسة لأبي تمام ٦٠٧/١ في الهامش ، ومقاتل الطالبيين ، لأبي الفرج الأصفهاني ، تحقيق السيد أحمد صقر هامش الصفحة ١٦١ ٠

وقد مرّ بنا أن بعض المصادر تسميه (الطالبي) وبعضها تسميه الجعفري ، كما أن ابن نباتة سماه فى (سرح العيون) الهاشمي ، (ص ٣٤٦ ط ١٣٨٣ هـ) ولا تنافي بينها ٠

بقي أن أطرح سؤالاً : ألم تتجه عناية أحد من المعاصرين لجمع شعر هذا الشاعر ، مع جودته ، وحسن معانيه وألفاظه ؟ والجواب : بلى ، لقد فعل ذلك الأستاذ (عبد الحميد الراضي) من بغداد ، فجمع شعره في كتاب أسماه (شعر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب)، صدر عام ١٣٩٦ هـ عن مؤسسة الرسالة في بيروت - وقد أحسن صنعاً حين فعل ذلك ، ومع عنايته البالغة بالنص على الأبيات التي عُزيت إليه وإلى غيره ، فإنه لم يذكر ، أن بيت (وعين الرضا) عُزيَ إلى الإمام الشافعي ٠

* * *

بين حبابتين *

قال عثمان : زر حبابة بالعرصة ... تحدثْ تحيةً وسلاما
قلت : زرها وأنتِ أمٌّ عدي ... ترتدي ليلةً إلينا الظلاما
ثم نلهو إلى الصباح ولا نقربُ ... في اللهو والحديث حراما
وصفوها فلم أزلْ - علم الله - ... إليها مستولهاً مستهاما
هل عليها في نظرة من جناح ... من فتىً لا يزور إلا لماما ؟
حال فيها الإسلام دون هواه ... فهو يهوى ويرقب الإسلاما
ويميل الهوى به ثم يخشى ... أن يطيع الهوى فيلقى أثاما

هذه الأبيات جميلة .. أليست كذلك ؟ وتشف عن شاعر رقيق ، يعتصم بدينه وتذممه عن التمادي في هواه ، لكي لا يصل به إلى هوة الحرام .

ترى من هو هذا الشاعر الرقيق ، الذي وصف ما تعرض له من صراع نفسي شديد هذا الوصف الرائع ؟

إنه الزبيري عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ، المتوفى سنة ١٨٤ هـ .

---

* نشر في العدد (١١٢) من المجلة العربية ، الصادر في جمادى الأولى ١٤٠٧هـ = كانون الثاني (يناير) ١٩٨٧م .

ولست هنا بسبيل الحديث عنه ، فذلك له مضمار آخر .. ولكن لأمر ما أوردت هذه الأبيات في كناشتي ..

المصدر الذي روى هذا الشعر ، هو كتاب (الموفقيات) أو بالحري (الأخبار الموفقيات) ، وقد جاء هذا الاسم لأن مؤلفه الزبير بن بكار ، ألّفه للموفق بالله ٠

وجدير بالذكر أن المؤلف هو حفيد الشاعر فهو ابن (أبي بكر) أو (البكار) وهذا هو ابن الشاعر ، وكان يكنى به ٠

هذا كله ليس هو الموضوع الذي طرحت من أجله هذه المقدمة ٠ذلك لأني أريد أن أتحدث عن (حبابة) التي استهل بها الشاعر أبياته الرقيقة .. والمهم أن أذكر شيئاً لاحظته في هامش هذه الأبيات ٠

فاتني أن أذكر أن محقق كتاب (الأخبار الموفقيات) هو الأستاذ الدكتور (سامي مكي العاني) ، وقد أحسن صنعاً في إخراج هذا الكتاب الجليل ، وفي تحقيقه ٠

والدكتور سامي من الباحثين العراقيين ، وله في مجال التأليف جهود كثيرة ، تذكر له بالخير والفضل ، وبيني وبينه صداقة أدب وكتب ٠

الأستاذ المحقق ، قال في هامش صفحة ٥١٨ التي وردت بها الأبيات : إن حبابة التي قصدها الشاعر ، هي جارية ابن رمانة ، كانت حلوة ، جميلة الوجه ، ظريفة ، حسنة الغناء ، كانت تسمى (العالية)، ولما اشتراها يزيد بن عبد الملك سماها (حبابة) .. ودل على الأغاني ١٥٤/١٣ ٠

أقول : يبدو جلياً من تعريف الدكتور (سامي) أن هذه الجارية حينما كانت في المدينة كان اسمها (العالية) فهي أيامها ليست (حبابة) ولم تأخذ هذا الاسم إلا بعد أن اشتراها يزيد بن عبدالملك ، وحملت إليه في

دمشق ، فاختص بها ، أو احتكر غناءها ، ولما كانت إقامة الزبيري في المدينة ، فإن من المستبعد أن تكون هي المقصودة .. ولابد أن تكون هناك حبابة أخرى يعنيها الزبيري .

إلى هنا والأمر لا يعدو الشك فقط .. ولابد أن نقطع الشك باليقين .. والأمر سهل .. فقد أورد أبو الفرج في أغانيه أخبار (حبابة) في الجزء ١٣ ص ١٤٨ من طبعة الساسي وهذا ما قاله المحقق الفاضل .. ولكن هذه الصفحات التي أوردها صاحب الأغاني مخصصة لأخبارها ، لم تضم أخبارها جميعها فقد جاءت مبثوثة في مواضع أخرى من الكتاب .

وقد جمع الأستاذ (عمر رضا كحالة) أخبار هذه الجارية في كتابه (أعلام النساء) ، من مصادر متعددة ذكرها ، وأهم ما يعنينا من هذه الأخبار ، أنها شرقت بحبة من رمانة فماتت ، وكان ذلك في مجلس يزيد ابن عبد الملك ، ويؤرخ الزركلي في (الأعلام) وفاتها سنة ١٠٥ هـ = ٧٢٣ م ، فتاريخ موتها يقطع قول كل خطيب ، أي أنها ماتت قبل أن يولد الشاعر بحوالي ست سنوات ، إذا فحبابة الزبيري ، غير حبابة يزيد بن عبد الملك .

* * *

النادي الثقافي الأول *

من الكتب الجيدة التي قرأتها كتاب (مناهج التأليف عند العلماء العرب) للدكتور مصطفى الشكعة .. طبعة سنة ١٩٧٤ م .

ومما استوقف نظري فيه ما جاء في (الفصل الثالث) منه ، الخاص بحركة التدوين في سياق حركة جمع الكتب وإنشاء المكتبات .

قال في ص ٥٤ : « وتتسع الدائرة التي توضح الصورة لنا أكثر فأكثر في نطاق التأليف ، عندما يروي الأصفهاني أن هناك من أنشأ مكتبة عامة ، وأنه قصر قراءها على خاصته ، ووفر لهم الأوراق والأقلام حتى يتيسر لهم النفع والفائدة ، أو بعبارة أدق كان هناك من جعل من بيته نادياً في العصر الأموي ، اشتمل على وسائل الترفيه من شطرنج ونرد ، وجعل من جملة وسائل الترفيه الذهني دفاتر من كل علم ، أي من علوم دينية ، وأخرى دنيوية ، وتيسيراً لمهمة القراء والقصاد ، جعل في الجدار أوتاداً ، فمن جاء زائراً أو قارئاً ، علّق ثيابه على وتد منها ، ثم جَرَّ دفتراً فقرأه ، أو نهض إلى بعض ما يُلعب به فلعب به . إن صاحب هذا المنتدى ، وهذه المكتبة هو : (عبد الحكيم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان) الذي عاش في عصر بني أمية » .

---

* نشر في العدد (١١٠) من المجلة العربية ، الصادر في ربيع الأول ١٤٠٧هـ = تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٦م .

ولما كنت قد قرأت خبر صاحب ذلك المنتدى في كتاب (الأغاني) منذ زمن غير قريب ، وقد كتبت عنه آنذاك ، فيما كتبت من يومياتي في الصحف ، فقد أحببت التعليق على ما ذكره الدكتور الشكعة :

الخبر الخاص بالمنتدى الأدبي الذي أقامه عبد الحكيم بن عمرو في الأغاني ٤/٥١ من طبعة الساسي ، وقد أشار المؤلف إلى ذلك ، مع اضطراب في توزيع أرقام الهوامش لا يخفى على المتأمل فهو من المطبعة .

وراوي الخبر عبد الله بن عمرو الجمحي قال : « كان عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحي ، قد اتخذ بيتاً ، فجعل فيه شطرنجات ونردات وقرقات ، ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار أوتاداً ، فمن جاء علّق ثيابه على وتد منها ، ثم جَرَّ دفتراً فقرأه أو بعض ما يلعب به ، فلعب به مع بعضهم .. » .

وهكذا نرى من الخبر ، أن صاحب المنتدى اسمه عبد الحكم لا عبد الحكيم .. وأنه جمحي .. أي من قريش .

ولم يحدد الدكتور الشكعة البلد الذي أقام فيه منتداه ، وهو حسب سياق الخبر وتتمته في الأغاني ، مكة المكرمة ، إذ جاء في تتمة الخبر ، أن الأحوص لقي عبد الحكم في المسجد الحرام ، وقام يشق المسجد حتى خرج معه من باب الحناطين ، حتى دخل معه بيته ، فعلّق رداءه على وتد ، وحلَّ أزراره واجتر الشطرنج .

وندرك من هذا أن ذلك النادي كان في سوق الحَزْوَرَة (سوق الصغير) أو قريباً منه ، فإن باب الحناطين يفضي إليه ، وإن من المهم في نظري أن يعرف القارىء أين كان مقر ذلك النادي .

هذا عن المكان .. أما عن الزمان فيقول المؤلف الفاضل إنه (في العصر

الأموي) ، وهذا حق ، ولكننا نستطيع أن نقول مطمئنين إنه كان في القرن الهجري الأول ، استنتاجاً من سياق قصة لقاء الأحوص مع عبد الحكم ، فقد تم هذا اللقاء دون تعارف مسبق ، حتى كَشف عن شخصية الأحوص بعد استقراره في النادي ، طرفٌ ثالثٌ هو (الأبجر المغني) ، ويدل الخبر على أن الأحوص كان (فتى عليه ثوبان معصفران مدلوكان ، وعلى أذنه ضغث ريحان ، وعليه رِدعُ الخلوق) ، أي أنه كان متأنقاً جداً .. متطيباً ، شأن الفتيان في ريعان الشباب .. والأحوص - كما هو معروف - هو الشاعر الأنصاري عبد الله بن محمد ، وكانت وفاته سنة ١٠٥ هـ .

ولقد وجدت ترجمة موجزة جداً لعبد الحكم أو عبد الحكيم الجمحي في (جمهرة أنساب العرب) لابن حزم ص ١٦٠ ط ١٣٨٢ هـ قال : (عبد الحكيم ، كان من فتيان قريش ، قد اتخذ بيتاً لإخوانه فيه كتب العلم ، والشطرنجات ، والنرد ، والقرق) .

ونلحظ من السياق أن ابن حزم يعتمد على أبي الفرج في هذا النص ، مما يرجح عندي أن الاسم هو عبد الحكم ، إذا لم يكن هناك تصرف من النساخ .

وإذا كان الشطرنج والنرد ، مما يعرفه الناس ، فإن لفظه القرقات أو القِرق في حاجة إلى تفسير ، وقد تولى ذلك الأستاذ عبد السلام هارون محقق كتاب جمهرة الأنساب ، فقال في الهامش : (لعبة فسرها صاحب القاموس وصنع لها رسماً ، وتشبه ما يسمى في عاميتنا المصرية (السِّيجة) بكسر السين ، وتسمى بالعربية أيضاً (السُّدَّر) وزان (سكر) .

أقول : وقد أدركت البادية في مكة المكرمة يلعبون السيجة .. بل لعلها لعبتهم المفضلة .

وجاء في لسان العرب ، مادة (قرق) : « والقِرْقُ : الذي يُلعَبُ به ؛ عن

كراع ٠التهذيب : والقِرْقُ لعب السُّدَّرِ ٠ والقَرْقُ : صوت الدجاجة إذا حضنت . أبو عمرو : قَرَقَ إذا هذى وقَرَقَ إذا لعب بالسُّدَّر ٠ ومن كلامهم : استوى القِرْقُ فقوموا بنا أي استوينا في اللعب فلم يَقْمُرْ واحد منا صاحبه ، وقيل : القِرْقُ لعبة للصبيان يخطُّون في الأرض خطّاً ويأخذون حصيات فيصُفُّونها ؛ قال ابن أبي الصلت :

وأعلاق الكواكب مرسلاتٌ ، كحَبْل القِرْقِ ، غايتُها النِّصابُ

شبه النجوم بهذه الحصيات التي تُصَفُّ ، وغايتها النصاب أي المَغرب الذي تغرب فيه ٠ أبو إسحاق الحربي في القِرْق الذي جاء في حديث أبي هريرة : إنه كان ربما يراهم يلعبون بالقِرْقُ فلا ينهاهم ؛ قال : القِرْقُ ، بكسر القاف ، لعبة يلعب بها أهل الحجاز وهو خطٌّ مربع ، في وسطه خطّ مربع ، في وسطه خطٌّ مربع ، ثم يخط من كل زاوية من الخط الأول إلى الخط الثالث ، وبين كل زاويتين خط فيصير أربعة وعشرين خطّاً ، وقال أبو إسحاق : هو شيء يلعب به ، قال : وسميت الأربعة عشر » ٠ أ.هـ

وإذا كانت المصادر قد شحَّت علينا بترجمة وافية لعبدالحكم الجمحي ، فإن من السهل أن ندرك أنه كان يتمتع بعقلية نيِّرة جعلته يفكر في إقامة أول نادٍ ومكتبة عامة في بلده ٠

* * *

الشيخ محمد الحافظ *

كلمة قصيرة قرأتها للدكتور الشاعر الأستاذ أسامة عبد الرحمن ، فأعجبتني ، كان ذلك في (الجزيرة) عدد الثلاثاء ٦ جمادى الأولى ١٤٠٤ هـ ، يحيي فيها خاله الشيخ محمد الحافظ .. نثراً ثم شعراً .

ولقد كنت ، منذ زمن أتطلع إلى من يكتب عن شيخنا الحافظ ، ويتكلم عن علمه وأدبه ، وعنايته بالتاريخ وخاصة تاريخ المدينة المنورة ، التي أحبها من كل قلبه ، وسكنها واستطاب الحياة بها .. ولا يكاد يفارقها إلا وهو على شوق شديد إليها .

حقاً لقد تحدث عنه بعض أحبته ، وبعض طلبته ، كصديقنا الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين .. ولكني لازلت أتطلع إلى من يكتب عنه المزيد ، فإن هناك جوانب لاتزال مجهولة في هذه الشخصية الثرّة ، التي تعدد عطاؤها ، وتعددت ميزاتها .

ولقد سررت بما كتبه عنه الدكتور أسامة ، فهو جدير بأن يجلو تلك الجوانب ، فهو قريب إليه ، وقريب منه .. أعني قرابة الرحم فهو خاله ، وقرابة الأدب .. فكلاهما شاعر ، وكلاهما كاتب .. أديب .

والدكتور (أسامة عبد الرحمن) ورث الشعر عن أبيه أيضاً ، فقد كان أبوه الشيخ عبد الرحمن عثمان رحمه الله شاعراً ، وجاء من أبنائه أكثر من

---

* نشر في العدد (٨١) من المجلة العربية ، الصادر في شوال ١٤٠٤هـ = تموز (يوليو) ١٩٨٤.

شاعر ، فهناك غير الدكتور أسامة ، الأستاذ الصديق أنس عثمان ، شقيقه ، وله ديوان مطبوع هو (الموانىء التي أبحرت)، وله أو لهما على ما أعلم شقيق ثالث شاعر أيضاً ، يبدو أنه عزوف عن نشر شعره ..

ولكي لا يبتعد الحديث عن خالهم الشيخ (محمد الحافظ) أعود لأقول إنني سررت بما كتبه أخيراً الدكتور أسامة ، لأنه ترجم له ترجمة جيدة ، على اختصارها ، وهي إلى ذلك تصدر عن ثقة ، إذ هو من أعرف الناس بالمترجم له ·

والشيخ الحافظ بطبعه أديب ، وفيه أحاسيس الشاعر ، وهو ذو اطلاع واسع على تاريخ الأدب العربي .. وخاصة الحقبة الأموية منه ، ويحفظ من الشعر القديم الشيء الكثير ، فهو حافظ كاسمه .. بل هو راوية تتدفق حافظته تدفقاً ، كما تتدفق الأمواه من منحدر عال ، فلا عجب أن رأيته يهدر بالكلام هدراً .. فإن الكلمات تزدحم على شفتيه ازدحاماً .. وهو حريص على أن يبث علمه لطالبيه ، وأن يدلهم على مظان البحث لعاشقي البحث .. وذلك دأبه منذ كان يعمل في التدريس بمدرسة العلوم الشرعية ، وظل ذلك دأبه ·

ولكم تمنيت أن يظل هذا الرجل مدرساً .. وألا يشتغل بمناصب أخرى .. وإذن لكان له في التدريس مجال واسع ، بل أي مجال ، ولكان له اليوم من طلابه العدد الكبير .. ولانداحت دائرة الاستفادة من علمه وأدبه إلى أوسع نطاق ممكن .. ولعل ذلك كان يحثه على التأليف ·

وها نحن نرى أن الدكتور أسامة عبد الرحمن ، لم يذكره في كلمته لمجرد أنه خاله ، بل لأنه كان أيضاً مدرسه في مدرسة العلوم الشرعية ·

ولا يكاد شيخنا الحافظ ينشر شيئاً من شعره وأدبه وفكره .. فهو عزوف عن النشر ، بل أحسبه عزوفاً حتى عن التدوين ·

ولقد أحسن صنعاً تلميذه الوفي الصديق الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين ،

رئيس النادي الأدبي بجدة ، حينما احتفى بأستاذه الشيخ محمد الحافظ ضمن نشاط النادي . ولقد علمت أن الاحتفال به كان مشهوداً ، وأن المحتفى به تألّق بعلمه الغزير ، وحفظه الواسع ، وحديثه الممتع .. وأنه بهر الحاضرين بحديثه ، وأدركوا أنهم أمام أديب فذٍّ نادر المثال ، لم يكونوا يعرفون عنه من قبل هذا التدفق ، وهذه الأصالة .. وكأنهم اكتشفوا فيه منجماً للذهب الصافي .. ولا عجب أن يسود هذا الشعور بينهم فإن الأستاذ الحافظ يؤثر الانزواء ، ويتجنب الأضواء ، ولا يكاد يعرف فضله ونبله وواسع علمه واطلاعه إلا الوسط الثقافي بالمدينة المنورة ، ونادراً ما تجاوزت شهرته هذا الوسط .

ولقد وقفتُ على بعض ما دار في الحفل الذي أقامه النادي الأدبي بجدة ، برئاسة الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين رئيس النادي ، فعلمت أن الأستاذ الحافظ من مواليد عام ١٣٣٥ هـ . وهو من أهالي مدينة رابغ ، ونشأ في المدينة المنورة ، وتخرج من مدرسة العلوم الشرعية ، وكان فيها متفوقاً .. ثم عمل بها مدرساً ، كما درس في المسجد النبوي الشريف ، ثم اشتغل بالقضاء حتى تقاعده ..

وقد سجل شكري القوتلي في زيارة له لمدرسة العلوم الشرعية شهادة قال فيها : إنه حينما زار المدرسة قبل عام رأى طالباً نجيباً في السنة الثالثة لفت نظره بنباهته ، فلما عاد السنة رآه أستاذاً ناجحاً .

قال ذلك الأستاذ أمين عبد الله ، أحد طلبته ، ثم أحد أصدقائه ، كما قال : « إن الأستاذ عبد اللطيف أبا السمح ، كان ينشر شعره في مجلة الفتح ، فكان الأستاذ محمد الحافظ حين يسمع قصائده يحفظها من أول مرة .. وإن مثل هذه الذاكرة الواعية القوية وإن كانت معروفة إلى عهد قريب ، إلا أنها تكاد تنقرض » .

كما قال إنه علم من سيرته : « أنه كان يساعد فقراء الطلبة ويمدُّهم

بالنقود ، ولا يعلم كيف كان يتسنى له ذلك ! » .

للتاريخ أذكر أن حفل النادي الأدبي بجدة كان في غرة شهر جمادى الآخرة عام ١٤٠٤ هـ ، ويؤسفني أنني لم أشهده لغيابي خارج البلاد .

وللتاريخ - أيضاً - أذكر ، أن الدكتور (أسامة) حيًّا خاله بهذه القصيدة الرائعة ، حينما اهتم النادي الأدبي بجدة بتكريمه فكانت عنواناً رائعاً للبر والوفاء ، وإني لأعد هذه القصيدة من عيون أدب العصر ؛ واذا حُق للشاعر أن يفخر بخاله الفذّ فإن من حق الخال أن يفخر بابن أخته الشاعر النابغة :

مثـــال

مثل .. وكم تتألق الأمثال ... ولها تشد من الشغاف .. رحال

لا تصنع الأمثال .. دون عزيمة ... يطوي بها كل الصعاب .. رجال

كم في الزمان .. يمر يوم كريهة ... ما خاف خوض غمارها .. الأبطال

إن الحياة لكل أرباب الحجى ... مثل المعارك .. صولة ونضال

شقوا إلى المجد الطريق .. وإن تكن ... قد أوصدت باب الطريق .. جبال

ومشوا .. وما حالت قفار دونهم ... فيها تلظت كالسعير رمال

ومشوا .. وما في رحلهم لو قطرة ... والأفق .. مافي الأفق إلا الآل

الهمة الشماء تصنع غيمة ... منها إذا عبروا القفار ظلال

والهمة الشماء تصنع غيمة ... ينساب منها الماء .. وهو زلال

أكبرت فيك عزيمة جبارة ... قاموسها .. ما مر فيه محال

كم للعزيمة .. حين يصدق عزمها ... رغم النوائب .. تذعن الآمال

وعجبت .. كم لك من مجال خضته ... حتى كأن لم يبق بعد .. مجال

السيرة العصماء .. بين سطورها مثل الشذى .. ما سفت الأقوال
والسيرة العصماء .. تنطق دائماً من غير جعجعة .. بها الأفعال
العلم ليس شهادة مكتوبة حتى الجهول بوهجها يختال
العلم سعي للحقيقة دائب يهوي ظلام .. دونه وضلال
والعلم بذل النفس فوق صحائف والليل بين سطورها يغتال
والعلم تضحية .. شهادته سنا من عند مدرسة الحياة .. تنال

* * *

بوركت من مثل .. وكل خصاله نبل .. وكم تغني النبيل .. خصال
وإذا ضربت لنا المثال .. فإنما في عالم .. قد عزَّ فيه مثال
أنا ما طرقت الفخر .. لكن أحرفي هتفت .. مفاخرة .. بأنك خال

* * *

شوقي والعقاد *

حمل العقاد على شوقي في بدء حياته الأدبية ، وهاجمه هجوماً عنيفاً ، ومعه المازني وشكري ، وكانوا كلهم شباناً في مطلع بداياتهم الأدبية .. ونشروا هجومهم في الكتاب الذي أصبح فيما بعد مشهوراً وهو (الديوان) ، وعدّه بعضهم مدرسة في النقد أو في الأدب ، فسموها (مدرسة الديوان) .

وظل العقاد متشبثاً بموقفه من شوقي .. فقد عُرف عنه عنادُه وثباتُه على آرائه ، مهما يكن في رأيه من خطأ .

والذين أعجبوا بالعقاد ، وأحبوه ، وتعصبوا له ، أخذوا مواقفه كلها وآراءه جميعها وتعصبوا لها ، بغض النظر عن نسبة الخطأ أو الصواب فيها .. وأخذوا فيما أخذوا عنه خصومته لشوقي ، وتهوينه من شعره ومكانته .

وجاء من النقاد الذين تتبعوا مواقف العقاد من شوقي ، من قال : إن العقاد رجع عن رأيه في شوقي ، واعترف بمكانته وما تسنم من مجد في عالم الشعر . ولكن بدا لي أن الأمر كان في حاجة إلى دليل قاطع .. وإن كنت في أغوار نفسي ميالاً إلى الاعتقاد بأن العقاد حري أن يرجع عن رأيه حقاً ، فهو رجل راجح العقل .. يزن أمور الفكر بميزان دقيق ، ومع ذلك .. يظل من

---

* نشر في العدد (٨٠) من المجلة العربية ، الصادر في رمضان ١٤٠٤هـ = حزيران (يونيو) ١٩٨٤م

الأهمية بمكان كبير أن نعثر على الدليل .

وجاء الدليل أخيراً في عدد جريدة الأهرام ، الصادر في ١٣/٣/ ١٩٨٤م في ركن (دنيا الثقافة) ، خلال مقال نشره الأستاذ الشاعر(فاروق جويدة) بعنوان (العقاد في ذكراه العشرين اختار لنفسه أن يكون عظيماً) جاء على صورة وثيقة مكتوبة بخط العقاد نفسه ، وبعنوان « أحمد شوقي ورأي لم ينشر للعقاد » .

ماذا قال العقاد عن شوقي في هذه الوثيقة ؟ :

« ومهما تتعدد الآراء والأذواق في النظر إلى شعر النماذج ، فلا بد له من صفحة باقية في كل أدب ، وكل لغة ، وصفحته الباقية في اللغة العربية مقرونة باسم « شوقي » في الأدب الحديث ، ويجدد ذكراها وتجدد ذكراه ، ويقوم عليها حقه في البقاء ويتردد حولها صوته وصداه » .

عباس محمود العقاد ..

والمدقق في هذا النص ، يجد أن العقاد لم يكن من السهل عليه أن يتراجع عن رأيه في شوقي ، بشكل صريح ، فالتمس أسلوباً موارباً يقول فيه إن (شوقي) فرض نفسه على الشعر في تاريخه الحديث ، بغض النظر عن رأيه هو فيه .. ولكن مادام شوقي قد فرض نفسه .. فمعناه أنه قد حاز إعجاب الأغلبية المتذوقة .. وهي الأغلبية نفسها التي اعترفت بتفوق العقاد أيضاً كاتباً وناقداً وأديباً كبيراً .. [١] .

* * *

---

(١) عقّب الأستاذ عامر العقاد على مقالي هذا بمقال ، يأتي في الصفحة التالية .

بين الرفاعي والعقاد وشوقي
كلمة في إثر كلمات

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ عامر العقاد - وهو ابن شقيق العقاد - مقالاً في العدد الواحد والسبعين من « الأربعاء » الصادر في ١٤٠٤/١٠/٦هـ، عقّب فيه على مقالي السابق قال فيه - بعد المقدمة :

.. وقد اطلعت منذ أيام على العدد الأخير من المجلة العربية والذي يحمل رقم (٨٠) على موضوع لأستاذنا الرفاعي تحت عنوان " شوقي والعقاد " .

وحينما يكتب الأستاذ الرفاعي عن شوقي والعقاد فإنني أقرأ ما يكتبه باهتمام بالغ .. ذلك لأن الرفاعي قد اشتهر في كل كتاباته بالدقة والتحري وإعمال العقل ؛ هذا من ناحية ، أما الأخرى فإن الحديث عن موقف العقاد ومدرسته الأدبية من شوقي ومذهبه الشعري من موضوعات الساعة ، ومن الموضوعات التي لا يزال الحديث عنها يدور بين الفينة والأخرى عبر صفحات الصحف وكتابات المشتغلين بالحركة النقدية من أساتذة الجامعة في بلادنا . هذا إلى جانب أن العديد من النقاد يعرضون في دراساتهم الحديثة لتلك المواقف ويصدرون أحكامهم التي يجيء معظمها بمقولةٍ واحدة هي أن العقاد كان متحاملاً على شوقي وأن حملته النقدية في مواجهة شوقي لم تكن سوى نوعٍ من السباب أو الهجاء اللفظي .

وأصحاب تلك الآراء هم الذين يحكمون على العقاد ودعوته الشعرية

الجديدة دون قراءة أو مراجعة ، هذا مع التجاوز عن قصور مقدرتهم من ناحية الجلد والاستقصاء قبل إصدار أمثال تلك الأحكام التي تتصف غالباً بالعجلة وعدم التروي ٠

وهناك فئة أخرى ممن يُطلقون على أنفسهم لقب « النُّقّاد » في السنوات الأخيرة فيستبيحون لأنفسهم أن يُسَوِّدوا الصفحات وينشروها على الناس تحت دعوات النقد والتقييم .. وليست هي بنقد أو تقييم ، ولا تقف على ساق أو حتى تستند على ذراع ٠

ومن آخر تلك الآراء الفجة فيما يتعلق بموقف العقاد النقدي وجماعته من ناحية شوقي وشعره ما قال به واحد من أساتذة الجامعة الذين شاءت الأقدار أن يخلى بينه وبين مقاعد الأساتذة ويوكل إليه أمر تعليم الأبناء بالجامعة في بلادنا ٠ يقول ذلك الأستاذ في صفحة من كتابه الذي أداره عن « تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر » وهو في معرض الحديث عن كتاب « الديوان » الذي أصدره العقاد والمازني في عام ١٩٢١م : إنه قد فهم من مقدمته أنهما - أي العقاد والمازني - كانا يدوران حول الحاجة إلى المال ، وحول عطاء شوقي .. فهما كانا يريدان ندى كفه لا أكثر ولا أقل .. وهذا وحده هو الذي كان دافعاً لهما على شن تلك الحملة النقدية على أمير الشعراء ٠

وفي موضع آخر من الكتاب يقول الأستاذ نفسه عن كتاب « الديوان »: إن العقاد والمازني قد ابتدأا تأليفه ، وبعد أن صدر الجزء الأول والثاني كَفَّا عن الكتابة وسكتا عن التأليف ٠

وبالطبع إن أستاذنا الرفاعي يُقِرُّنا على أن مثل تلك الأحكام والآراء التي يلقي بها أصحابها في المسيرة الأدبية المعاصرة مما لا يستحق منا أو من غيرنا عناء الرد أو المناقشة ٠ ذلك لأن تهافتها ظاهر للعيان وغير العيان ٠

أما ما عَقَّب عليه أستاذنا الرفاعي - بمناسبة ما كتبه الشاعر المصري فاروق جويدة على صفحات الأهرام القاهرية بعددها الصادر في ١٩٨٤/٣/١٣م بمناسبة الذكرى العشرين على رحيل العقاد - بقوله على صفحات المجلة العربية :

« جاء من النُّقَّاد الذين تتبعوا مواقف العقاد من شوقي من قال : إن العقاد رجع عن رأيه في شوقي ، واعترف بمكانته وما تسنم من مجد في عالم الشعر .. وقد بدا لي أن الأمر كان في حاجة إلى دليل قاطع .. وجاء الدليل أخيراً في عدد الأهرام .. جاء على صورة وثيقة مكتوبة بخط العقاد نفسه وبعنوان (أحمد شوقي ورأي لم ينشر للعقاد) ؛ ثم أورد الأستاذ الرفاعي الفقرة التي تضمنتها الوثيقة بخط العقاد على أنها لم تنشر من قبل حسب كلام الشاعر المصري كاتب المقال على صفحات الأهرام .

ويبدو لنا أن تلك الوثيقة التي زعم الكاتب أنها تنشر لأول مرة هي التي دفعت بأستاذنا الرفاعي إلى أن يذهب في القول إلى أن العقاد حري أن يرجع عن رأيه السابق في شوقي وشعره .

ورَدُّنا على أستاذنا الشيخ أن الذي يسجل في كتاباته أن أحمد شوقي قد ارتفع بشعر الصنعة إلى ذروته ، وهبط بشعر الشخصية إلى حيث لا تتبين لمحة من الملامح ولا قسمة من القسمات التي يتميز بها إنسان بين سائر الناس .

وحتى شعر الصنعة عند شوقي في رأي العقاد من كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي » ليس على نهج واحد ، فمنه ما هو زيف فارغ لا يمت إلى الطبيعة .. ومنه ما هو قريب إلى الطبيعة ولكنه منقول من اللفظ الشائع بين الناس .. فليس فيه دليل على شخصية القائل ولا على طبعه ، لأنه أشبه شيء بالوجوه المستعارة التي فيها كل ما في وجوه الناس .. وليس فيها وجه إنسان » .

فهل من المعقول أو حتى المستساغ أن صاحب هذا الرأي المنشور والمتداول في شعر شوقي يمكنه أن يرجع عنه صراحة أو حتى بالتماس أسلوب المواربة ؟ ! فالعقاد يا أستاذنا الرفاعي ليس في حاجة إلى المواربة !! لأن من يعرف العقاد معرفة جيدة لا يصعب عليه أن يحكم وهو مطمئن أنه ظل على رأيه في شوقي وشعره حتى فارق الدنيا قبل عشرين عاماً خلت ، ولو مُدَّ له في العمر لظل عليه حتى يرث الله الأرض ومن عليها ...

أما زعم الكاتب الشاعر جويدة أنها وثيقة تنشر لأول مرة فهو زعم خاطىء قد جانبه الصواب .. لأن الفقرة التي نشرت بالأهرام على زعم أنها لم يسبق نشرها قد سبق نشرها ولا تزال تُتداول بين أيدي القراء ناهيك عن الأدباء والنقاد ، وقد ألقى العقاد هذه الكلمة كاملة بمهرجان المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب في عام ١٩٥٨م ، والذي أقيم لأحمد شوقي بقصر النيل الشهير الذي أحيل مع سنوات الثورة الأولى إلى فندق النيل .. وقد شرفت يومذاك بحضوره مع من حضر ، وقد مثل السعودية فيه الشاعر الراحل فؤاد شاكر صديق أستاذنا الرفاعي .

ويمكن للأستاذ الرفاعي مراجعة كلمة العقاد كاملة بما فيها الفقرة التي استلها الشاعر جويدة ونشرها مع مقاله بالأهرام زاعماً أنها تنشر لأول مرة . فالكلمة العقادية وغيرها من الكلمات والقصائد نشرت بكتاب المجلس الأعلى الدوري الذي نشر تحت عنوان « مهرجان أحمد شوقي » في عام ١٩٥٨ .

إن من يطالع كلمة العقاد كاملة وليست مبتورة يجد أنه لم يتراجع قيد أنملة عن سابق آرائه في شوقي وشعره .. وهي نفس الآراء التي ضمنها كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي » .

فالفقرة السابقة مباشرة للفقرة التي زعم الأهرام أنها لم يسبق نشرها يقول

العقاد فيها وقبل سطور منها ما ننقله للقراء بالحرف الواحد : « لقد وجد شعر النماذج في شوقي رسوله المبين .. بل خاتم رسله أجمعين .. فأبطاله من الممدوحين والمرثيين طراز في مراتب المجد التي يرتضيها السمت والهيبة ، وفضائلُ الأخلاق في قصائده هي الفضائل التي اصطلح عليها العرف وتتابعت بها معايير الحمد والثناء .. وعواطف الإنسان هي العواطف التي رسمتها لنا تقاليد الزمن في أحوال المحبين أو الطامحين أو آداب الآباء والبنين » .

وحتى أوجه الخلاف التي كانت بينه وبين شوقي ومذهبه في الشعر فإن العقاد لم ير حرجاً يومذاك من الإشارة إلى جوهرها وإن آثر عدم الإشارة إلى ماعداها من الأسباب التي أدت حينذاك إلى تلك الأنواع من التجريح والكيد . فقرر في شجاعة وبلا مواربة أن الخلاف كان يدور بينهما على أمرين :

يرجع أحدهما إلى النظم والتركيب ؛ وخلاصته كما لا يخفى على أستاذنا الرفاعي أن القصيدة هي وحدة الشعر ، وأنها خليقة من أجل هذا أن تكون بنية حية متماسكة .

والآخر يرجع إلى لباب الفن في الشعر كما يرجع إليه في سائر الفنون من تصوير ونحت وموسيقى وغناء وتمثيل .. وخلاصته « أن الشعر تعبير عن النفس الإنسانية في الطبيعة وفي الحياة وليس بالتعبير عنها كما يحيكها لنا العرف في جملته .

وختم العقاد تلك الكلمة بقوله : إن خلود شوقي سيظل مقروناً بصفحة شعر النماذج في أدبنا العربي الحديث يجدد ذكراها وتجدد هي الأخرى ذكراه ويقوم حولها حقه في البقاء » .

خلاصة القول التي نضعها بين يدي أستاذنا الرفاعي أن العقاد لم يرجع عن رأيه الأصلي والأول .. وما كان له أن يرجع عنه ، وهو مما يشكّل في الحركة

النقدية دوره الأساسي في إرساء التجديد الشعري .. وربما كان ذلك وغيره مما دفع بمفكر كبير كميخائيل نعيمة أن يقول في ذلك الوقت في إحدى صفحات « غرباله » :

« وعلى هذا المحك الصادق راح العقاد يحك طائفة من قصائد شوقي .. فما انتهى من حكها حتى تركها كوماً من الصدور والأعجاز مفككة الأوصال متنافرة الألوان والمعاني يابسة القلب مكفهرة الوجه ، وقد فعل ذلك بمهارة لاشك في أنها قد سببت لشوقي وعُشّاق شوقي ألف غصة وغصة .. » .

عامر العقـــــاد

* * *

وقد اطلعت فيما بعد على تعليق للأستاذ (عبدالمجيد شبكشي) ، على ما نشرته في هذا الصدد ، جاء فيه ما نصه :

هل عدل العقاد عن رأيه في شوقي؟ *

لا يزال الحديث موصولاً عن شوقي ومكانته في الشعر العربي ، فقد أشار الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي في عدد رمضان من المجلة العربية إلى أن العقاد قال عن شوقي في وثيقة نشرها الأستاذ فاروق جويدة مؤخراً في جريدة الأهرام : « مهما تتعدد الآراء والأذواق في النظر إلى شعر النماذج فلا بد له من صفحة باقية في كل أدب وكل لغة ، وصفحته الباقية في اللغة العربية مقرونة باسم

---

* نشر في العدد الرابع والسبعين من الأربعاء ، الصادر في ١٤٠٤/١٠/٢٦هـ .

شوقي في الأدب الحديث يجدد ذكراها وتجدد ذكراه ويقوم عليها حقه في البقاء ويتردد حولها صوته وصداه » .

واستدل الأستاذ الرفاعي من هذا النص على أن العقاد (لم يكن من السهل عليه أن يتراجع عن رأيه في شوقي بشكل صريح فالتمس أسلوباً موارباً يقول فيه إن « شوقي » فرض نفسه على الشعر في تاريخه الحديث بغض النظر عن رأيه هو فيه .. الخ) .

وقد عقَّب الأستاذ عامر العقاد في العدد الصادر بتاريخ ٦ شوال ١٤٠٤هـ من أربعاء المدينة المنورة - فأكد أن (عمه) الأستاذ العقاد لم يرجع عن رأيه الأصلي والأول ، وأن الفقرة التي نشرها الأستاذ جويدة مبتورة من أصل كلمة العقاد في المهرجان الذي أقيم لشوقي في عام ١٩٥٨م .

وأضاف الأستاذ عامر : (إن من يطالع كلمة العقاد كاملة وليست مبتورة يجد أنه لم يتراجع قيد أنملة عن سابق آرائه في شوقي وشعره) .

وأذكر أن مجلة (الكاتب) قد أصدرت في ذي القعدة عام ١٣٦٦هـ عدداً خاصاً بذكرى الشاعرين الكبيرين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم لمرور خمسة عشر عاماً حينذاك على وفاتهما .

وقد سألت المجلة العقاد هل غَيَّر الزمن من رأيه في شعر شوقي وحافظ ؟ فأجاب على سؤالها بمقال جاء فيه : (إن رأيه في شعرهما لم يتغير كثيراً عما أبداه منذ نيف وثلاثين سنة ، ولكنه يرجع فيهما إلى مقاييس أعم وأوسع من المقاييس التي كان يرجع إليها يومذاك وفاقاً لما اختبره واطلع عليه طوال تلك السنين) .

ثم بعد ما أشار إلى المقاييس التي عناها قال : (إن حافظاً أشعر ولكن شوقياً أقدر وهو أذكى وأعلم وأصنع) .

واستطرد العقاد بعد ذلك إلى القول : (اختلف النقاد في المقابلة بين الشاعرين وبين شعراء العربية أو الشرق المتقدمين ، فشوقي نفسه يتشبه بأبي نواس ويسمي بيته كرمة ابن هانئ ، ويقول في بعض شعره :« وإني نواس هذا الزمان » ، ومن النقاد من يقرن بينه وبين المتنبي لولوعه بالحكمة وتسيير الأمثال ، ومنهم من يقرن بينه وبين البحتري لسلاسة النظم وطلاوة اللفظ وحلاوة الأسلوب ولا سيما بعد أن نظم شوقي سينيته التي يعارض بها سينية البحتري في الإيوان ·

ثم مضى العقاد يرد على ما قاله النقاد عن المقارنة بين شوقي ومن أشير إليهم من الشعراء ويخلص إلى القول بأن (مقطع الرأي في شوقي وحافظ أنهما كانا ولا يزالان يستويان على أرفع القمم العالية بين نهاية التقليد وبداية التجديد وأن ما نقص منهما في الجديد .. تقابله زيادة في القديم) ·

وكانت مجلة الهلال قد أصدرت في اكتوبر عام ١٩٨٢م عدداً ضمّنت جزءاً منه خاصاً بذكرى مرور خمسين عاماً على وفاة الشاعرين الكبيرين ·

وقد كتب الأستاذ أنور الجندي مقالاً في هذا العدد بعنوان : (ماذا بقي من أمير الشعراء بعد خمسين عاماً ؟) وجاء فيه أن طه حسين والعقاد هاجما شعر شوقي ولكنه ثبت للزمن ولاتزال آثاره تؤكد قدرته على الثبات بعد ذلك قروناً ·

وأضاف الأستاذ الجندي أن معظم نقاد شوقي وفي مقدمتهم المازني والعقاد وطه حسين قد غيروا رأيهم فيه بعد أن توفي ·

ويستطرد إلى القول بأن العقاد قد عدل عن رأيه في شوقي فقال بعد وفاته :

(هو إمام مدرسة نستطيع أن نسميها بمدرسة التقليد المبتكر أو التقليد

المستقل ، لم يكن شوقي من المقلدين الآليين الذين يلتزمون حدود المحاكاة الشكلية ولا يزيدون ، ولم يكن مع المجددين الذين يعطون من عندهم كل ما أعطوه من معنى وتعبير ، ولكنه كان يقلد ويتصرف ، وكان تصرفه يخرجه من زمرة الناقلين الناسخين ولكنه لا يسلكه في عداد المبدعين الذين تنطبع لهم ملامح نفس مميزة على كل ما صاغوه من منظوم أو منثور ، فهو قد نشط بالشعر من جمود الصيغ المطروقة والمعاني المكررة ولكنه لم يستطع أن ينتقل به من شعر القوالب العامة إلى شعر الشخصية الخاصة التي لا تخفى معالمها ولا تلتبس بغيرها .

وخلاصة القول فيه أنه مقلد مبتكر ، أو أنه مبتكر مقلد ، فلا هو يكتفي آثار الأقدمين ولا هو ينفرد بملامحه الشخصية في التعبير عن نفسه أو التعبير عن سواه) .

وبعد فإن كان فيما نُقل عن العقاد ما يمثل عدولاً عن رأيه في شوقي أم لا فقد (أمتع شوقي بشعره أجيالاً من العرب وكان مرآة صادقة لعصره) كما أكد ذلك الدكتور طه حسين .

ورحم الله هؤلاء الأعلام ممن بلغوا القمة بما أثروا به المكتبة العربية فأخذت عنهم وتعلمت منهم واقتدت بهم أجيال من العرب ستظل تفرد لهم صفحات من تاريخ أدبنا المعاصر .

* * *



هكذا عرفتهم *

هذا عنوان كتاب للأديب الأستاذ (جعفر الخليلي) رحمه الله ، صدرت منه عدة أجزاء تحدَّث فيها عن الأدباء الذين اجتمع بهم ، أو راسلهم ، وانعقدت بينه وبينهم صداقة .. عبر البريد ، أو خلال اللقاءات المتكررة .

ولم أقرأ من الأجزاء المتعددة التي صدرت إلا الجزء السادس .. قرأته بعد أن بلغني نبأ وفاته رحمه الله .. [1] وكانت بيني وبينه مراسلة طفيفة جاءت في أخريات أيامه ، حينما أخذ يشكو الشيخوخة والمرض .

وقد أفضل بإهداء هذا الجزء إليّ ، فوضعته بين ما أضع في برنامج مطالعاتي .. وما أكثر ما أضع في هذا البرنامج وما أقل ما أقرأ منه . ولكن عندما بلغني نعي هذا الأديب الذي عُني بأخبار الأدباء ، جعلت كتابه في أول البرنامج ، لعلي أكتب عنه ، تقديراً لعنايته بالأدب والأدباء ووفائه لهم .

وهٰأنذا أفعل اليوم ..

الكتاب يقع في ٢٨٠ صفحة تحدث فيها عن ستة من رجال الفكر والأدب والشعر هم حسب ترتيبه :

---

* نشر في العدد (٩٣) من المجلة العربية ، الصادر في شوال ١٤٠٥هـ = تموز(يوليو) ١٩٨٥م.

(١) توفي يرحمه الله في (دبي) يوم السبت الثاني عشر من جمادى الأولى ١٤٠٥هـ ، الموافق ٢ شباط (فبراير) ١٩٨٥م ودفن بها .

١ - الحاج عبد الحسين الأزري .

٢ - جورج كعدي .

٣ - فؤاد عباس .

٤ - إلياس فرحات .

٥ - الدكتور سليمان داود .

٦ - أحمد الصافي النجفي .

وكما يرى القراء فإن بينهم أديبين شهيرين هما (إلياس فرحات) و (أحمد الصافي النجفي) .

وفي الكتاب معلومات أعُدُّها جديدةً عنهما ، كما أن فيه معلومات وأخباراً كثيرة عن الأدباء الذين تحدث عنهم ، وقد رصد تاريخ مولد كل أديب وتاريخ وفاته .

أما وقد قرأت الكتاب كله .. ولمست الجهد الذي بُذل فيه .. فقد عددت هذا العمل بحلقاته المترابطة عملاً موسوعياً ، لا يضطلع بمثله إلا أولو العزم من الكُتّاب .. وقد كان جعفر الخليلي أحدهم .

ترى هل تحدث جعفر الخليلي عن نفسه ، بمثل هذا التفصيل الدؤوب الذي تحدث به عن هؤلاء الرجال سواء في هذا الجزء ، أو في الأجزاء الخمسة الأخرى التي صدرت قبله .. فإن هذا الجزء السادس هو الجزء الأخير صدوراً وليس الأخير إعداداً ، ، فإن هناك الجزء السابع الذي كان أعده قبل وفاته ؟ .

لقد حاولت أن أتعرف على جعفر الخليلي من خلال حديثه عن الغير في هذا الجزء ، فأدركت أنه نجفي ، وبالنجف ولد ، وكان لأسرته بها بيت باعه والده { ص ١٣٥ } ، ودرس في المدرسة العلوية العصرية بها ، التي أغلقت أبوابها بسبب الحرب العظمى الأولى ، وهو لم يكمل دراسته فيها ، وحضر

المجالس النجفية ، وأصغى لخطباء المنابر ، وللشعراء المشهورين في بلده [ص ٧ و ٨ و ١٠] .

وقد تحدَّث عن أبيه (أسد الخليلي) فقال : وأبي وإن مال لدراسة الطب أخيراً على نهج البعض من أسرته ، فقد ظلت صلته بالعلوم العربية والفقه ، والتاريخ الإسلامي ، وعلم المنطق خاصة ، قوية جداً ، فضلاً عما كان يحفظ من الشوارد مما فات تدوينه [ص ١١] .

وقد أصدر الأستاذ جعفر الخليلي صحيفته (الهاتف) أول ما أصدرها في النجف [ص ١٩] .

ثم انتقل بأهله وجريدته ومطبعته إلى بغداد سنة ١٩٤٨ م [٢٠] . وكان يوقع بعض ما يكتبه في جريدته باسم (الفراتي) [ص ٢٢] .

ونعرف من خلال حديثه في [ص ٢٤] أنه كان أسس مكتباً أسماه (دار التعارف) بعد إغلاق جريدة الهاتف .

وكانت صلته بمجلة الأديب البيروتية قوية ، فهو يقول أثناء حديثه عن (جورج كعدي) [ص ٤٤] : (وكان يتتبع أخباري فيما يقرأ أحياناً في مجلة (الأديب) ، على الأخص ، لذلك كان لتعزيته لي بوفاة أخي (عباس الخليلي) ، ثم بوفاة زوجتي أثر كبير في نفسي) .

ونتبين من الهامش (١) في [ص٤٦] أن له ثلاث بنات هن : فريدة[١] ، وابتسام ، وامتثال .

---

(١) أهدت « فريدة » الجزء السابع من كتاب أبيها (هكذا عرفتهم) لأستاذنا الرفاعي، ومن عجيب الاتفاق أن إهداءها مؤرخ يوم وفاته يرحمه الله (١٩٩٣/٩/٩م)=١٤١٤/٣/٢٣هـ ! [المصحح] .

ويشرح في { ص ٨٤ } ، أن جريدته أغلقت سنة ١٩٥٤ بموجب مرسوم ، وكان لها (يوم أدبي) يحضره جماعة من أصدقائه الأدباء ، انتقل إلى (دار التعارف) ، وهو يوضح أن مهمة هذه الدار ، القيام بنشر الإعلانات التجارية في الصحف والتلفزيون .

ويذكر في { ص ١٢٤ } ، أنه كان يصطاف في لبنان في (ضهور الشوير) ثم في (سوق الغرب) .

وعن تغلغل الروح الصحفية فيه ، يقول في { ص ١٤٩ } ، إنه دخل السجن مختاراً لتأليف كتاب عن الأسباب والدواعي المهمة التي تساعد على حدوث الجريمة في العراق ، وهو الكتاب الذي أسماه (كنت معهم في السجن) .

ونستطيع أن نستنتج من نص أورده من رسالة إليه من إلياس فرحات أن جريدة الهاتف عاشت عشرين سنة { ص ١٥٠ } .

ويظهر لنا من { ص٢١٦ } أنه كان قد أصدر قبل الهاتف صحيفة دعاها (الراعي)، وربما كانت جريدة (الفجر الصادق) أسبقها كلها { ص٢٢٠ } .

ويحدثنا أنه حينما أصدر تلك الصحف ، وكان يومذاك شاباً كثير الحماس ، جريئاً إلى حد ما ، أنه لقي ألواناً من العنت والأذى ومحاولة الاغتيال ، وحرق مكتبته ، وحرق بيته ، وكان من بعض نتائجها أن سقط مضرجاً بالدماء أمام بيته ذات ليلة ، وهو يحاول دخول الدار ، فلم يع إلا وهو غارق في بحر من الدم ، وظل ملازماً للسرير أياماً بسبب الجروح { ص ٢٢٠ } .

ويفسر لنا في { ص ٢٦٤ } ، أسباب هذا الاعتداء ، وأنه كان على إثر مقال شديد اللهجة في شجب ضرب الرؤوس يالسيوف ، والظهور بالسلاسل ،

ولطم الصدور ولدمها أيام عاشوراء باسم الحزن على الإمام الحسين ، « حتى سقطت سابحاً بدمي أمام باب بيتي في النجف وفاقداً وعيي ، الأمر الذي ألزمني الفراش أياماً وانقطعت عن الكتابة في جريدة (الهاتف) ·

هذا بعض ما استخلصته عن حياة مؤلف الكتاب من خلال صفحاته ·

أما ما ضمه الكتاب من أخبار وأسرار ومعلومات عن معارفه من الأدباء فهو شيء كثير ، قلما نجد مثله في كتاب آخر ·

* * *

الأستاذ الخليلي .. كما عرفته *

للأستاذ / صالح محمد جمال يرحمه الله

جزى الله أخانا الصديق الأستاذ عبد العزيز الرفاعي الذي ذكّرنا ببابه « بالمجلة العربية » بالأديب العراقي الذي فقده الأدب وكاد النسيان يطويه ، ذلكم هو الأستاذ الأديب « جعفر الخليلي » ، فقد كان - رحمه الله - إلى جانب أدبه محدّثاً لبقاً ، يطربك الجلوس إليه ، ويؤنسك حديثه ، بالإضافة إلى خلقه الرفيع .

تعرّفتُ على الأستاذ الخليلي - رحمه الله - في لبنان في الثمانينات من السنة الهجرية ، كنت ألقاه دائماً كل صيف بمكتبة صديقه وصديقي الأستاذ حسين عاصي صاحب دار الأندلس للنشر - عليه رحمه الله - وكنا نقضي أوقاتاً كثيرة في الأحاديث والطرائف والأدب ، وكان في كل عام عندما نلتقي يتفضل بإهدائي نسخة من مؤلف جديد له ، فأهداني الأجزاء الأول من سلسلة كتبه التي أصدرها تحت عنوان « هكذا عرفتهم » ، والذي تحدّث عنه أخونا الأستاذ الرفاعي ، وكان في تلك الفترة يؤلف أيضاً سلسلة أخرى تحت عنوان « موسوعة العتبات المقدسة » ، أهداني منها كتابه عن (مكة المكرمة) ، وكتابه عن

---

* نشر في العدد (٩٧) من المجلة العربية ، الصادر في صفر ١٤٠٦هـ = تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٥م .

(المدينة المنورة) ، وكتابه عن (القدس) ، وكتابه عن (النجف) ؛ وكان مستمراً في إصدار هذه الموسوعة ، ولا أدري ماذا صدر منها بعد ذلك بحكم انقطاعي عن الاصطياف بلبنان بعد قيام هذه الحرب الأهلية المدمرة في لبنان التي قطعت الاصطياف فيه ، وقد كان واحة العرب الخضراء وزهرة الشرق الأوسط وعاصمة الثقافة والأدب ، وملتقى الأدباء والمؤلفين وملجأ الأمراء من كل لون .

هذا ما وددت التعليق به على ما قاله الأستاذ الصديق عبد العزيز الرفاعي عن هذا الأديب العربي الذي كان يجمع إلى أسلوبه الناصع البيان سعة الاطلاع في التاريخ ولباقة الحديث وصداقات الناس ، رحمه الله .

* * *

تقييدات عن .. زكي مبارك *

اقترح عليَّ أخي الصديق الأستاذ حمد القاضي ، رئيس تحرير المجلة العربية بمناسبة محاضرة ألقيتها في نادي جدة الثقافي عن زكي مبارك ، اقترح عليَّ أن أكتب شيئاً عن حياة هذا الأديب الكبير في باريس ، في كناشتي هذه .

فقلت له : إن لزكي مبارك كتاباً عن أيامه في باريس ، هو « ذكريات باريس » ، ومع ذلك فقد يكون مجال القول متسعاً عند أصدقاء زكي مبارك ورصفائه ، الذين يصح أن يؤخذ عنهم من أخباره ، من تلك الجوانب التي لم يتحدث عنها في كتابه ذاك .

هذا طرف ..

وطرف آخر ، أن هناك - أيضاً - مجالاً لاستشفاف جوانب من حياة زكي مبارك ، من خلال سطوره في كتابه عن باريس .. فمعنى هذا أنه لا يصح أن نقفل مجال القول والاجتهاد .

وإذ أتيح لي أن أرجع إلى كتابه عن باريس ، فلن أبخل على قرائي بذلك الحديث المقترح . ولكني سأحدثهم اليوم بطرف مما قرأت - جديداً - عن زكي مبارك .

فهنا كتاب صغير من سلسلة (اقرأ) التي تصدر عن دار المعارف بمصر ،

---

* نشر في العدد (٩١) من المجلة العربية ، الصادر في شعبان ١٤٠٥هـ =أيار (مايو) ١٩٨٥م .

بعنوان (من مقعد الناقد) للأستاذ (علي شلش) ، من فصوله فصل عن (الملاكم الأدبي) ، قرأته واستخرجت منه الحقائق التالية :

١ - هذه مجموعة من آراء كبار معاصريه فيه :

طه حسين :

« الرجل الذي لا يخلو إلى قلمه إلا احتال على رأسه عفريت » .

العقاد :

« إن موضوعه الوحيد هو زكي مبارك .. كاتب بلا شخصية ولا طابع » .

المازني :

« لو أخلى كتابه من الحديث عن زكي مبارك لكان أحسن مما هو عليه » .

محمود تيمور :

« إنه كشكول حي مبعثر ، بل مسرحية مختلطة فيها مشاهد شتى من مأساة وملهاة ، أو لكأنه برج بابل ، ملتقى النظائر والأضداد » .

هذه آراء أربعة من كبار أدباء مصر فيه .. ولكن لا ينبغي أن نقبلها على علاتها .. ولعل ممن العجيب أن الأديب الذي يعد عقلانياً هو أكثرهم إجحافاً وظلماً لزكي مبارك .. أعني العقاد ، فقد جاء نصف كلامه حقاً أو للحق أقرب ، ونصفه باطلاً ، أما النصف الحق فقوله : إن موضوعه الوحيد زكي مبارك ، فإن من المسلّم به أن زكي مبارك شغل نفسه وقراءه بالحديث عن نفسه .. وإن كان القول بأن هذا هو موضوعه (الوحيد) فيه إسراف وشطط .. فطالما شغل زكي مبارك نفسه بقضايا ، تبناها ونافح عنها .. وأما القول بأنه كاتب بلا شخصية وبلا طابع .. فهو قول باطل من أساسه ، فإن شخصية زكي مبارك من أكثر الشخصيات الأدبية تميزاً ، وطابعه الكتابي من أبرز أساليب الكتاب ظهوراً ودلالةً على صاحبه ، وهذا أمر لايحتاج إلى دليل ، إلا اذا احتاج النهار

إلى دليل ..

أما طه حسين فعلى الخصومة اللدودة بينه وبين زكي مبارك إلا أن قوله يطابق الواقع ، فإن عفريت الخصام والعراك كان كثيراً ما يتقمصه ويسوقه إلى ميادين القتال .

أما عبارة المازني فطريفة فيها روحه الخفيفة الفكهة ، ولم يقل إلا حقاً .

ومحمود تيمور ، صَوَّرَهُ صورةً صادقةً ودقيقةً ، تنطبق عليه خاصة في أخريات أيامه .

ويحدثنا الأستاذ (شلش) أن (الزيات) كان يفتح صدره له ، ويعامله بالرفق تارة وبالشدة الممزوجة بالحب تارة أخرى ، وبذلك استطاع أن يسايره ويعايشه فترة طويلة ، وأحسبه هو الذي أطلق عليه لقب (الملاكم الأدبي)، وإن كان قد اختلف معه آخر الأمر ، حتى إنه لم يَرْثِهِ عندما مات ، وإن كان قد أفسح صفحات (الرسالة) لرثاء الآخرين له !

٢ - إن من بين الكتب التي صدرت عنه كتاب تعريفي للأستاذ (أنور الجندي) .

٣ - ومن نشاط ابنته كريمة في نشر تراثه إخراجها لكتاب ضخم بعنوان (الحديث ذو شجون) يضم ٦٢ مقالة كان نشرها تحت هذا العنوان في مجلة (الرسالة) .

٤ - إنه كان صاحب قضية هي قضية العروبة والدفاع عنها ، وأنه خاصم بسببها الكثيرين من معاصريه ، منهم : طه حسين ، وأحمد أمين ، وتوفيق الحكيم ، وسلامة موسى .

٥ - ولا تقتصر مناوشات زكي مبارك على خصومه الذين يتعمد البحث عن أخطائهم ، ويترصد الثغور التي يصل من خلالها إلى نقدهم والتنديد بهم ،

بل هو مخلص في نقده يطول به حتى أصدقاءه . ومن ذلك نقده لصديقه سلامة موسى ، فبالرغم من ترفّقه به ، فإنه لم يتساهل أو يغض الطرف حينما عاب على كبار الكتاب انصرافهم إلى الحديث عن التراث الإسلامي ، وهو يريد منهم الانصراف إلى هموم الأمة العربية ، ولكنه استهل نقده بقوله : « في الصيف الماضي كانت جناية الأستاذ أحمد أمين على الأدب العربي ، وقد وأدنا تلك الجناية وهي في المهد ، وفي هذا الصيف يتجنى الأستاذ سلامة موسى على الأدب العربي ، فهل يكون من الواجب أن نوجه إليه التفاتة تردُّه إلى الصواب ؟ » .

ومن السهل أن نلاحظ هنا رفقه وهو يطرح عبارته في صيغة تساؤل .. وأن يسمي نقده (التفاتة) ، ولكنه لا ينسى أن هذا النقد (من الواجب) .. مما يدل على عمق شعوره بالتبعة النقدية التي تحمّلها ، وإن كان قد صار فيها من المسرفين .

٦ - وبالرغم مما قيل عن التحام زكي مبارك بالأديب الهادىء النبيل الدكتور عبد الوهاب عزام فقد أنصفه بكلمات من الثناء الطيب ، بغض النظر عن التاريخ الذي أتت فيه ، وهل كان قبل معركته معه أو بعدها ، فهي على أي حال شهادة منه ، فقد قال عنه :

« وللدكتور عزام حقوق ، لأنه من أفاضل الباحثين المصريين ، ولأنه على جانب عظيم من الأمانة والصدق ، ولأن اتهامه بالغرض إثم ذميم » .. وهذه شهادة عظيمة ! .

٧ - ولا تقتصر القضايا التي احتضنها زكي مبارك على الأدب ، بل هو صاحب قضية قومية .. كان شديد الاعتزاز بالعروبة ، وكان يخاصم أيضاً في سبيل هذه الفكرة ، ولذلك اقترح أن يمحى اسم (توفيق الحكيم) من سجل

القومية العربية .. وهو يقول عنه : « هذا الكاتب خفيف الروح في بعض جوانبه ، ولكن روحه يثقل جداً حين يتحامل على القومية العربية » .

لقد كانت هذه القضية من هموم زكي مبارك الكبيرة التي كان يلح عليها .

٨ - وينبثق من حبه للوطن العربي الكبير ، حبه الشديد للعراق ، وإن لم تطل إقامته به أكثر من سنة واحدة . وبرغم قصر هذه المدة فقد أثمرت كتباً أدبية ، هي من أمجاده .. مثل « ليلى المريضة في العراق » ، و« ملامح من المجتمع العراقي » ، و« وحي بغداد » .

ومن أقواله عن العراق والعراقيين ما قاله حينما منحته حكومة العراق وسام الرافدين :

« وإذا قيل إن العراق يجزيني وفاء بوفاء ، وإخلاصاً بإخلاص ، فأنا أقول : إني سأقضي دهري كله مديناً للعراق ! ولن أستطيع أداء ما للعراق في عنقي من ديون ، ولو بذلت دمي وروحي في حب العراق وأهل العراق » .

ومن أقواله : « الحضارة القديمة مدينة لبلدين هما مصر والعراق » .

ويقول : « وكيف لا أصدق في حب وطن كاد ينسيني وطني ؟ ولو عبَّرت عن نفسي تعبيراً صحيحاً لقلت : إني لم أستطع أن أتوهم أن مصر والعراق وطنان مختلفان ، وما صح عندي أبداً أني غريب الدار في بغداد ! » .

وكان العراقيون يبادلونه حباً بحب ، ووفاء بوفاء ، عبَّر عن ذلك الأديب العراقي الأستاذ (عبد الرازق الهلالي) في كتابه (زكي مبارك في العراق) .

وقد قال الأستاذ شلش : إن بغداد خلبت لُبَّه ، وزودته بتجربة حب كبير عاش عليها سنوات بعد ذلك ، وألهمته كتاب (ليلى المريضة في العراق) .

٩ - وله في الخصومة دستور .. فهو لا يريدها مجادلات ينفر منها

الذوق .. وينصح الذين يؤرّثون الخصومة بينه وبين سواه أن يكونوا شجعاناً ليخاصموا مثل ما يخاصم هو .. ويعتقد بقيمة الخصام بين المفكرين على ألا يكون مجرد ملاحاة ! ويعيب على الصحف التي تحاول إيجاد الشقاق بين رجال الأدب لتكسب قراء متفرجين (كأن الصحافة صارت ملاعب لا تكلف المتفرجين إلا ملاليم !) . ومن أقواله : « نحن لا نختصم لنقدم الغذاء لأهل الفضول ، وإنما نختصم لنؤدي خدمة للفكر والرأي والوجدان » .

١٠ - وأخيراً .. من ياتري أطلق لقب (الدكاترة) عليه ؟ إنه هو الذي فعل ذلك لا غيره ، فهو يقول : « إن بني آدم خائنون ، نؤلف خمسة وأربعين كتاباً منها اثنان بالفرنسية ، وننشر ألف مقالة في (البلاغ) ونصير (دكاترة) ، ونبقى مع هذا مفتشاً بوزارة المعارف » .

* * *

زكي مبارك في باريس *

أما عن كتابه (ذكريات باريس) فهو عبارة عن إضمامة من أوراقه في باريس ، جمعها فيه .. ويبدو أنه جمعها كيفما اتفق ، فهذه مقطعات شعرية ، وهذه رسائل لبعض معارفه وأصدقائه قد لا تكون لباريس علاقة بها إلا أنها صدرت عنها ، وهذه مقالات متناثرة أرسل بها إلى بعض الصحف التي كان يراسلها . ولاننسى أنه كان يعد مراسل جريدة (البلاغ) في باريس ، وكان صاحبها الأستاذ (عبد القادر حمزة) قد خصّص له مكافأة شهرية لقاء تسميته هذه ، وكانت تلك الجنيهات تخفف عنه أعباء الحياة في المدينة الكبيرة التي لم تكن ترحم الغريب .

وبين تلك الرسائل والأشعار والمقالات ، لم يكن القارىء يعدم حديثاً عن بعض معالم باريس أو مهرجاناتها أو حفلاتها ، وإن كان هذا الحديث يأتي حين يأتي على استحياء .

ولا نعجب أن يهدي زكي مبارك كتابه للأستاذ (عبد القادر حمزة) بكلمة وفاء يقول فيها : (إلى الصديق الذي وصل جناحي ، وراش سهمي) .

ولكن هل كان زكي مبارك خبيراً بباريس حتى نطمع من حديثه

---

* نشر في العدد (٩٤) من المجلة العربية ، الصادر في ذي القعدة ١٤٠٥هـ = آب (أغسطس) ١٩٨٥م .

عنها بالكثير ؟ ..

لقد أمضى فيها من السنوات خمساً.. كما يقول هو في تمهيده .. ويزعم لنا أنه يوم دخلها كان يعرف من دقائق اللغة الفرنسية مالا يعرفه إلا الأقلون .. أترى هذه أيضاً دعوى من دعاويه العريضة ؟ . وكم له من دعاوى تملأ الأرض ، طولها والعرض !

لكن كتاب (ذكريات باريس) ليس وحده الذي ضم أقباسه عن باريس .. فهو يقول - أيضاً - في التمهيد ، إنه ضم جزءاً منها إلى أصول كتابه (سرائر الروح الحزين) ، وجزءاً إلى مواد الطبعة الثانية من كتابه (البدائع) .. إذن فعلى الذي يريد أن يتبع آثاره في باريس أن يقرأ الكتب الثلاثة .

قلت: إن كتابه هذا لا يمكن أن يتسع لكل ذكرياته عن باريس .. ولكنه هو نفسه قال هذا في تمهيده : (لم يكن إلا ظلالاً خفيفة لما لقيت في باريس من متع الحياة ، وهو مع هذا لم يحو كل الذكريات .. لأن أطيب الذكريات لا يكتب ولا يقال ، وإنما تقلّبه النفس في هدءات الليل ، كما يفعل الشحيح وهو يقلّب كنزه المدفون .

وكما يرى القارىء ، فقد وقفتُ طويلاً عند (التمهيد) ، ذلك لأن فيه الجواب على بعض ما يلح من تساؤلات ، ومِنْ هذه التساؤلات : مَنْ هم أولئك الأشخاص الذين كان يرى باريس من خلالهم ؟ يجيب :

« يقول المسيو دي كومنين : إن الكريم لا يذكر البلاد التي رحل عنها إلا مصورة بصورة من عرف فيها من كرام الناس ، وكذلك تبدو باريس ، على البعد ممثلة في شمائل إنسانين اثنين هما المسيو بلانشو وابنة خاله كريمة الجنرال بونال » .. وهو يقول عن الأخيرة ، « سوزان مثل أعلى لسلامة الذوق ، وكرم النفس ، وحياة الوجدان » . ثم يستطرد : « بعد هذين الإنسانين تتمثل باريس

في صور الأساتذة الكبار الذين انتفعت بعلمهم هناك أمثال دوميك ، ومرسيه ، وديمومبين ، وكولان ، وماسينيون ، وتونلا ، وديبويه ، وميشو ، وشامار ، ومورتيه » ٠

ويلاحظ أن من بين هذه الأسماء ماسينيون المستشرق المعروف ٠

والحي اللاتيني في باريس ، مشهور شهرة مستفيضة ، خاصة لدى طلاب الجامعات والمعنيين بأخبار الأدب .. وزكي مبارك يسميه حي الشباب ويخصُّه بفصل من كتابه { ص ٨٨ } ، ولكنه كان قد قرر قبل ذلك أن الحي اللاتيني حي الطلبة بنوع خاص هو مهد الوباء .. وذلك أثناء حديثه عن الحب الأثيم في باريس ص { ١٥ } ٠

ومع افتتان زكي مبارك بباريس وأهل باريس ، وثنائه على الفرنسيين ، وإعجابه بهم ، إلا أننا نجده يمقت تحلّلهم وإباحيتهم فيقول في فصل بعنوان (شهداء السين) ص { ٣٥ } : « فليس من المستغرب هنا أن يكون لكل زوج خليلة ، ولكل زوجة خليل ، والقوم قد درجوا على الشر حتى لا يرجى لهم شفاء » . ولا يفوته أن يشير إلى انعدام الوازع الديني حينما يقول : « قد عَفَتْ منها جميع الرسوم الدينية التي كانت تحمل الناس بقوة العقيدة على الرضا بأرزاقهم وحظوظهم في الحياة » .. ثم يقول عن انعدام الوازع الإنساني : « ليس في الدنيا مدينة يموت فيها إنسان جوعاً إذا نفدت دراهمه غير باريس » ٠ ويقول عنها أيضاً : إنها تأكل أبناءها كما تفعل القطة المجنونة ٠

ونجد أن من السهل أن نتبين أن مقالاته كانت تدور حول باريس ومعالمها ومشاهدها ، بينما تضم رسائله حنينه إلى أصدقائه وإلى مصر ، كما تتضمن أحياناً أحاديث عن باريس ٠ أما المقطعات الشعرية فهي لحديث الوجدان .. ونجد في إحداها وهي المعنونة بـ (نجوى القلب على شواطىء السين) ، ذكراً لزوجته

في مصر ، وحنينه إلى الوادي العزيز) ص { ٢٩٣ } .

رعى الله في الوادي العزيز عقيلة عزيز عليها أن يقال بعيد
جنيت عليها ما جنيت من الهوى وخليتها تفنى أسى وتبيد
وكم من أمان للشباب تقطعت سرائر من أحداثها وعقود ..

وجدير بالذكر هنا ، أن روح التجديد في باريس لم تستطع أن تنال من شعر زكي مبارك ، فظل محافظاً على عهد امرىء القيس ، وظل (الفتى الأزهري) فيه كما كان منذ عهده بالأزهر .

وتكشف لنا بعض رسائله عن أسماء عدد من أصدقائه الذين كان يراسلهم ، وتنعقد بينه وبينهم صداقة عتيدة أوصداقة بائدة .. وقد يأتي فيها عرَضاً أسماء بعض أصدقائه أو لداته ، بينما كان يضع بعض الرسائل غفلاً من اسم المرسل إليه .

من هذه الرسائل رسالة موجهة إلى الأديب الشاعر أحمد الزين (١٣١٨ هـ - ١٣٦٦ هـ) كان كفيفاً ويعد من كُتَّاب (الرسالة) و (الثقافة) وهو يذكر فيها أصدقاءهما : محمد الهراوي ؛ وحسن القاياتي ، وكامل الكيلاني ، ومحمد عبد المطلب الشاعر لا المغني . وبالمناسبة فإن زكي مبارك لا يعده في زمرة الشعراء .

كما تجده يثني على الأستاذ علي الطاهر صاحب جريدة (الشورى) ، فقد كان على علاقة جيدة به .

ويقول في رسالته للزين عن رامي : « ومن المحتمل أن يكون صديقنا الأستاذ رامي يطرفكم ببعض أغانيه وتغريداته ،فعهدي به رخيم الصوت .. » .

ويقول فيها عن نبوغ شوقي : « السر في نبوغ شوقي هو تهالكه على الموسيقى والغناء ، ولولا السهرات الطروبة المجنونة التي يقضيها شوقي في

بيئات اللهو والطرب والتمثيل والغناء لمات شيطانه منذ أزمان » .

ويقول فيها أيضاً عن كتاب (الديوان) الذي أصدره العقاد وزميلاه مستطرداً بعد العبارة السابقة في حديثه عن شوقي :

« وقد كانت تكوّنت في مصر عصابة لقتل شوقي،وأعدّت لذلك (نبُوتاً) غليظاً اسمه الديوان ، ومع ذلك مات الديوان ، وانهزمت العصابة ، وبقي شوقي يطغى كالحية النضناض » .

ونعرف أن بينه وبين الأستاذ محمد السباعي (والد يوسف) مراسلات ، وأنه معجب بترجمته لكتاب الأبطال { ص ٦٦ } .

وهو يراسل أيضاً السيد حسن القاياتي { ص ٧٥ } ، ويتعرف في باريس على محمود بيرم التونسي ، ويكتب عنه فصلاً من كتابه { ص ١٢٦ } .

ويعرّفنا في { ص ١٩٤ } على شاعر اسمه أحمد العاصي ، انتحر وهو شاب .

وممن راسلهم .. أنيس ميخائيل ، ومع ذلك تظل معظم رسائله لأشخاص مجهولين عندنا .

ولا نجد في هذا الكتاب ذلك الحديث عن النفس ، المبالغ فيه ، كما هو الحال ، بعد ذلك في (ليلى المريضة في العراق) ، وهو حينما يتحدث عن نفسه إنما يفعل ذلك باعتدال ، فمن المهم أن نقف في رسالة للسيد حسن القاياتي { ص ٧٥ } على قوله :

« إنك تعلم أنني في حياتي الفلسفية والأدبية منصرف بعض الانصراف عن جو الشعر والخيال ، ولكنني أحمل بفطرتي قلب الشاعر ، وأحيا حياة شعرية في كل ما يمس العواطف والمشاعر والأحاسيس ، وتغلب الفطرة أحياناً فتلقى على أبحاثي العلمية نفحة من نفحات الوجدان ، وأنا مع هذا لا أنظم

الشعر إلا إذا جاشت النفس ، وفاض القلب ، بحيث لا أستطيع الفرار من شيطان القوافي والأوزان » .

ويصرح لنا في ص { ٩٢ } ، أنه هو الذي كان يكتب في جريدة (الأفكار) سنة ١٩١٩ م مقالات في إصلاح الأزهر بإمضاء (الفتى الأزهري) .

* * *

زكي مبارك في باريس أيضاً *

تصوروا .. زكي مبارك .. ومحمود بيرم التونسي ، الزجّال المشهور .. يلتقيان ويصطحبان في باريس سنة ١٩٢٩ م ، أحدهما الناقد اللاذع .. نثراً ، والآخر الناقد اللاذع شعراً .

التقيا في باريس مصادفة من غير إعداد ولا ميعاد .. كانا في حديقة عامة صغيرة من حدائق باريس ، حينما شاهد زكي مبارك (شاباً قصيراً ، نحيلاً ، متضعضعاً مهدوداً لم تُبْقِ أيامه من جسمه باقية) (الوصف من كلمات مبارك) . يحمل طائفة من الجرائد المصرية فبدأه بالتحية ، واستأذنه في أن يتصفحها فسمح له في شيء من المضض والتعجل ، ثم دار بينهما هذا الحوار :

زكي مبارك : أنت هنا من زمان أيها الأخ ؟

بيرم : منذ عشر سنين .

زكي : عشر سنين ! وماذا تصنع ؟

بيرم : عامل في أحد المصانع .

زكي : وما الذي ابتلاك بهذه الجرائد وأنت عامل ؟

بيرم : بلوى قديمة !

---

* نشر في العدد (٩٥) من المجلة العربية ، الصادر في ذي الحجة ١٤٠٥هـ = أيلول (سبتمبر) ١٩٨٥ م .

زكي : منذ متى ؟

بيرم : منذ كنت أحرر المسلة .. فأنا محمود بيرم التونسي .. وحضرتك ؟ ..

زكي : زكي مبارك ..

بيرم : أنت الدكتور .. الله يسامحك .. كيف نسيت أن ترسل إليّ نسخة من كتاب (الأخلاق عند الغزالي) ؟ لا .. بل كيف استبحت لنفسك أن تهاجم ذلك الفليسوف ؟

هكذا التقيا .. وهكذا اصطحبا .. { ص ١٢٦ ذكريات باريس } .

في خلال تجوالي في كتاب (ذكريات باريس) ، استطعت أن أقف على بعض آراء زكي مبارك .. على سبيل المثال أسوق هذه اللقطات :

١- فإنه يتهم المعري { ص ١٠٥ } بأنه استعرض في رسالة الغفران آراء الزنادقة والمرتابين ، وشرحها مصحوبة بلعنهم وتسفيههم ، كتغطية لإيراد تلك الآراء .

وزعم أيضاً أن لطفي جمعة يستعمل نفس الحيلة .

٢ - يقارن بين حياة المرأة في الغرب والشرق فيقول : « فإن مشيت في بول ميش صباحاً ، ورأيت الفتيات يتهادين وفي أيديهن الكتب والقراطيس ، فلا تحسب دائماً أنهن يطلبن العلم مخلصات ، ولكن تذكر أن فيهن بنات شقيات ، قضت أزمات الحياة الأوربية على ما فيهن من كرامة وحصانة ، فهن يسعين إلى الورد الممنوع بمشاركة الشبان في تلقي الدروس ..

والقارىء المصري أو الشرقي لا يكاد يدرك مغزى ذلك ، لأن الحياة في الشرق لا تزال معقولة الأوضاع ، وكذلك لا تزال المرأة في الشرق (سيدة) وإن زعموا أنها تعيش في أقفاص » .

وكان بودّي أن أنقل كلامه كله ، الذي يصور فيه ابتذال حياة المرأة

الغربية .. فهو قيّم .. ولكني اكتفيت بما أوردت ، خشية الإطالة ، ولأنني إنما أقتصر على لقطات فحسب .

٣ - وكان زكي مبارك أيام دراسته في باريس ، إنما ينتقل إليها عن طريق البحر ، فالطائرة لم تكن الوسيلة المتاحة المستعملة بعد في المسافات الطويلة .. فما هو رأيه في البحر وفي ركوبه ؟

إنه يحدثنا عن ذلك في فصل بعنوان (مرسيليا) ص { ١٧٧ } :

« البحر مهما طابت أيامه ، وصفت لياليه ، فهو سجن موحش يرهق المسافرين بما فيه من مظاهر التكلُّف والتوقُّر في بيئة مرغمة على مراعاة طائفة كبيرة من مختلف التقاليد ، والبواخر سجون متحركة تطفو على وجه الماء ، والمسافر يعد اللحظات ، ويسأل نفسه بعد كل غداة ، وكل عشي ، متى أصل ؟ متى أصل ؟ فسفره هو الليل ، ووصوله هو الصباح ، وقلقه أشد من قلق حندج المري حين قال :

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله والليل قد مزقت عنه السرابيل ؟

٤ - وزكي مبارك الناقد .. ما رأيه في النقاد ؟

لقد كتب فصلاً حزيناً يتحدث فيه عن شاعر مصري شاب لم أقف على اسمه من قبل ، انتحر وهو في أوج شبابه ، وهو أحمد العاصي . يذكر كيف التقى به لأول مرة حينما قدَّم نفسه إليه ، وقال ، إنه أحد طلبة كلية الآداب بالجامعة المصرية ، هجر كلية الطب لأن أعصابه أضعف من أن تحتمل مناظر التشريح ، وانتسب لكلية الآداب راجياً أن يكون في الأدب والفلسفة جواً أهدأ وأدعى لراحة الأعصاب . فماذا قال له زكي مبارك ؟ مصوراً الأدب والأدباء ، والنقد والناقدين :

« لشد ما خدعت نفسك بهذا التغيير ، والانتقال من قيد إلى قيد ، لأننا

في كلية الآداب نعالج نفس الطريقة التي يعالجها الأساتذة في كلية الطب ، وهم يسمون عملهم التشريح ، ونحن نسميه التحليل ، والفرق بيننا وبينهم أنهم يشرٌحون الأجسام ، ونحن نشرٌح الأعراض ، هم يشرّحون أجساماً فانية ، ونحن نشرّح أعراضاً غالية ، كان ينبغي لها الصون التام في ظلال الخلود · وليس شق الجسم الميت الذي يحوٌله القصر العيني إلى مشرحة كلية الطب بأقسى وأفظع من اهتمام أساتذة كلية الآداب بإثبات أن أبا نواس كان سيء الأخلاق ، وأن البحتري كان قذر الثياب ، وأن المعري كان من الملحدين ، وأن المتنبي كان صعلوكاً يتصيد المال وهو يدٌعي سمو الملوك ، إلى آخر ما توجبه الدراسات الأدبية ، من هذا الهذر الممقوت » ·

٥ - قبل قليل حَدٌثْتُ القارىء عن رأي زكي مبارك في البحر · ترى ما هو رأيه في الطائرة بعد أن امتطاها لأول مرة ؟ فبين فصول كتابه ، فصل بعنوان (نزهة في طيارة) ص [٢٢٩] ·

من حسن الحظ أن هذا الفصل يحمل تاريخاً هو سنة ١٩٣٠ م حينما قام برحلته على متن طائرة في زمن كان فيه الطيران - كما وصفه هو - طفلاً في المهد · · يقول :

« الطيارة التي ركبناها طيارة صغيرة .. ليس بها مقاعد لأكثر من عشرة أشخاص ، ولم يفتني أن أقول حين ركبت : « بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم » ، ومرٌ بالبال كل ما جرى لسيدنا نوح عليه السلام ، وأنا رجل كثير الذنوب ، كنت أخشى أن يكون حان حين التكفير ، ولكني نجوت فاعتقدت بحق أن الله غفور رحيم ·

كانت لحظة رهيبة حين أغلق الباب ، وحين أيقنت أننا صرنا في وديعة

الهواء ؛ ومضت الطيارة على الأرض بضع لحظات تمنيت أن تطول ، لنظل في رحاب الأرض التي منها خلقنا وإليها نعود ، ثم أزّت الطيارة أزيزاً شديداً كاد يصم الأسماع ، فعرفنا أنها أخذت تشق الهواء ·

لا تسل كيف كان شعوري حين حلقت بنا الطيارة ، فقد كانت دهشتي عظيمة جداً حين لاحظت أن الطيارة أرفق بركابها من السيارة فوق الأرض ، ومن الباخرة فوق المـاء .. راعني أن شعوري بجمال الطبيعة كان أعمق ما مرَّ بي في حياتي ، وأيقنت أن الطير أكثر نعيماً منا ، وأرقُّ إحساساً ، وأعمق شعوراً ، وأبصر بمواقع الحسن ، وأعرف بمواطن الجمال ، وكيف لا ، وأنت على الأرض لا تدرك من الطبيعة إلا بعض الجوانب ، حتى إذا أشرفت عليها من فوق رأيتها كاملة في زخارفها وتهاويلها ونقوشها وصورها وجميع ما تتحلى به من الحسن المحبوب ، والجمال الموهوب .. » ·

٦ - إن هذا الفصل من كتاب (ذكريات باريس) من أمتع فصوله ، وحينما يتحدث زكي مبارك عن بعض معالم باريس أو سكان باريس ، أو الآثار الحضارية فيها ، لا ينسى أن يلتفت إلى الشرق وإلى بلده أو البلاد العربية .. وهو يظهر المقارنة ، أو التلهف إلى الرقي الحضاري ·

في فصل عقده عن (كوست وبيللونت) الطيارين العظيمين الفرنسيين اللذين اجتازا الأطلانطيق يتحدث فيه عن الجانب الجاد في حياة الفرنسيين ، وإقبالهم على العلم والأدب والفن ، ويذكر أن من مفاخرهم أن الطيارة التي أقلت الطيارين صنعت جميع أجهزتها في المصانع الفرنسية وأنهما كانا يعتزان بقوميتهما الفرنسية ، ثم يصف ذلك الاستقبال العظيم الحافل الذي تم لهما .. ولا ينسى أن يختم مقاله ببث روح العزيمة إلى المجد في الشباب المصري ·

٧ - وزكي مبارك كان في باريس رجلاً طلعة .. يذهب إلى المعارض ..

ويغشى الحفلات العامة .. ويشارك في المواكب ، ويتسكع في شطآن النهر .. كان لا ينسى أنه مكلف بمهمة صحفية هي أن يراسل جريدة (البلاغ) في مصر .. فلا نعجب إذا رأيناه - أحياناً - يكتب يوميات كيوميات عيد الحرية { ص ٢٣٦ } ٠

وفي أحايين أخرى يتألق شاعراً ، وإن كان لا يغادر أسلوبه النثري ، كما فعل في فصل بعنوان (معرض الأزهار في باريس) { ص ٢٥٧ } الذي يقول فيه :

« تلفتُ إلى قلبي أبحث عما كان ثار فيه من أمان وآمال ، كانت أندى وأعطر من الأزهار الغضة في أسحار الربيع ، ثم ذبلت وذوت قبل أن تعمر أعمار الأزهار ، فكم من وعد جذاب أخلف قبل أن يمضي عليه يوم أو بعض يوم ! وكم من لقاءة حلوة حسبتها مشرق وصال ، فكانت مغرب وداع ، وكم من برق من بروق الحب تألق ثم غاب ! وكم من حلم من أحلام الصبابة بددت غفواته صروف الحياة ! وكم لحظة من لحظات العتاب شهدها القمر وغاب عنها الرقيب ، ثم عصف بها الدهر فأدرجها في أكفان الفناء ! وكم من غفلة من غفلات العيش أويت إلى ظلالها في طمأنينة الطفل ثم ثارت من حولها العواصف فألقتني في وادي الخطوب ! » ٠

وهكذا يمضي في شعره المنساب بلا قافية ولا أوزان ؛ ولكن هل يكتفي زكي مبارك في فصوله هذه بخطرات من الشعر فيها تألق روحه وتأوه قلبه ؟ أم نجد فيها إلى جانب ذلك تأملات من التفكير العميق ؟

لنقرأ معاً ما خطه في ص { ١٢٢ } في فصل بعنوان (بين فصول الكتاب وآيات الوجود) لنر أي مفكر هو ٠ ٠ وليكن هذا مسك الختام ٠

وانطلقت أفكر في أمثالي من الذين يتسامون إلى شرح حقائق الحياة ونواميس الوجود ، وهم أسرى في منازلهم يخشون إذا همّوا بمشاهدة العالم أن ينالهم الابتذال ، فكم من عالم مفكر - وتلك دعوى قديمة - يجلس في عقر بيته ليضع الشرائع للناس ، وهو لا يعلم شيئاً عن غرائز الناس . في حين أن التشريع ليس إرادة فردية تؤيد بالأحكام العرفية ، وإنما هو تنظيم وتهذيب للغرائز والميول والأهواء ، وكم من فليسوف - وتلك أيضاً دعوى قديمة - لا يعرف من الدنيا غير الكتب ولا يعرف من أهلها غير تراجم المؤلفين ، وهو مع ذلك يرى نفسه أهلاً لوضع الحقائق الباقية لسياسة الأمم والشعوب ! » .

* * *

مِن حَدِيثِ الكُتُب

خزانة الأدب *

هذه الكناشات تقييدات كنت أكتبها في الأصل لنفسي على هامش ما أقرأ من كتب أو صحف .. فهي في حقيقتها نظرات أو نقدات لبعض ما يمر بي أو أمر أنا به في مطالعاتي .

ومثل هذه التقييدات تخلو من الإبداع الفكري ، كما تخلو من طرافة الخيال . . فهي في غالب أحوالها تتسم بالجفاف .. الذي لا يصبر على مثله إلا الأقلون .. فهي لا تعجب عامة القراء ولا تستقطبهم .. وهي لا تشد إلا أولئك الذين يعنون بأمثال هذه الملاحظات ، وقد يجد بعضهم الرغبة في نقاشها ..

من أولئك القراء القلائل أستاذنا الشيخ (عثمان الصالح) ، الذي كتب في هذه المجلة في عدد رجب الماضي ، تحت عنوانه المختار (ساحة الحوار) يشير إلى ما تحدثت به في كناشتي عن كتاب (خزانة الأدب) .. ويعلق بأن (زكي مبارك) أثنى في كتابه (المدائح النبوية) على (الخزانة) ، ملتذاً بقراءتها ولكنه لا يجد فيها جديداً ولا توليداً .. وأنه قال بالحرف الواحد : « في الواقع إن خزانة الأدب ، وشرح لامية العجم

---

* نشر في العدد (٩٢) من المجلة العربية ، الصادر في رمضان ١٤٠٥هـ = حزيران (يونيو) ١٩٨٥م .

للصفدي ، أدب هزيل ، ولكن مؤرخ الأدب يحتاج إلى التعرف إلى جميع الفنون الأدبية الغث منها والسمين » ، وعلى الرغم من ذلك فإنه يقول : « إنني أجد أنساً بهذين الكتابين قد لا أجده عند قراءة كتاب الأغاني » . ثم قال : « قد جهدت في تعليل ذلك ثم تبينت أن غرابة هذا الأدب من أسباب جاذبيته » .

هذه خلاصة ما قاله الدكتور (زكي مبارك) حسب ما أورده عنه شيخنا الصالح ..

ترى هل أراد شيخنا أن يحرشني على زكي مبارك ؟ وهو يعلم أنني من المعجبين بأدبه وأسلوبه ؟ .. وأن يضع إعجابي بالخزانة في طرف ، وإعجابي بزكي مبارك على الطرف الآخر .. ثم يرى لأيهما أنحاز .. وكأنه بذلك يريد أن يوسع (ساحة الحوار) ..

هناك ما يصح أن أقوله لصالح كتاب الخزانة ، وهناك ما يصح أن أقوله ضد الدكتور (زكي مبارك) .. رحمه الله .. ولوكان الدكتور زكي مبارك حياً لجاز أن يتفرج أستاذنا الصالح على ما يتصاعد من غبار المعركة ..!

بالرغم من أن كتاب الخزانة يحمل اسم (خزانة الأدب) فقد كتبه صاحبه ليكون كتاب نحو لا كتاب أدب .. ولكن يبدو لي أنه لما فرغ منه اتضح له أنه كتب إلى جانب النحو شيئاً كثيراً من تاريخ الأدب وما يتصل به .. مما جعله يسمي كتابه - والحق معه - خزانة الأدب .. وهذا ما كان يلذ للدكتور زكي مبارك قراءته .. ولكني لن أقف الآن عند متعة زكي مبارك بالكتاب ، مؤجلاً ذلك قليلاً ..

الميزة الكبرى لخزانة الأدب ، بعد النحو ، هي أن صاحبه قد أتيح له أن يجمع فيه علماً كثيراً استمده من خزائن كتبه ، وهي خزائن عامرة

بالنفائس التي ضاع بعضها فلم يعثر عليه الباحثون .. مع أن المسافة الزمنية بيننا وبين البغدادي مؤلف الكتاب ليست كبيرة .

الكتاب عامر بنماذج شعرية كثيرة ، وقصص أدبية ، وتراجم رجال .. وتاريخ لأحداث .. وكلها تدور حول العصر الجاهلي وصدر الإسلام ، أي حينما كان الشعر في عنفوانه ، فكيف يُعَدُّ مثل هذا الأدب أدباً هزيلاً ؟ . مرة أخرى سأؤجل نقاش زكي مبارك إلى نهاية هذه الكلمة .

وكتاب الخزانة كتاب موسوعي كبير ، يقع الآن في أحد عشر مجلداً ، فكم هو غزير ذلك الأدب الذي يقع في هذه المجلدات الكثيرة الكبيرة ؟ حقاً إنه لا يملؤها كلها ، ولكنه يملأ منها الشيء الكثير !

والبغدادي ليس إمَّعة .. فهو لا يتابع مَنْ قبله ، ولا يكتفي بالنقل الأخرس .. بل يحتفظ بشخصيته واضحة قوية .. فنجده ينقد ويعارض ويلاحظ ويناقش .

وهو ، وإن استطرد ، فإن استطراداته لا تتعدى الشرح الموضوعي للمادة التي يعالجها ، فالحديث عن بيت الشاهد يسوقه إلى قصيدة الشاهد ، وهذه تسوقه إلى قائل القصيدة ، فيترجم له ، وقد يشرح القصيدة ، وقد يأتي بقصتها ومناسبتها .. ولكنه يظل رغم ذلك كله في حلقة متراصة يأخذ بعضها بأطراف بعض .. فلا يتخطاها إلى غرائب الاستطراد .

وأسلوبه سائغ واضح ، لا يستهويه السجع ، برغم سيطرة السجع على عهده ..فإن البغدادي يهتم بإيصال المعلومات التي يريد إيصالها إلى قارئه ، لذلك لا يلجأ إلى زركشة عباراته أو ترصيعها بما لا كبير فائدة فيه .

وكتاب هذه صفاته ، وكاتب هذا هدفه ، من الظلم له أن يوصف بأنه

كتاب هزيل .. وهو إن صح أن يكون هزيلاً فكيف يسوغ عقلاً أن يمتع ويلذ .. ألم يكن زكي مبارك يلذه قراءته ويأنس به .. ؟

وما دمت قد وصلت إلى هذه الأحكام القاسية التي أطلقها زكي مبارك على الخزانة .. فلأناقش إذن هذا القِران - بكسر القاف - بين الخزانة وشرح لامية العجم للصفدي .. فقد وضعهما في صف واحد .. ووصفهما معاً بالهزال ..

ومع أن في الكتابين أدباً كثيراً ، فإن من الصعب أن يوضعا في صف واحد للمقارنة .. فإن الفرق بينهما شاسع .. فالخزانة تتحدث عن شواهد نحوية كثيرة ، وصل شرحها الى أحد عشر مجلداً .. بينما الصفدي في شرحه لامية العجم ، إنما يشرح قصيدة واحدة ، ولا ضابط لاستطراداته .. عكس استطرادات البغدادي التي تدور في نطاق معروف .. ولقد قيل عن شرح الصفدي بحق : « ذكر فيه شيئاً كثيراً على طريق الاستطراد فصار مشحوناً بغرائب الجد والهزل » .. وهو في شرحه كله لم يتجاوز مجلدين اثنين ..

ومن العجيب أن يقول زكي مبارك ، إنه يجد أنساً بقراءة هذين الكتابين .. وهذا أمر لا جدال فيه .. ولكن كيف يجد الأنس في مادة هزيلة أو غثة ؟ قد يقال إن المرء قد يجد الأنس أحياناً في التفاهات .. ولكن من قال إن الخزانة وشرح الصفدي من التفاهات ؟ إلا أن يكون هذا القائل زكي مبارك وحده ، وهو في هذه المقولة من كبار المسرفين ؟

ولم يكتف زكي مبارك بهذا الحكم الغريب .. حتى يضيف مقولة أشد غرابة فيقرن هذين الكتابين بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .. فالأغاني موسوعة تتضاءل أمامها موسوعة الخزانة على ما في هذه الأخيرة

من اتساع وشمول .. بل الأغاني خزانة كتب بحالها وفيها من التاريخ والأدب والتراجم والقصص والأشعار الشيء الكثير الكثير .. وهو يُعَدُّ من أهم مصادر الأدب ومن أمهات الكتب ..

أما أسباب جاذبية الخزانة وشرح الصفدي ، عند زكي مبارك ، تلك الجاذبية التي لا يجدها في الأغاني ، فيعللها بغرابة ما حويا من أدب ...

عجيب .. لقد وصف أدبهما أولاً بالهزال ، ثم عاد فوصفه بالغرابة .. فهل يُعَدُّ أدبهما غريباً حقاً ؟ وما هو وجه الغرابة فيه ؟ لم يشرح لنا زكي مبارك ذلك .

إننا نعلم أن كلاً من هذه الكتب الثلاثة تمثل عصراً خاصاً به ، فعصر أبي الفرج غير عصر الصفدي ، ويأتي البغدادي في العصور المتأخرة ...

ولكل من هؤلاء المؤلفين الثلاثة طريقة تناوله الخاصة .. وكل منهم قد اكتسب من مميزات عصره .. وكان من الطبيعي أن يكون لكل منهم أسلوبه الخاص .

إن كتابي الخزانة وشرح الصفدي ، كتابان أنيسان حقاً كما قال زكي مبارك ، ويأتي الأنس بهما ليس من غرابتهما - كما قال - ولكن لطرافة الانتقال من موضوع إلى موضوع ، بحيث لا يمل القارىء خلال قراءته .. ولكن لا ينبغي أن ننسى أن على قارىء الخزانة أن يصبر على جفاف المادة النحوية التي تعترض طريقه .. .

حرش :

جاء في مستهل كلمتي هذه عن الخزانة كلمة حرش ، وأود أن أقول إنها من العامية الفصحى ، فمن معانيها حرَّش (بتشديد الراء) بين القوم بمعنى أغرى بعضهم ببعض ، وتَحرَّش به : تعرض له ..

كتاب « عبث الوليد » *

في هذه المجلة ، وفي عدد رجب عام ١٤٠٠ هـ نشر مقال عن كتاب (عبث الوليد) الذي نشرته (الشركة العربية للتوزيع في بيروت سنة ١٩٧٩) ، من تحقيق (ناديا علي الدولة) .

حقاً لقد مرَّ على نشر هذا التعريف ما يزيد عن خمس سنوات .. لكنني لم أطَّلع عليه إلا الآن .. أو لعلي اطَّلعت عليه في حينه ، ثم أُنسيتُ أمرَه لسبب من الأسباب ..

و(عبث الوليد) أحد مصنفات فيلسوف العربية الكبير أبي العلاء المعري ، وهو أحد كتبه النقدية ، فقد وضع ثلاثة كتب في نقد مشاهير الشعراء وهم : المتنبي : أحمد ، وأبو تمام : حبيب ، والبحتري : الوليد .. وأسمى كتبه أسماء شاعرية .. فكتابه عن أحمد المتنبي سماه (معجز أحمد) ، وفي هذه التسمية دلالة على إعجابه الكبير بالمتنبي .. ولا غرو فإن بين الرجلين مشاركة فكرية ، فكلاهما ميَّال إلى الحكمة ، وإعمال العقل والفكر ، واطلاع على أقوال الفلاسفة والحكماء .. وعلى حد علمي فإن هذا الكتاب في حكم المفقود حتى الآن ، لم يعثر عليه بعد .. ولكن الأمير

---

* نشر في العدد (١٠١) من المجلة العربية ، الصادر في جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ = آذار (مارس) ١٩٨٦م .

شكيب أرسلان ذكر في مقدمة عبث الوليد ، نشر السيد أسعد طرابزوني الحسيني ، التي سأتحدث عنها فيما بعد ، أن لديه نسخة من شرح المعري لديوان المتنبي يرجح أنها (اللامع العزيزي) وهو الكتاب الذي قال عنه المعري ، عندما وقف على بيت المتنبي :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي   وأَسْمَعَتْ كلماتي مَنْ بِهِ صَمَمُ

قال : كأنما نظر المتنبي إليَّ بلحظ الغيب .

وذهب الأمير شكيب إلى أن (اللامع العزيزي) غير (معجز أحمد) ، لأن هذا الأخير على نمط (عبث الوليد) بحسب قول ابن خلكان .

أما كتاب المعري عن أبي تمام فقد سماه (ذكرى حبيب) ، وفيه تورية باسم أبي تمام ، وهو أيضاً يدل على إعجابه به .

أما كتابه في نقد البحتري ، فسماه (عبث الوليد) إشارة إلى أبي عبادة الوليد بن عبيد الله البحتري ؛ وتدل التسمية على أن المعري كان شديد الوطأة على البحتري .. على الرغم من تلك المقولة التي تروى عنه : « المتنبي وأبو تمام حكيمان ، وإنما الشاعر البحتري » .

أعود إلى المقال الذي نشرته « المجلة العربية » ، تعريفاً بكتاب (عبث الوليد) الذي حققته (ناديا علي الدولة) .. فقد قرأ ت فيه أن الناس ظلوا يجهلون أمر هذا الكتاب إلى أن عثر على نسخة منه أحد الناشرين بدمشق ، فطبعها سنة ١٩٣٦ م .

وأود أن أقف عند هذه المقولة .. التي تنص على أن (أحد الناشرين) و(بدمشق) عثر على نسخة منه فطبعها سنة ١٩٣٦ .

أما أن الكتاب طبع بدمشق سنة ١٩٣٦م فهذا حق . ولكن ناشره لم يكن من دمشق ، ولم يعثر على الكتاب بدمشق .

ولما كنت طرفاً في نشر هذا الكتاب في طبعته الثالثة التي ظهرت

عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .. فقد أحببت أن أجلو الحقيقة للقراء .

حقيقة الطبعة الأولى ذكرها الناشر الحقيقي الأستاذ السيد أسعد طرابزوني ، أمد الله في عمره ، في كلمة الناشر التي وردت في مستهل تلك الطبعة .. وقد رواها لي أيضاً شخصياً في لقائي معه سنة ١٤٠٥ هـ حيث ذكر أنه عثر على مخطوطة الكتاب في خزانة (المكتبة المحمودية) بالمدينة المنورة - والسيد أسعد ابن المدينة وبها نشأ - ففرح بها ، وعقد العزم على نشر الكتاب فاستنسخه ، وكان ناسخه هو الشيخ (عبد المعطي) ، وقام بمراجعة النسخ الشيخ محمود شويل أحد علماء الحرمين ، رحمه الله ، ثم استشار العلامة الشيخ (محمد الطيب الأنصاري) فيمن يعهد إليه بشرح غامضه والتعليق عليه ، وتفسير مشكله (أي التحقيق) ، فأشار عليه بأقدر تلاميذه الأستاذ (محمد عبد الله المدني) ، وانتهز فرصة زيارة علمين كبيرين من أعلام الأدب للمدينة المنورة ، هما أمير البيان الأمير شكيب أرسلان ، والدكتور محمد حسين هيكل ، فكتب كل منهما مقدمة للكتاب ، وحلاًه بصورة الملك عبد العزيز - رحمه الله - الذي أهدي إليه الكتاب .

أما ملتزم الطبع فهي مطبعة الترقي بدمشق لصاحبها الأديب (صالح الجيلاني) ، وأسند الإشراف على تصحيح الكتاب إلى الأستاذ محمود الحمصي ، الذي كان يشغل بعض الوظائف العلمية في الحجاز ثم عاد إلى دمشق .

وهكذا نعلم أنه لم يعثر على الكتاب بدمشق ، وإنما عثر عليه بالمدينة المنورة ، وأن ناشره من أهل المدينة المنورة نفسها .. وتسوقني المناسبة إلى قصة طريفة :

فقد زارني في مكتبي بالرياض الأستاذ السيد أسعد طرابزوني ، في منتصف عام ١٤٠٥ هـ ، حيث سعدتُ بمعرفته لأول مرة ، وكانت زيارته من أجل هذا الكتاب نفسه .. حيث رغب في إخراجه في طبعة جديدة مصورة عن الطبعة الأولى .. وقصّ عليّ قصة الطبعة الأولى .. التي أتيت على طرف منها آنفاً .. وقال إنه طبع الكتاب أيضاً طبعة ثانية .. ولكن لم يعد يمتلك أية نسخة لا من طبعته الأولى ، ولا من طبعته الثانية .. ولم أعجب لذلك كثيراً ، فهو رجل كريم ، ويحب نشر العلم وتعميمه .. وبهذا الوازع نشر عدداً من الكتب بينها نفائس ونوادر .. وكان فيها سبّاقاً ..

قلت له : لقد قرأت (عبث الوليد) وأنا طالب في الابتدائية وإنني حاولت أن أفهم ماذا يريد أن يقول أبو العلاء فاستعصى عليّ فهمه ، فقد كانت لغته ومحتواه فوق مستواي ، ولكنني كنت أكابر لأقنع نفسي بأنني قرأت أبا العلاء .. بيد أنني صارحت محدثي في شكي الكبير أن أعثر على تلك النسخة التي لها في مكتبتي حوالي خمسين سنة .. ومكتبتي خضعت لتنقلات كثيرة .. ولم ينلها ترتيب ولا تنسيق ، ولا تبويب .. ولا يزال معظمها حبيساً في الكراتين .. ولكني وعدته أن أبذل الجهد في البحث عن تلك النسخة .. فإن وجدتها وضعتها بين يديه .. ثم كان مالم يكن متوقعاً ، فقد أعثرت على النسخة .. وكان أن صدرت الطبعة الثالثة مصورة عن الطبعة الأولى ..

هذا عن تصحيح المعلومة الواردة في المقال ..

بقي حديث يتصل بتحقيق الكتاب ، بين محققه الأول الأستاذ محمد عبد الله المدني ، وبين محققته في طبعته البيروتية ١٩٧٩م التي لم أطلع عليها .. تقول السيدة ناديا الدولة - كما جاء في مقال المجلة - عن الطبعة الأولى ، إنها لم تحظ بتحقيق علمي دقيق ، ولم ينبه - غالباً - على ما في

الأصل من تصحيف وتحريف أو سقط أو اضطراب ، بل لقد أضيفت إليها مواضع كثيرة وقع فيها الناشر لصعوبة القراءة في النسخة المنقول عنها ، ولم يعن بضبط النص حتى في المواضع التي لا تفهم إلا بالضبط ، ولم ينهض إلى تتبع مسائل الكتاب ومشكلاته في مظانها ، ومعارضة ما يقوله أبو العلاء بما قاله السلف من اتفاق أو اختلاف ..

هذا بعض نقد السيدة المحققة للكتاب في طبعته الأولى ، وهو نقد مهذب بلا شك .. ولكن إذا عُلم أن إخراج الكتاب في طبعته الأولى تلك إنما تم قبل خمسين عاماً ، أي في الوقت الذي كان فيه علم التحقيق في البلاد العربية علماً ناشئاً ، بدأت بواكيره في مصر ، على أيدي رجال قلائل لعلهم تأثروا في ذلك بالمنهج الاستشراقي .. فإذا تصدى الأستاذ محمد عبد الله المدني لهذه المهمة الثقيلة التي كُلّف بها تكليفاً ، وبذل فيها غاية جهده .. فقد اضطلع بعمل جيد يشكر عليه ، ويجب أن ينوه بذكره وفضله ٠

أكتب هذا ، وأنا لا أعرف هذا الرجل ، ولا أعرف شيئاً عنه ، ولكن أحس أنه قد صادف مشاق في تصحيح الكتاب ، والتعليق عليه ، على ضعف الوسائل والإمكانات التي كانت متاحة آنذاك في بلد صغير كالمدينة المنورة ٠ ومن حقه أن ينوه بعمله ويشكر عليه ، وألا يغمط جهده ٠

ولقد حدثنا في كلمته التي جاءت في مستهل الكتاب ، عما وجد من مشقة وعناء في التصحيح والمقابلة ، وذكر أن نسخة الكتاب الوحيدة التي توفرت له هي نسخة المكتبة المحمودية ، وهي نفسها التي اعتمدتها أصلاً بعد خمسين سنة السيدة ناديا .. ثم نالت على جهودها - وهي مشكورة - شهادة الماجستير .. ألا يستحق الأستاذ المدني كلمة شكر وثناء إن لم ينل شيئاً من الشهادات ؟ خاصة إذا علمنا أن تحقيقاته وتصحيحاته أخذت

حوالي نصف حجم الكتاب ..

من تحقيقاته على سبيل المثال ، أن أبا العلاء أورد بيت الشاعر :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ　　　يبنون من دون سيلها العرما

ولم ينسبه ، فنسبه المحقق للنابغة الجَعْدي ، وضَبَط الكلمات ، وكذلك أورد قول الشاعر ، والنص بعده مباشرة : وقال الآخر :

ظلت تطاردها الوِلدان من سبأ　　　كأنهم تحت دفيها الدحاريج

فصحح المحقق وقال إن البيت للنابغة أيضاً .. أي أنه ليس لآخر كما ذكر أبو العلاء ، ثم فسر ألفاظ البيت ..

أليس هذا الجهد الكبير جديراً بالتقدير .. ؟

* * *

على حواشي الروض (١) *

هذه ملاحظات دونتها أثناء مطالعاتي لكتاب (الروض الأنف) للإمام السهيلي ، بتحقيق الأستاذ عبد الرحمن الوكيل الذي أخرجه في ثماني مجلدات سنة ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧م ، وقد خدمه جزاه الله خيراً بهوامشه وتحقيقاته ، ولكن هذا الكتاب الجليل يحتاج في نظري إلى مزيد من العناية ، كما يحتاج إلى الفهارس الفنية التي تقرب مادته الغزيرة إلى الباحثين في سيرة الرسول الكريم ، عليه أفضل الصلاة والتسليم ·

١ - ولعل أول ما يلفت النظر أن الأستاذ المحقق ترجم في مقدمة الكتاب ، أعني مقدمة التحقيق ، للفرسان الثلاثة الذين خدموا السيرة النبوية الشريفة ، أعني ابن إسحاق ، مدونها ، وابن هشام ، مهذبها ، والسهيلي ، شارحها · ولكن ترجمة ابن هشام لديه كانت موجزة جداً ، فلم تتجاوز صفحة واحدة .. بينما هو جدير بالحفاوة ، وبأن ينال من الترجمة أوفاها ، وأوفرها .. ولعله اعتمد على أن السهيلي ترجمه .. ولكنه لم يقل ذلك .. وحتى لو قاله .. لظل ابن هشام في حاجة إلى ترجمة مسهبة حديثة ، فقد جاء بنص كتابه كاملاً إلى جوار نص كتاب الروض .. بينما ترجمته عند السهيلي لم تزد عن سطور

---

* نشر في العدد (١١٦) من المجلة العربية ، الصادر في رمضان ١٤٠٧هـ = أيار(مايو) ١٩٨٧ م ·

قلائل ، وليس فيها كبير غناء .. ولو وفى الأستاذ الوكيل الكلام عنه لأحسن صنعاً .

٢ - وهناك شخص مهم بالنسبة لكُتَّاب السيرة هو البَكَّائي ، زياد بن عبد الله ، وهو ممن اعتمد عليهم ابن هشام في رواية السيرة عن ابن إسحاق ، بل هو عنده في مكان الأولية ، كما يشير إلى ذلك في منهجه الذي صرح به في أوائل الكتاب ، حينما قال إنه : (تاركٌ بعضَ ما ذكره ابن إسحاق ، مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شيء ، وليس سبباً في شيء من هذا الكتاب ، ولا تفسيراً له ، ولا شاهداً عليه ، لما ذكرتُ من الاختصار . وأشعاراً ذكرها لم أجد أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يَشْنُع الحديث به ، وبعضٌ يسوء بعضَ الناس ذكرُه ، وبعضٌ لم يُقِرَّ لنا البَكَّائي بروايته . ومستقصٍ - إن شاء الله تعالى - ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له ، والعلم به) .

وهكذا نرى أهمية رواية البَكَّائي لديه ، وأنه يمتنع عن رواية ما لا يقره .

وكنت أرجو أيضاً ، من أجل هذا الذي ذكرت عن أهمية البَكَّائي ، أن يحدثنا المحقق عنه حديثاً مشبعاً ؛ حقاً لقد تحدث عنه في هامش ص ١٩ من الجزء الأول فترجمه ، وقال : تركه ابن المديني ، وضعفه النسائي وابن سعد ، وقال أبو زرعة : صدوق ، وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به ، ولكنه من أثبت الناس في سيرة ابن إسحاق ، وقال أحمد : ليس به بأس .

قال ذلك ، ولم يفصل مهمته في رواية السيرة ، مع أن السهيلي نص في مقدمته على أنه شيخ ابن هشام ، وقال عنه إنه « ثقة ، خرّج عنه البخاري في كتاب الجهاد ، وخرّج عنه مسلم في مواضع من كتابه ، وحسبك بهذا تزكية » .

وهنا علق المحقق في الهامش قائلاً : تركه ابن المديني ، وضعفه النسائي

وابن سعد ، وقال : ولكنه أثبت الناس في سيرة ابن إسحاق ، وقال أحمد : ليس به بأس ، وقال ابن عدي : ما أرى بروايته بأساً . وقال أبو زرعة : صدوق . وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به . مات سنة ١٨٣ هـ كما ذكر ابن سعد) ص ٤٠ ، وفي هذا الهامش تكرار لما ذكره في ص ١٩ ، دون أن يشير إلى ذلك . ويلاحظ هنا ، أنه لم يناقش ما قاله السهيلي عن توثيقه والثناء عليه ، واستشهاده بما خرّجه عنه البخاري ومسلم ، بل لقد استرسل السهيلي متحدثاً عنه : « وقد روى زياد عن حميد الطويل ، وذكر البخاري في التاريخ عن وكيع قال : زياد أشرف من أن يكذب في الحديث ، ووهم الترمذي فقال في كتابه عن البخاري : قال : قال وكيع : زياد بن عبد الله على شرفه ، يكذب في الحديث ، وهذا وهم ، ولم يقل وكيع فيه إلا ما ذكره البخاري في تاريخه ، ولو رماه وكيع بالكذب ما خرّج البخاري عنه حديثاً ، ولا مسلم .... » .

وهكذا نرى السهيلي متحمساً في الدفاع عن البَكّائي . . وعلى أية حال يكفينا ما قاله عنه ابن سعد من أنه أثبت الناس في سيرة ابن إسحاق . . كما يكفينا ما قاله ابن هشام من أن هناك في السيرة مالم يقره البَكّائي .

٣ - في ص ٥٤ ج ١ ، أورد المحقق في الهامش كلمة عن الحطيئة الشاعر ، يعرّف به .. ولكنه لم يذكر سنة وفاته ، وهي على وجه التقريب ٤٥هـ/٦٦٥م . ونقل تعريفاً به من (مهذب الأغاني) قال فيه عنه : إنه أسلم ثم ارتد .. ولم يعقب بشيء على هذه المقولة .. والمعروف أن الحطيئة عاد فأسلم .. أما خاتمته فالله بها عليم .. وأما رقة دينه فأمرها معروف .

٤ - مع اعترافي بالجهد الكبير الذي بذله المحقق في إخراج كتاب (الروض) ، وبالهوامش الكثيرة المفيدة التي سجلها في حواشيه ، إلا أنني

لاحظت أنه قد يمر على كثير من أسماء الأعلام دون أن يعرّف بها ، أو يتريث لديها ، وبعضها من الأهمية بمكان ، خاصة من كان ذا صلة بموضوع الكتاب ، مثل رواة السيرة عن ابن إسحاق ، فإن التعريف بهم قد يصل استحسانه إلى درجة الوجوب ، فقد ذكر السهيلي من رواته - أعني رواة الكتاب عن ابن إسحاق - كلاً من يونس بن بكير الشيباني ، ومحمد بن فليح ، وابراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن إدريس ، وسلمة بن الفضل الأسدي ، هؤلاء عدا البَكّائي الذي سلف الحديث عنه .. (انظر ص ٤٠ ج١) . وسأحاول هنا التعريف بهؤلاء الرجال ، ومرجعي في ذلك كتاب (الأعلام) للزركلي .

أما يونس بن بكير بن واصل الشيباني ، فهو أبو بكر ، توفي سنة ١٩٩ هـ / ٨١٥ م ، مؤرخ من حفاظ الحديث ، من أهل الكوفة ، عرّفه الذهبي واليافعي بصاحب (المغازي) . مصادر ترجمته : تذكرة الحفاظ ١/٢٩٩ ، ومرآة الجنان ١/٤٦٠ ، وتهذيب التهذيب ١١ / ٤٣٤ .

أما محمد بن فليح فلم يرد عنه شيء في أعلام الزركلي [(١)] .

وأما إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، فهو أبو إسحاق الزهري .. ولد سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٧ م ، وتوفي سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م ، وكما هو واضح فهو من أحفاد الصحابي المشهور عبد الرحمن بن عوف ، أحد

---

(١) محمد بن فليح بن سليمان المدني . سمع موسى بن عقبة وهشام بن عروة . وعنه إبراهيم بن المنذر ومحمد بن إسحاق المسيبي وجماعة . قال أبو حاتم : ما به بأس ، وليس بذاك القوي . وقال البخاري : مات سنة (١٩٧) ، ووثّقه بعضهم ، وهو أوثق من أبيه . وقال معاوية بن صالح عن ابن معين : ليس بثقة . ميزان الاعتدال : ٤ / ١٠ . [المصحح] .

العشرة المبشرين بالجنة ، وكان يضرب العود ويغني عليه ، كما كان من علماء الحديث الثقات . روى له البخاري ومسلم ، وولي القضاء ببغداد ، وبها توفي ، وبقي من آثاره نحو ٢٠ صفحة بعنوان (نسخة إبراهيم) مخطوطة بدار الكتب ، وهي في الحديث . مصادره : نهاية الأرب ٢٤٧/٤ ، والعبر ٢٨٨/١ ، وتاريخ التراث ٢٧١/١ ، والجمع [١] ١٦ وفيه ولادته ١١٠ ، ووفاته ١٨٣ ، وتاريخ بغداد ٨١/٦ وفيه الاختلاف في تاريخ وفاته .

أما عبد الله بن إدريس ، الأودي الكوفي ، فولد سنة ١٢٠ هـ / ٧٣٨ م ، وتوفي سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م ، من أعلام حفاظ الحديث ، كان فاضلاً عابداً ، حجةً فيما يرويه ، أراد الرشيد توليته القضاء فامتنع تورُّعاً ، ووصله فردَّ عليه صلته ، وسأله أن يحدِّث ابنه ، فقال : إذا جاءنا مع الجماعة حدثناه ! فقال : وددت أني لم أكن رأيتك . فقال : وأنا وددت أني لم أكن رأيتك ! وكان مذهبه في الفتيا مذهب أهل المدينة . مراجع التعريف به : تذكرة الحفاظ ٢٥٩/١ ، وتهذيب التهذيب ١٤٤/٥ ، وتاريخ بغداد ٤١٥/٩ .

أما سلمة بن الفضل الأسدي ، فلم أجده في أعلام الزركلي [٢] .

٥ - وفي كتاب الروض نقول كثيرة من مصادر متنوعة ، تدل على سعة اطلاع الإمام السهيلي ، وحسن تَهَدِّيه لمصادره ، وقد أشار إلى كثرة مراجعه في

---

(١) يعني كتاب « الجمع بين كتابي أبي نصر الكلاباذي وأبي بكر الأصبهاني في رجال البخاري ومسلم » / لابن القيسراني ، طبع بحيدر آباد سنة ١٣٢٣هـ . [المصحح] .

(٢) سلمة بن الفضل الأبرش الرازي ، أبو عبد الله قاضي الري ، روى المغازي عن ابن إسحاق . قال ابن معين : كان يتشيّع وكان معلِّم كُتاب . وقال أبو حاتم :محله الصدق ، في حديثه إنكار لا يمكن أن أطلق لساني فيه بأكثر من هذا . وقال ابن سعد : ثقة ، توفي سنة ١٩١ وروى له أبو داود والترمذي . الوافي بالوفيات : ١٥ / ٣٢٢ . [المصحح] .

مقدمة كتابه ، كما أبرزها المحقق في مقدمته ، جزاه الله خيراً ، ولكني كنت أطمع أيضاً أن يقف عند هذه المصادر ، كلما ذُكرت ، ليعرف بها ، وأن يذكر صفحات النصوص للمطبوع منها .. على سبيل المثال ، يذكر السهيلي ، الطبري ، والماوردي ، وأبا حنيفة الدينوري ، وغيرهم ، وهي مراجع تزيد عن مائة وعشرين مرجعاً ، كما صرح السهيلي نفسه بذلك .

٦ - في ج ١/٨٧ ورد في المتن ذكر (هاجر) أم إسماعيل ، فعلّق المحقق عنها بكلمتين اثنتين لم يزد عليهما في شرح لفظ (سُرِّيَّة) فقال : « جارية مملوكة » ، مع أن هذا لا يعد تفسيراً كاملاً لمعنى (السُّرِّيَّة) .. هي حقاً جارية مملوكة ، ولكن يتسرى بها سيدها ، فليس كل جارية مملوكة سرية .. بينما كل سرية هي جارية مملوكة تصبح أم ولد متى استولدها صاحبها ، وكنت أرجو أن يعطينا تعريفاً حديثاً للسيدة هاجر .

٧ - في ج ١ ص ٢٠٢ من الروض تحدث السهيلي عن اسم الله الأعظم وقال : محال أن يخلو القرآن عن ذلك الاسم ، والله تعالى يقول : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ { سورة الأنعام من الآية ٣٨ } . علّق المحقق على ذلك في الهامش قائلاً في تفسير كلمة الكتاب : (هو الكتاب الذي كتب الله فيه كل شيء قبل الخلق ، لا القرآن) ، وهو بذلك يختلف مع الإمام السهيلي ، ولا ضير في ذلك ، ولكنه اكتفى بهذه العبارة المقتضبة ، دون أن يورد عليها دليلاً ، ودون أن يحتجَّ لقوله ، ويذكر أسباب اعتراضه عليه .

٨ - وذهب الإمام السهيلي في ج ١ ص ٢١١ في تفسير الآية الكريمة : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾{ سورة آل عمران من الآية ١٦٩ } - إلى أن أجساد الشهداء تبقى فلا تبلى ، واستدل على ذلك

بشهداء (أحد) وغيرهم الذين لم يتغيروا رغم الدهور مثل حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه ، فإنه وجد حين حفر معاوية العين صحيحاً لم يتغير ، وأصابت الفأس إصبعه فدميت ، وكذلك أبو جابر عبدالله بن حرام ، وعمرو بن الجموح ، وطلحة بن عبيدالله رضي الله عنهم ، استخرجته ابنته عائشة من قبره حين رأته في المنام ، فأمرها أن تنقله من موضعه ، فاستخرجته من موضعه بعد ثلاثين سنة ، ذكره ابن قتيبة في المعارف ، والأخبار بذلك صحيحة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : (إن الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساء الأنبياء) .

هذا من كلام الإمام السهيلي ، وقد استرسل فيه .. ولكن الأستاذ المحقق علّق على ذلك في موضعين بالهامش . قال في تفسير الآية الكريمة : إنها تقول : ﴿ عند ربهم ﴾ لا في قبورهم ، كما يريد السهيلي أن يفهم هو ومن يذهب معهم مذاهبهم . أما الموضع الثاني ، فذكره تعليقاً على قول السهيلي (والأخبار بذلك صحيحة) ، فقد قال في الهامش إنها أساطير ، فما ورد شيء من هذا في الكتاب ولا في السنة ، وأن حياة الشهداء عند ربهم حياة غيبية نؤمن بها ، ولا نكلف أنفسنا البحث عن حقيقتها ، ولا نكفر بها ، وأنه ليست كرامة الشهداء في بقاء أجسادهم ، وإلا فقد بقيت أجساد كفرة عشرات السنين بل مئاتها ، إلى أن قال : وجميع الأحاديث الصحيحة التي تحدثت عن حياة الشهداء لم تذكر شيئاً مما ذهب إليه السهيلي . أهـ .

وقد كنت أود من الأستاذ الوكيل أن يستقصي الحوادث التي أشار إليها السهيلي ، وأن يورد أيضاً بعض الأحاديث التي أشار إليها ، خاصة وأن السهيلي عاد إلى هذا الموضوع في ص ٢١٦ ، ٢١٧ من الجزء نفسه ، فذكر أن الغلام (ثامر) صاحب قصة الأخدود بنجران أخرجت جثته زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقال إن هذا ورد في حديث رواه الترمذي ومسلم .. ولم يعلّق

هنا الأستاذ الوكيل بشيء ، وكنت أرجو أن يفعل .

أما ما قاله عن بقاء أجساد بعض الكفرة ، فهو حق ، وهذا ما هو معروف عن بعض أجساد الفراعنة الذين بقيت أجسادهم بسبب التحنيط ، بقاؤها عبرة لمن أراد الاعتبار ، كما هو الحال في فرعون موسى الذي بقيت جثته بعد الغرق ، عبرة للناس ، وكان أمرها حديث الصحافة المصرية في هذا العصر .

* * *

على حواشي الروض (٢) *

أواصل في هذه الحلقة - وهي الثانية - التعقيب على تعليقات الأستاذ عبدالرحمن الوكيل في كتاب (الروض الأنف) للإمام السهيلي ، شرحاً لسيرة ابن هشام .

٩ - في الجزء الأول تحدث السهيلي عن كنيسة (القُلَّيْس) التي أراد أبرهة صرف العرب عن الكعبة إليها ، وذلك بدءاً من ص ٢٤٥ ، وقال إنها بقيت مهجورة بما فيها من ذهب وفضة وعاج وآبنس ، وكان كل من أراد أن يأخذ منها شيئاً أصابته الجن .. إلى زمن أبي العباس ، فأمر بتخريبها ، وانقطع خبرها ، ودرست آثارها .. وقال : وكان الذي يصيبهم من الجن ينسبونه إلى كعيب وامرأته ، صنمين كانت الكنيسة عليهما ، فلما كسر كعيب وامرأته أصيب الذي كسره بجذام ، فافتتن بذلك رعاع اليمن وطغامهم ، وقالوا : أصابه كعيب .

لقد علق الأستاذ المحقق هنا فقال ما نصه : « عجيب من السهيلي ترديد ما لا يصدقه شرع ولا عقل » .

أقول : لا أرى هذا محلاً للوم السهيلي ، فهو لم يقل إنه يؤمن بهذا الكلام أو يصدقه ، إنما شأنه في إيراد هذه الروايات شأن غيره من المؤرخين

---

* نشر في العدد (١١٧) من المجلة العربية ، الصادر في شوال ١٤٠٧هـ = حزيران (يونيو) ١٩٨٧م .

القدامى الذين يوردون الغث والسمين ، وكتب التاريخ مليئة بمثل هذه الأقاويل ، ويلاحظ أن السهيلي قال : « ينسبونه » ، كما ذكر أن الذين افتتنوا إنما هم رعاع وطغام ، أي أن الذين يقولون هذه الأقاويل إنما هم فريق من الناس لا عقول لهم ، من الذين يوجدون في كل زمان ومكان . . ولا ننسى أنه وردت روايات عند كسر بعض أصنام الجاهلية تدل على خروج أشباح منها ، ثم إن السهيلي لم يقل إن إصابة الرجل الذي كسر كعيباً بالجذام إنما كانت بسبب إقدامه على الكسر ، وإنما صادف وقوعه له ، على أني أرى في تعبير السهيلي (برعاع وطغام) ما يدل على استهجانه لهذا الاعتقاد .

١٠ – ص ٢٥١ من الجزء الأول ، ذكر الإمام السهيلي عمير بن قيس إذ ورد اسمه في السيرة ، لأنه من كنانة ، الذين كان منهم النسأة الذين كانوا ينسأون الشهور ، وهو الذي يقول مفتخراً بذلك على العرب { ج ١ ص ٢٤٥ } :

لقد علمت مَعَدٌّ أن قومي كرامُ الناس أنَّ لهم كراما
فأي الناس فاتونا بوتر وأي الناس لم نُعْلِك لجاما ؟
ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما ؟

وقد شرح السهيلي معنى هذه الأبيات ، وقال عن عُمير : « وكان عمير هذا من أطول الناس ، وهو مذكور في مُقبِّلي الظُّعُن ، وسمي (جذل الطعان) لثباته في الحرب ، كأنه جذل شجرة واقف ، وقيل : لأنه كان يُستشفى برأيه ، ويُستراح إليه كما تستريح البهيمة الجرباء إلى الجذل تحتكُّ به » .

ويبدو أن الأستاذ المحقق اكتفى بما ذكره السهيلي عن عُمير بن قيس ، دون أن يزيدنا تعريفاً به . كما لم يشرح قول السهيلي : (وهو مذكور في مُقَبِّلي الظُّعُن) فما معنى (مُقَبِّلي الظُّعُن) ؟ ومن هم ؟

أقول : أما عمير بن قيس فهو من فوات (الأعلام) لم يذكره الزركلي ،

ولعل فيما ذكره السهيلي عنه غناء ؛ وأما مُقَبِّلُو الظُّعُنِ فهم رجال من العرب اشتهروا في الجاهلية ، تعدِّدهم كتب الأدب ، كان يقال لكل واحد منهم : مقبِّل الظعينة . والظعينة : المرأة في الهودج ، كان كل واحد منهم يستطيع لفرط طوله أن يقبل المرأة ، وهي على هودجها أو دابتها ، وقد ذكروا منهم زيد الخيل الذي سماه الرسول ﷺ بعد إسلامه زيد الخير .

١١ - في ص ٢٧٠ من الجزء الأول ذكر السهيلي أن قصة الفيل كانت أول المحرم من سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذي القرنين .

وقد استوقفني قوله : (من تاريخ ذي القرنين) ، ولم أعرف ما هذا التاريخ ؟ فلم يمر عليٍّ في مطالعاتي ، ولم يسعفني الأستاذ المحقق بشيء في هوامشه ، فلعل من القراء من عنده علم عنه فيفيدني ويفيد القراء ، وجزاه الله خيراً (١) .

١٢ - في ص ٣١١ من الجزء الأول علق الإمام السهيلي على شعر لعدي ابن زيد العبادي فقال ما نصه :

(وذكر شعر عدي بن زيد العِبَادي ، نُسب إلى العِبَاد وهم من عبد القيس ابن أفصى بن دُعْمِيٍّ بن جَدِيلة بن أسد بن ربيعة ، قيل إنهم انتسلوا من أربعة : عبدالمسيح ، وعبد كلال ، وعبدالله ، وعبد ياليل ، وكذلك سائرهم في اسم كل واحد منهم ، عبد ، وكانوا قدموا على ملك فَتَسَمَّوْا له ، فقال : أنتم العِبَاد ، فَسُمُّوا بذلك ، وقد قيل غير هذا ، وفي الحديث المسند : « أبعد الناس عن الإسلام الروم والعِبَاد » (٢) ، وأحسبهم هؤلاء لأنهم تنصروا وهم من ربيعة ، ثم

---

(١) ينظر البداية والنهاية ج ٢ ص ١٠٥ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٥ ص ٢٥٤. [المصحح] .

(٢) رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده . انظر المطالب العالية لابن حجر :١٤٦/٤(ح ٤١٩٠). وقد قال محققه : « وإسناده جيد إن كان موسى بن أبي عائشة سمع سلمان » . [المصحح] .

من بني عبدالقيس ، والله أعلم) .

هذا نص ما ذكره السهيلي ، وقد علّق الأستاذ الوكيل على الحديث الذي أورده بقوله : (لا أدري من أين يأتي بما لا يتفق مع هدي النبوة وحكمتها) .

وقد عُدت إلى النص السابق عدة مرات أقرأه ، أتأمله لأرى أين تلك المقولة التي أوردها السهيلي وهي لا تتفق مع هدي النبوة وحكمتها .. لقد أورد نصاً لحديث .. كنت أتمنى أن يكون تعليقه عليه موضوعياً وعلمياً .. فإما أن ينفي وروده في كتب الحديث ، وإما أن يعزوه إلى الموضوعات ، أو يضعفه أو يطعن في رواته .. أما هذا الحكم المعمم المرسل ، فلا يكفي رداً ولا نقداً ..

١٣- ترد عند السهيلي إشارات إلى رجال روى عنهم أو أخذ من أقوالهم ، فلا يتريث عندهم الأستاذ المحقق ولا يحاول أن يعرفنا بهم ولو بكلمتين موجزتين في هوامشه .. على سبيل المثال أذكر في ص ٣٢٩ من الجزء الأول قال : « حدثنا إجازةً القاضي الحافظ أبو بكر عن ابن أيوب .. » إلخ ، فلم يذكر لنا من هو هذا القاضي الحافظ أبو بكر الذي أخذ عنه السهيلي ؟ وكنت أتمنى أن يُذكِّر القارىء بأنه شيخه أبو بكر بن العربي ، وابن العربي هذا هو صاحب كتاب (العواصم من القواصم) ، وليس ابن العربي محيي الدين المتصوف .

١٤ - في ص ٣٨٥ من الجزء الأول قال السهيلي : (قال جرير بن عطية أحد بني كليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم يمدح هشام بن عبد الملك بن مروان :

فما الأمُّ التي ولدت قريشاً ... بِمُقْرِفَةِ النِّجار ، ولا عقيم

وما قَرْمٌ بأنجب من أبيكم ... وما خالٌ بأكْرَمَ من تميم

وكنت أتمنى هنا أن يورد الأستاذ المحقق تعريفاً موجزاً بالشاعر جرير بن الخطفى ٢٩ هـ / ٦٤٠ م - ١١٠ هـ/ ٦٢٨ .

١٥- في ص ٤٣٥ من الجزء الأول أورد السهيلي في الروض شعراً لفاطمة بنت الأحجم ، ولكن الأستاذ المحقق دلنا على أن السهيلي لم يورد إلا بيتاً واحداً من أصل ستة أبيات وضعها هو في صلب المتن .. قائلاً : « وبقية الأبيات زدتها لروعتها من ديوان الحماسة لأبي تمام » .

وكان الأولى أن يضع هذه الأبيات المضافة في الهامش لا في صلب كتاب السهيلي ، ليضيف إليه ما ليس منه . لقد عابوا على النُّسَّاخ القدامى أنهم كانوا يضيفون إلى متون الكتب ما ليس منها ، وكان له من الأمر سعة ، ولم يعرفنا المحقق بفاطمة بنت الأحجم ، وهي أيضاً من فوات الزركلي في (الأعلام) . وقد ذكرها الأستاذ (عمر رضا كحالة) في كتابه (أعلام النساء) ج٤ / ص ٢٦ ط ٢ فقال : شاعرة من شواعر العرب في الجاهلية ، رثت زوجها وإخوتها في أواخر القرن السادس للميلاد ، ثم أورد أبيات الحماسة وأبياتاً أخرى من الأمالي للقالي .. وهي فاطمة بنت الأحجم بن دندنة الخزاعية .

وبعد ، فهذا ما عنّ لي من الملاحظات على الجزء الأول من الروض الأنف ، تعقيباً على محققه الأستاذ عبد الرحمن الوكيل ، ومن الله أستمد العون والتوفيق .

* * *

على حواشي الروض (٣) *

كنت حدثت قُرَّائي عن بعض ما دوّنته تعليقاً أو تحقيقاً أو تعقيباً على الجزء الأول من كتاب (الروض الأنف) للإمام المحقق السهيلي . وذلك في طبعته التي خرجت في ثماني مجلدات ، بتحقيق الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الوكيل وتعليقه وشرحه ، جزاه الله خيراً على ما بذل فيه من جهد وعناية .

وقد تمكنت بعون من الله عز وجل وتوفيق ، من إتمام مطالعة الجزء الثاني منه ، وتدوين تعليقاتي عليه .. مطالعة متأنية بعض الشيء .

ولعلي قد حدَّثتُ قُرَّائي من قبل أيضاً أنني لا أمل التردد على هذا الكتاب القيِّم ، كلما واتتني إلى ذلك فرصة ، وقد تجمَّع لديَّ من تهميشاتي على هذا الجزء ما يصلح لاستئناف الحديث إلى قرائي عنه . على أني لا أكتمهم أنني إنما أنشر من هذه التهميشات ما يتراءى لي أنه مهم ، وأطوي ما لا أراه كذلك .. ولا أزعم أنني أتيت بشيء ذي بال ، ولكن حاولت أن أفعل .

ويحسن بي أن أبدأ بملاحظاتي على التحقيق ، فهو الجديد في هذه الطبعة :

١- في ص ١٣ ، تحدث السهيلي عن سبب نزول هاجر وإسماعيل مكة ،

---

* نشر في العدد (١٢٢) من المجلة العربية ، الصادر في ربيع الأول ١٤٠٨هـ = تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٧م .

فقال : (إن سارة بنت عم إبراهيم ، عليه السلام ، شجر بينها وبين هاجر أمر ، وساء ما بينهما ، فأمر إبراهيم أن يسير بها إلى مكة ، فاحتملها على البراق ، و احتمل معه قربة ماء ، ومزود تمر ، وسار بها حتى أنزلها بمكة في موضع البيت) .

وضع المحقق رقماً على كلمة (البراق) وذكر في هامش تعليقه ما نصه : (لم يرد له ذكر في المرويات الصحيحة ، ولم يرد في حديث يعتد به أن إبراهيم حمل هاجر إلى هناك ليرضي سارة ، بل الذي ورد أنه حملها بأمر الله ليقضي الله أمره سبحانه ، وليس إبراهيم بالرجل الذي يضع أمر امرأته فوق أمر ربه ، أو يرتكب مثل هذا ترضية لامرأته) .

وقد وقفت متأملاً عند تعليقه الثاني ، بشأن سبب حمل هاجر إلى مكة ، فليس في كلام السهيلي ما يدل على أن إبراهيم نفذ أمر امرأته لا أمر ربه . وأنه (ارتكب) شيئاً لترضية سارة ، فالسهيلي إنما ردد القصة المشهورة عن خلاف المرأتين بعد أن أنجبت هاجر إسماعيل ، واحتاط السهيلي لنفسه بتعبير (أُمِرَ) بالبناء لنائب الفاعل ، وفسر الفاعل في الحوار الذي ساقه بعد ذلك بين هاجر وإبراهيم ، فقد قالت له هاجر : (آلله أمرك أن تدعني وهذا الصبي في هذا البلد الموحش ، وليس معنا أنيس ؟ فقال : نعم . قالت : إذن لا يضيعنا) .

وهكذا نعلم أن إبراهيم عليه السلام إنما تصرف بأمر إلهي ، وليس استجابة لأمر سارة .

إذن فتعليق المحقق لا يرد على كلام السهيلي .

٢- في ص ٨١ ، ذكر السهيلي أن الإسلام رفع ما كان في الجاهلية من قولهم : يا لَفلان عند التحزُّب والتعصُّب ، وقد سمع رسول الله ﷺ يوم المريسيع رجلاً يقول : يالَلمهاجرين ! وقال آخر : يا لَلأنصار ! فقال رسول الله ﷺ :

دعوها فإنها منتنة . وقال ﷺ : من ادعى بدعوى الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا .

هذا ما قاله السهيلي ، وقد علق عليه المحقق في الهامش ، فقال فيما قال : (والحديث رواه أحمد والنسائي وابن حبان عن أبيّ بن كعب ، ورغم هذا ، أوقن أنه لا يجوز أن ينسب إلى أدب الرسول ذي الخلق العظيم مثل هذا الكلام الذي فيه نتن الأوشاب) .

هذا ما قاله المحقق ، وأنا أعجب من كلامه ، ومما انزلق إليه قلمه ، من إنكار صدور هذا الحديث عن الرسول ، بمجرد الرأي ؛ مع أنه أورد مصادر الحديث ، ولم يطعن في رواته ، وكان الأجدر أن يبحث عن مدى صحته ، وحينئذ تقوى حجته . وعلى أي حال فهذا بحث يجدر أن يتناوله المختصون بعلم الحديث ، ومهما يكن الأمر ، فإن رفض الحديث ، متى كان صحيحاً ، لمجرد الرأي مرفوض .

٣ - في ص ٧٨ وما بعدها ، أورد الإمام السهيلي قصة ابن جدعان والكنز الذي وجده وكان سبب غناه ، وتحوله إلى عمل الخير والمعروف ، وقال في نهاية كلامه : إن ابن هشام ذكر حديث كنز ابن جدعان ، وحديث مضاض بن عمرو الذي كان أحد الرجال الذين وُجدت جثثهم في مغارة الكنز - في غير هذا الكتاب (أي السيرة) ، وأنه وقع أيضاً في كتاب (ري العاطش وأنس الواحش) لأحمد بن عمار .

لقد علّق المحقق في الهامش ، فجاء تعليقه مقتصراً على خبر الكنز ، فقال : (لا ريب في أنها أسطورة ، لا يحنو عليها قلب ولا عقل . يجوز أن يقال إنه عثر على كنز دفين ، ولكن في غير ما صورت الأسطورة) .

ويبدو من هذا التعليق أن صاحبه استهلـه برفض الخبر ،على أنه أسطورة ، ثم كـأنه استـدرك فـقـال : يجـوز أنه عـثـر عـلى كنز دفـين في غـيـر مـا صـورت الأسطورة . وكان الأولى أن يناقش الجزئية التي رفضها عقله ، وهي على ما يبدو قصة الثعبان الذهبي وتحركه ٠

أقول : إننا اليوم نرى العجائب من المخترعات ، بل نشاهد عرائس الأطفال تمشي وتصيح ، وفي تاريخنا العربي ما يدل على أن بعض المخترعين العرب وصلوا إلى شيء من ذلك ، وقد جاء وصف بعضه في شعر المتنبي ٠ ولا شك أن القدامى ، من صينيين وفراعنة وهنود وغيرهم ، كانت لهم حضارات عجيبة .. فلماذا نعزو ذلك إلى الأساطير ، مادام عزوها إلى الاختراع الإنساني ممكناً ؟

قلت : إن المعلق اقتصر في تعليقه على موضوع الكنز ، وكان في الخبر جانبان جديران بالتعليق ، لم يقف عندهما ، أما الأول فهو كتاب ابن هشام الذي جاء فيه هذا الخبر غير كتاب السيرة ، ما هو هذا الكتاب ؟ وأما الثاني ، فهو كتاب أحمد بن عمار (ري العاطش وأنس الواحش) ما هو أيضا هذا الكتاب ؟ وإن كان يبدو أن هذا ليس من صميم الموضوع ، ولكن من فوائده ٠ ولعل في هذين الكتابين ، أو أحدهما على الأقل ، ما يضيف معلومات جديدة إلى حقيقة ذلك الكنز ، وهذا أمر يفيد المهتمين بالحفريات والآثار .. فلعلهم يستطيعون الاستدلال على مكان ذلك الكنز .. إن لم يكن ابن جدعان قد أتى عليه كله ، فلا أقل من معرفة الآثار ..

٤ - في ص ٨٥ ، ذكر السهيلي سبب تسمية هاشم وأنه هشم الثريد للحجاج ، وأورد أبياتاً معروفة جاء فيها :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ... قوم بمكة مسنتين عجاف

وعزاها لعبد الله بن الزبعرى ٠

وقد علّق المحقق في الهامش فقال جزاه الله خيراً ، متحدثاً عن الأبيات :

« نسبها اللسان والمرتضى في أماليه ٤/١٧٨ لمطرود بن كعب الخزاعي في رثاء عبدالمطلب ، ونسبها العيني ٤/١٤٠ ، وابن أبي الحديد ٣/٤٥٣ ، كما نسبها السهيلي إلى عبدالله بن الزبعرى ، ولها في أمالي القالي قصة تزعم أن رسول الله ﷺ هو وأبا بكر كانا عند بني شيبة فمر بهما رجل ، وهو يقول :

يا أيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد الدار

هبلتك أمك ، لو نزلت برحلهم منعوك من عدم ومن إقتار

وتزعم القصة أن الرسول ﷺ نظر إلى أبي بكر ، ثم قال : أهكذا قال الشاعر ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق ، لكنه قال :

يا أيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد مناف

وهي قصة مصنوعة ·

ومحل المناقشة هو قوله عن الحوار بين النبي ﷺ وبين صديقه الصديق ، إنها قصة مصنوعة ، فلماذا كانت مصنوعة ؟ وما هي المبررات التي جعلتها كذلك ؟ .. وهل في متن القصة حوادث غير معقولة ، أم أنها وردت عن رواة عرفوا بصناعة القصص من محض الخيال ؟ أم أن في زمان القصة ومكانها ما يجعلها غير واردة ؟ لم يجب المحقق على أي من هذه الأسئلة .. أما أنه لم يفعل ، فليس لنا أن نقبل دعواه حتى يقوم عليها دليل ·

أما بعد · فهذا ما تيسر لي من حاشية ، على حواشي الروض ...

* * *

كتاب فتوح الشام *

كتاب (فتوح الشام) للواقدي كتاب مشهور شعبياً ، بل يكاد يكون أحد أعمدة الكتب الشعبية التي كانت سائدة في القرن الهجري الرابع عشر ، أما الأعمدة الأخرى ، فهي كتب القصص الشعبية بدءاً من (ألف ليلة وليلة) وانتهاء برأس الغول ، عبوراً بالزير سالم ، وحمزة البهلوان ، والأميرة ذات الهمة ، وعنترة إلخ ..

وليس غريباً أن أضع كتاب (فتوح الشام) في مصاف الكتب الشعبية التي أسميتها ، فإن مادته لا تكاد تختلف كثيراً عن مادة هذه الكتب لدى القارىء الناقد الفاحص المتأمل ، الذي يجد فيه من الروايات والأقاصيص والأعاجيب ما يجده في تلك الكتب .

و إذا ذهبنا نلتمس شبهاً بينه وبين الكتب الشعبية الأخرى التي أوردت أسماءها فإنا نجد أمثلة لا حصر لها .. وقد يكون الفارق الوحيد هو أن كتاب (فتوح الشام) يحمل اسم الواقدي ..

والواقدي اسم ضخم .. عني بالحديث ، والتاريخ ، وأخبار المدن ، وطبقات الرجال ، بل هو يعد في ذلك أحد الرواد ، فهل يصح عقلاً أن يكون الواقدي حقاً

---

* نشر في العدد (٨٦) من المجلة العربية ، الصادر في ربيع الأول ١٤٠٥هـ = كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٤م .

هو مؤلف كتاب (فتوح الشام) رغم كل ما حمل من أعاجيب وأساطير ؟

ذلك أمر عالجته من قبل ، وعلى نحو ما ، وبشكل عرضي عابر في غير هذا المكان .. على أمل أن أعود إليه في يوم من الأيام بشكل أوفى وأوسع ·

ولا أزعم أنني سأفعل ذلك الآن .. ولكنني أحاول أن أكتب سطراً جديداً أضمه إلى سطور سلفت ، لا تخرج في فحواها عن استنكاري أن ينسب كتاب (فتوح الشام) الذي بين أيدي الناس إلى الواقدي ، وإنني أميل إلى أن كتاب (فتوح الشام) الحقيقي لابد أن يكون قابعاً في إحدى خزائن الكتب العربية المخطوطة التي لم تستكشف بعد ، وما أكثر تلك الخزائن المعلنة وغير المعلنة ، هذا إذا لم يذهب الزمان به ، ويعفّي عليه !

ولست أول من ينفي هذا الكتاب عن الواقدي ، فلم يكن لي هذا الشرف مع الأسف ، ولكني أضع نفسي ضمن القائلين بهذا النفي ·

من قبل وقفت على ما قاله (الزركلي) في الأعلام في ترجمته فقد قال : « وينسب إليه كتاب (فتوح الشام - ط) ، وأكثره مما لاتصح نسبته إليه .. » ·

لقد كان الزركلي رحمه الله حذراً حينما قال (أكثره) ، وكأنما يوحي بأن الكتاب ربما كان في لبابه تاريخاً جاداً كتبه الواقدي ، فرأى أحد الناسخين المتأخرين أن يتخذه كتاب (قصص) ، وأن يستعير له أسلوب ألف ليلة وليلة ، فقد كان الناس في بعض العهود مولعين بالقصص الشعبي الذي يمثل البطولات .. بعد أن فقدوا القدرة على القتال والجهاد والفتوح .. وركنوا إلى المجالس والمتنزهات ، والمقاهي والاستماع إلى (الحكواتي) ..

ومن بعد ، هأنذا أقرأ المقدمة الضافية التي كتبها (مارسدن جونس) لكتاب المغازي للواقدي .. حتى وصل فيها إلى الكلام عن كتب الفتوح ،

قال :

« أما فتوح الشام وفتوح العراق للواقدي ، فقد فُقدا ، ولم نعثر على أثر لهما ، وما يتداوله الناس اليوم باسم (فتوح الشام) و(فتوح العراق) وغيرهما ، فليست له إذ إنها متأخرة عنه » .

ثم يحيلنا في الهامش إلى بروكلمان (تاريخ الأدب العربي) الترجمة العربية ج ٣ ص ١٧ .

وكنت قد وقفت على ما قاله بروكلمان من قبل في بدء اهتمامي بأمر كتاب (فتوح الشام) ، فقد قال : « وهناك كتب كثيرة في الفتوح نسبت إلى الواقدي ، وكثر انتشارها خصوصاً في أيام الحروب الصليبية ، لبث الشجاعة والحمية في نفوس المجاهدين ، على أن كتب الفتوح للواقدي ذكرها أبو تمام في الديوان ١٨٢ س ٦ ، وأبو هلال العسكري ، والغانمي عند ابن الأثير في المثل السائر ٣٣٢ » .

ثم يمضي بروكلمان فيذكر مخطوطات كتاب (فتوح الشام) الموجودة في المكتبات ..

* * *

في غيابة الجب *

من بين الكتب التي أصدرها نادي المدينة المنورة الأدبي ديوان (في غيابة الجب) للشاعر المصري الأستاذ علي الفقي . وقد تلطف شاعر الديوان بإهدائه إليّ .

والديوان مجموعة قصائد بدأ الشاعر في نظمها في أعقاب هزيمة يونيه ١٩٦٧م كما قال في مقدمته . وكان لا يحتفظ بأصولها ، بل يحفظها غيباً ، ثم يمزّق تلك الأصول بعد أن يستودعها صدره ، حيث لا تصل إليها العيون والآذان ، فلقد كان للعيون والآذان في مصر على ذلك العهد شأن وأي شأن ، أو كما قال :

واصطنَعْتَ الذئاب في كل شبرٍ	يقطعون الطريق عن كل عابرْ
ونَشَرْتَ العيونَ في الشعب والآ	ذانَ تصغي لما تُكِنُّ الضمائرْ

وهكذا استطاع الشاعر أن يسجل في صدره ما لم يسعه أن يسجله على الورق ، ثم استطاع بعد أن انجاب كابوس الطغيان أن يخرج ذلك الرصيد المدفون في أعماق الذاكرة ديواناً سوياً ، يقص - شعراً - قصة عهد مظلم ، أو قصة غيابة الجب ، كما سماها الشاعر ، هذه التسمية المستمدة من قصة يوسف في

* نشر في العدد (٨٠) من المجلة العربية لصادر في رمضان ١٤٠٤هـ = حزيران (يونيو) ١٩٨٤م .

القرآن الكريم ، لتقرأها الأجيال عبر الكلمة الموسقة .

ويطالع قارىء الديوان أول ما يطالع قصيدة الإهداء ، حيث أهدى ديوانه إلى صنفين من الناس ، صنف قضى نحبه شهيداً ، وصنف كان ينتظر أو ينظر ، فالأول :

فمات شهيدَ الحقِّ ، لا الوِزْرُ وِزْرُهُ ... ولا هو في شرع العدالة جانِ

أما الآخر :

ومنهم فريق ، عاش في الدهر ميتاً ... يعدُّ الخطا ، في ذِلةٍ وهوانِ

وهذا الفريق هو الذي :

فلا يومه ضاحي الأسارير مشرقٌ ... ولا غده طَلْقُ البشاشة حانِ

يُقَضّي على الأوهام أيامَ عمره ... ويَقْضِي لياليه بغير أماني

أما قصيدته في غيابة الجب ، ففيها لوحات عن تلك الفترة التي انقلبت فيها بمصر الموازين ، هاهو يصور بعضها مخاطباً نفسه :

واهدئي لا تعجبي من عاطل ... عَزَّ قَدْراً ، وهو دون الحُلُم

اصمتي لا تنطقي عن جاهل ... صار بين الناس ربَّ القلمِ

ولئيمٍ مسرفٍ في غيِّه ... مَلَكَ الأمرَ ، ولما يرحمِ

وانظري حولك كم من مُلْهَمٍ ... واصرخي يا ليته لم يُلهَمِ

انظريه قابعاً مغتنماً ... نِعْمةَ القيد ، وتكميم الفمِ

أسدل الستر عليه وانزوى ... يتردَّى في دروب العدمِ

والليالي حوله مثقلةٌ ... بظلامٍ ، فَجْرُهُ لم يُعْلَمِ

وتجري قصائد الديوان على مثل هذه المعاني يتفنن فيها الشاعر ، ويشير أحياناً إلى بعض الأحداث ، ولو عن طريق الإيماء ، وقد تكون القصيدة التي استشهدت ببعض فقراتها أمثل قصائد الديوان ، على جودتها كلها ، وإن لم

تخل أحياناً من أبيات هي بالنظم ألصق ، مثل قوله :

بعد ذا يا نفس تغريك المنى   أضَلالاً تبتغين الرَّشَدا ؟

وأسلوب الشاعر أسلوب الخطاب المباشر ، أو أسلوب المبادهة ، وهي المدرسة المألوفة في شعرنا العربي ، فهو يصور الواقع في جهارة ، ولا يلجأ إلى التغليف الخيالي إن صح هذا الاستعمال ، ولنتأمل قوله :

قد بذرتَ البغضاء في الشعب حتى   لم يعد فيه من يصون الذماما

وإذا الابنُ نافرٌ من أبيه   والشقيقان قطّعا الأرحاما

على أنني لا أريد أن أكثر من الوقوف بين قصائد الديوان ، وإن كانت جديرة بذلك ، ولكن يكفي أن أدل على عناوين بعض القصائد التي تثير الانتباه مثل (دمع الثكالى) و (السنون العجاف) و (غربة الروح) التي يقول فيها واصفاً شباب مصر الذي أقبل على الهجرة :

أَخْطَأَتْهُ المنى ، وضاقت به الدنيا   وأَلْوَتْ به الخطوبُ العوادي

فمضى ناقماً ، وألقى عصاه   لبلادٍ تُلْقِي به لبلادِ

ضارباً يعبر الدجى كسجينٍ   فرَّ ، كالسهم من يد الجلَّادِ

لهف نفسٍ ، وغربة الروح أقسى   عند حُرٍّ من غربة الأجسادِ

* * *

فوات الأعلام *

أما الأعلام فهو كتاب التراجم المشهور للأستاذ الزركلي رحمه الله .

وأما الفوات فهم أولئك الأعلام الذين فات الزركليَّ أن يذكرهم في كتابه حتى في طبعته الأخيرة (الرابعة) .

والكلمة مستعارة من ابن شاكر الكتبي ، محمد (ت ٧٦٤هـ) صاحب (فوات الوفيات) الكتاب المعروف ، الذي كتبه ترجمة للأعيان الذين لم يرد لهم ذكر في كتاب ابن خلكان المشهور (وفيات الأعيان) . فبودي أن لو تصدى مؤلف ضليع لتلك الأسماء التي فات ذكرُها الأستاذَ الزركليَّ ، على سعة علمه ، وشمول كتابه ، وما تميز به من ضبط وجودة ، قلما تتوفر لكتاب في مثل هذا الحجم الكبير ، ولكن الكمال لله وحده ، وجل من لا يسهو ولا يخطىء، ومن تفرد وحده بالكمال والجلال ! .

أقول بودي لو تصدى باحث ضليع لتلك الأسماء فاستدركها في كتاب ، وهو عمل أدبي جليل نتطلع إلى من يضطلع به ، بل بودي لو كان مع هذا العمل عمل آخر عظيم هو الترجمة أيضا للأعلام التي جاءت وفياتها بعد وفاة الزركلي .

وبسد هاتين الثغرتين يظل كتاب الأعلام بملاحقه المأمولة مرجعاً متجدداً لا

---

* نشر في العدد (٧٨) من المجلة العربية ، الصادر في رجب ١٤٠٤هـ = نيسان (أبريل) ١٩٨٤م .

تقف تراجمه عند عصر بعينه .

ولقد كان الأستاذ الزركلي حفياً بكتابه هذا كل الحفاوة ، وكان يعيد النظر فيه عند كل طبعة جديدة من طبعاته ، بل لقد اتسعت المسافة جدا بين طبعة الكتاب الأولى وطبعته الثانية ، ولمن شاء أن يقف على قصة هذه الطبعات أن يرجع إلى مقدمة بل مقدمات الأعلام ذاته .

وكان من حفاوة الزركلي رحمه الله عنايته بكل ملاحظة تصل إليه ، أو استدراك يكتب له عنه ، ولقد فعلت ذلك في شخصيات قليلة كتبت إليه في شأنها ، فاستدركها في طبعة كتابه الرابعة ، جزاه الله خيراً ، وأحسن مثوبته ومثواه .

أما مناسبة هذا الحديث فبحث عَنَّ لي عن الصحابي ذكوان بن عبد قيس ، التمست شيئاً عنه في الأعلام في طبعته الثالثة ، فلم أجد له ذكراً مع أنه من السابقين إلى الإسلام ، فهو عقبي بدري .

* * *

أنابيش وطرائف

ما الفائدة ؟ *

لقارىء أن يتساءل ما الفائدة في أمثال هذه البحوث ؟ وماذا تقدم للمجتمع العربي ؟ وهو على ما هو عليه .. وما يحيط به ؟ ثم أليست من قبيل السفسطة التي تبحث عن البيضة هل هي الأصل .. أم الدجاجة الأصل ؟

وأمثال هذا القارىء من الذين يطرحون هذه الأسئلة حينما يَغْشَوْن المجالس والمجتمعات فيسمعون ويرون الناس يتناقشون في المسائل العلمية والأدبية والفكرية .. وأين كانت ديار امرىء القيس ؟ ومن هي ليلى قيس ؟ وهل المجنون حقيقة أم خيال ؟ وهل كان مجنوناً حقيقة ، أم مجذوباً من مجاذيب الهوى ؟

هؤلاء يفهمون مسائل العلم والفكر والأدب والبحث فهماً خاطئاً ، ويقيسونها بمقاييس عجيبة لا تتفق وطبيعة الحياة ، فالحياة موكب حافل ، والناس جمهور هذا الموكب ، منهم القائد ، ومنهم المحارب ، ومنهم المفكر ، ومنهم العامل البسيط ، ومنهم الفقيه ، ومنهم الشاعر، ومنهم الفنان ، وكلٌّ ميسر لما خلق له ، فإذا أردنا أن نعطي مهمة هذا لذاك فقد قلبنا المعايير وأضعنا الركب وضللنا المسيرة .

والكُتّاب والباحثون والأدباء والشعراء والفنانون ، مرايا ذلك الموكب يعكسون لنا صورة جمهوره ، فللسياسة كُتّابها ، وللمجتمع كُتّابه ، وللفكاهة

* نشر في العدد (٧٩) من المجلة العربية ، الصادر في شعبان ١٤٠٤هـ = أيار (مايو) ١٩٨٤م .

كُتّابها ، وللبحث كُتّابه ، بل لكل نوع من أنواع البحث كُتّابه وطُلاّبه . ولا يمكن أن نطلب من هذا ما عند ذاك ، وإن فعلنا فمن يضمن لنا أن يجيد ، وهو غير مختص أو غير متمرس .

وكما أن في الحياة بائع خبز .. فإن فيها بائع زهور ، ولكلٍّ طُلاّب ولكلٍّ زبائن ، والحياة ليست خبزاً وحده .. إلا في حالة الاستنفار العام . أما وأن الحياة تسير مسارها الطبيعي ، فلكل قوم طريق ، ولكل طريق هواة ، ولو أردنا أن نطبق ما يقوله هؤلاء لأغلقنا المجامع اللغوية ومعاهد الفنون ، وجامعاتٍ وكلياتٍ وأسواقاً، بحجة أن كل هذه المرافق لا تحل قضايانا الاجتماعية أو قضايانا السياسية .

وهناك فرق كبير بين البحث الأدبي والتاريخي والعلمي ، وبين السفسطة التي تبحث في البيضة والدجاجة ، ذلك لأن هذه الأخيرة لا تؤدي إلى نتيجة ، والجدل فيها لمجرد شهوة الجدل ؛ أما البحث فغايته الوصول إلى هدف ، ليضيف هذا الهدف حقيقة ما إلى الأدب والتاريخ أو العلم .. فلندع الركب يسير .

* * *

الرشـــــام *

إذا تناولت كتاباً تقرأه .. وأعجبك فمضيت ، ثم توقفت عن القراءة وأردت أن لا يفوتك الحد مما تقرأه ، فالتمست ما يحفظ لك هذا الحد .. فماذا تعمل ؟ بعضهم يجد الكتاب مجلداً ، ويجد فيه شريطاً حريرياً متدلياً خاصاً لهذا الغرض ، فيضعه حزاً أو حداً حيث أراد ..

فإذا لم تجد فقد تضع قصاصة ورق ، أو جذاذة قماش أو بطاقة ما .. وفي أحسن الفروض قد تجد بعض ما يخصص لهذا الغرض من البلاستيك أو الجلد أو الورق المقوى .. والغربيون يعنون بهذا الشيء وتجده في أسواقهم إذا التمسته .

قلت : هذا الشيء .. ولم أسمه .. لأنني لم أجد له اسماً .. لم أجد له في ذاكرتي ، وإلا فالعربية لا تعدم له اسماً قديماً أو جديداً .

وصادف أن جرى في شأنه حديث بيني وبين الصديق العلأمة المغربي الدكتور عبدالهادي التازي ، فقال لي : نحن العرب في المغرب نسميه الرشام ، ووعد أن يرسل إليّ شيئاً مما كُتب (بضم الكاف) عنه .

وقد وفّى الصديق الكريم بما وعد ، فأرسل إليّ العدد ٣٣ من مجلة البحث العلمي ، وهي مجلة مغربية راقية لم أكن أعلم عنها شيئاً ، وما أكثر الآثار الجيدة التي تصدر في المغرب العربي ولا نعلم عنها - نحن المشارقة - شيئاً .

---

* نشر في العدد (٧٩) من المجلة العربية ، الصادر في شعبان ١٤٠٤هـ = أيار (مايو) ١٩٨٤م .

المجلة يصدرها المعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط ، وهو المعهد الذي يرأسه الآن الأستاذ الصديق التازي ، وهي في سنتها الثامنة عشرة !

ولقد وجدت علامة من هذه العلامات التي أبحث عن اسمها في الصفحة ٢٠٤ مع كليمة صغيرة نشرتها المجلة داخل إطار عن (الرشام) ٠

فما هو هذا الرشام ؟ إنني أنقل النص الذي وجدته داخل الإطار :

« الرشام : عبارة عن فاصل بين ورقات الكتاب ، يجعله القارىء للدلالة على مكان توقفه قبل استئنافه القراءة ٠

ويسمى عند المغاربة رشاماً « بالشين المعجمة » ، لأنه يرشم ويعين مكان الوقوف ٠ وقد يسمى عند بعضهم « الدفة » لأنه يفصل بين منطقة ومنطقة من الكتاب ..» أ هـ ٠

* * *

الرَّقّـــاص *

أجدادنا في مخطوطاتهم لم يكونوا يرقمون الصفحات ، فكيف كانوا يرتبون تسلسل أوراق هذه المخطوطات أو تسلسل صفحاتها ؟

الذين اعتادوا على صحبة هذه المخطوطات أو الوقوف على بعضها يعلمون أنهم كانوا كلما انتهت ورقة وبدأوا ورقة جديدة وضعوا أول كلمة من أول سطر من الصفحة الجديدة في نهاية الصفحة السابقة في حاشيتها السفلى ، فإذا ما تداخلت الصفحات بسبب تمزق أو تناثر ، كانت هذه العلامة معينة على معرفة ترتيب صفحات الكتاب .

ومع وضوح هذه الطريقة إلا أنها لا تخلو من إشكال ، فقد يصادف أن تأتي كلمة واحدة بعينها في بداية أكثر من ورقة ، خاصة من تلك الكلمات التي يكثر تداولها مثل حروف الجر ، على و في و إلى ..إلخ ، أو من أسماء الإشارة ، وهنا يكون السياق هو المعين على معرفة الصفحة المقصودة ، وبعضهم يحتاط لذلك ، فيكتب إلى جوار الحرف الكلمة التي تليه .

لكن هل كان أولئك الأجداد يسمون هذه العلامة تسمية خاصة ، أو يطلقون عليها اصطلاحاً معروفاً لديهم أو على الأقل في أوساط الوراقين

---

* نشر في العدد (٨٣) من المجلة العربية ، الصادر في ذي الحجة ١٤٠٤هـ = أيلول (سبتمبر) ١٩٨٤م .

وناسخي الكتب ؟

لقد وجدت في مجلة (البحث العلمي) المغربية في العدد ٣٣ ص ١٨١ أن تلك الكلمة تعرف اصطلاحا باسم (الرقاص) .

ترى لماذا اختاروا لهذه العلامة وصف (الرقاص) بالذات ؟ ألأن هذه الكلمة تقفز من صفحة إلى أخرى وكأنها ترقص ؟

جاء في لسان العرب لابن منظور في المادة ما يفيد أن الرَّقَص بفتح الراء والقاف هو الارتفاع والانخفاض ، وكذلك تكون هذه الكلمة أو هذه العلامة تنخفض في صفحة لترتفع في أخرى .

* * *

الأطنــــوزة *

من الكلمات الشائعة في اللهجة العامية في نجد والخليج كلمة (تطنّز) بتشديد النون ، والمعنى تهكّم أو سخر . وقد ظللت مدة أتساءل - بيني وبين نفسي - هل لهذه الكلمة أصل في الفصحى ؟ حتى اطلعت في (خزانة الأدب) للبغدادي (ت ١٠٩٣ هـ) في الكلام على الشاهد النحوي ٦١ [جـ ١/٣٨٧] وهو قول الشاعر :

إذا المرءُ لم يغشَ الكريهةَ أوشكت حبال الهوينى بالفتى أن تَقَطّعا

نقله عن ابن رشيق في العمدة : « قوله بالفتى (حشو) ؛ وكان الواجب أن يقول : (به) ، لأن ذكر المرء قد تقدم ؛ إلا أن يريد بالفتى معنى الزراية والأطنوزة ، فإنه محتمل » أهـ . وعقّب البغدادي على هذا (التخريج) بأنه تخيل دقيق !

وكما نرى فقد أورد ابن رشيق كلمة (الأطنوزة) مرادفة للزراية .. وهي نوع من التهكم والسخرية . فلفتت الكلمة نظري ، ولفته أيضاً تعليق ورد في الهامش للأستاذ عبدالسلام هارون يرحمه الله ، وهو محقق الخزانة ، يقول فيه عن (الأطنوزة) : (يعني الطنز والسخرية ، وهذه الكلمة لم ترد في المعاجم

---

* نشر في العدد (١١٠) من المجلة العربية ، الصادر في ربيع الأول ١٤٠٧هـ = تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٦م .

المتداولة) . أهي حقاً لم ترد في المعاجم المتداولة ؟

وعنّ لي أن أبحث وأن أشرك القارىء معي في البحث ..

ابن رشيق صاحب العمدة من أدباء القرن الخامس الهجري ، فقد توفي سنة ٤٥٦هـ ، أي أن الكلمة معروفة منذ ذلك العهد ، والنسخة التي بين يدي من العمدة من تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبدالحميد - يرحمه الله - الطبعة الثانية سنة ١٣٧٤هـ ، والنص عنده كما أورده البغدادي تماماً ، وقد ورد في باب الحشو وفضول الكلام ٢/ ٧٠ ، ولم يدع المحقق كلمة (الأطنوزة) تفلت من بين يديه ، فقد شرحها قائلا : (الأطنوزة : من الطَّنْز ، بفتح الطاء وسكون النون ، وفي آخره زاي ، وهو من السخرية ، وباب فعله نصر ، والرجل طَنَّاز - بالفتح وتشديد النون - قال صاحب المختار : وأظنه مولداً أو معرباً) .

وكما نرى فقد رجع الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد إلى مرجع أو معجم متداول هو (مختار الصحاح) .

ومختار الصحاح معجم صغير مختصر اختصره محمد بن أبي بكر الرازي المتوفى بعد سنة ٦٦٦هـ من معجم كبير هو الصحاح .. والنص عنده كما ذكره محقق العمدة .

ولكن من الحزم أن نرجع إلى معجم (الصحاح) نفسه ، وهو لإسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى سنة ٣٩٣ هـ ، فماذا قال عن طنز ؟ قال باختصار شديد : (طنز يطنز - بضم النون وكسرها - فهو طناز . وأظنه مولداً أو معرباً) .

وهكذا ذهب ظنه إلى أن الكلمة مولدة أو معربة ، ولكنه لم يجزم بأنها مولدة .. ولم يتخط الظن إلى اليقين .. وليس الظن كاليقين ..

أما صاحب (لسان العرب) أعني ابن منظور ، المتوفى سنة ٧١١ هـ فقال

في المادة : طنز ، يطنِز - بكسر النون - طنْزاً (بسكونها) كلَّمهُ باستهزاء فهو طناز) ، ثم أورد ما قاله الجوهري ، وقال بعده : الطنز : السخرية ، وفي نوادر الأعراب : هؤلاء قوم مدنقه ودُناق ومطنزة ، إذا كانوا لا خير فيهم ، هينة أنفسهم عليهم) أهـ .

وصاحب تاج العروس محمد مرتضى الزبيدي المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ ، أورد ما ذكره صاحب القاموس الفيروزآبادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ ، فقال : (الطنز) بالفتح (السخرية) نقله الصاغاني . ويقال (طنز به) يطنز (فهو طناز) كشداد أي سخر به . وقال الجوهري : أظنه مولداً أو معرباً .. إلخ .. واستدرك على القاموس فقال : طانزه مطانزة ، وتطانزوا ، وشارع الطنز ببغداد .. إلخ ..

هذا في المعاجم القديمة المتداولة ..

وقد جاءت في المعاجم الحديثة المتداولة كمتن اللغة ، والمنجد ، والمعجم الوسيط ، وهذا الأخير جزم بأنها مولدة .. ولا أدري ما مستنده في ذلك ، إلا أن يكون مجرد (الظن) الذي ذهب إليه الجوهري صاحب الصحاح ؟

إذن فالكلمة موجودة في المعاجم القديمة والحديثة ، ويظل القول بأنها دخيلة مجرد ظن .

بقيت كلمة موجزة عن الشاعر صاحب هذا الشاهد ، فهو الكَلْحَبة العَريني (هُبيرة بن عبد الله التميمي اليربوعي ، شاعر جاهلي من فرسان تميم وساداتها ، ومن قصيدته التي فيها بيت الشاهد يقول :

أمرتكم أمري بمنعَرَج اللِّوى ... ولا أمرَ للمَعْصيِّ إلا مضيَّعا

وفيها يقول :

وقلت لكأسٍ : ألجميها فإنما ... نزلنا الكثيبَ من زَرُود لِنَفْزَعا

وكأس ، اسم جارية ، وقد استعمل الشاعر لفظه لنفزعا من الفزعة وهي النجدة بالمعنى نفسه المستعمل الآن في العامية .. وقد التفت إلى ذلك الأستاذ الزركلي لدى ترجمته له ، وذكر في الهامش مصادر الترجمة .

ومعنى الكَلْحبة : صوت النار ولهبها - وهو بفتح الكاف ، وسكون اللام وبعدها حاء مهملة فباء موحدة - .. أي أن الشاعر كان (ملتهباً) .

* * *

البسط *

مما وقفت عليه في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ { ج ١٠٨/٢ } ما رواه الزبير بن بكار ، عن عمه مصعب بن عبدالله ، عن جده (أي عبد الله بن مصعب الزبيري) قال : أتينا ابن ميادة نتلقى منه الشعر . فقال لنا : هل لكم في فضل شنة ؟ فظنناها تمراً . فقلنا له : هات ؛ لنبسطه بذلك .. فإذا شنة فيها فضلة من خمر قد شرب بعضها وبقي بعض ! فلما رأيناه قمنا وتركناه ..

والشاهد الذي أريد ذكره في هذا النص ، قوله (لنبسطه) .. أي لنسره ، وهذا هو نفس اللفظ الذي لا يزال متداولاً في عاميتنا الدارجة ، فالانبساط هو الانشراح .. وهو المعنى اللغوي المعجمي .. أي أن الكلمة من الفصيح .. ولكن بلغني أن العامية العراقية تجعل البسط بمعنى الضرب أي أن المبسوط (يأكل علقه ساخنة) لا يخرج منها إلا وهو (مجعلك) غير مبسوط ، إلا أن يكون المقصود البسط العراقي أي أن يكون هو والأرض سواء ، أي مطروحا عليها كما يطرح (البساط) نسأل الله العافية والسلامة .

كما يبدو أن البسط أنواع ، فهناك في العامية (البسط الأحمدي) ؛ ترى

---

* نشر في العدد (١١٢) من المجلة العربية ، الصادر في جمادى الأولى ١٤٠٧هـ = كانون الثاني (يناير) ١٩٨٧م .

من هو هذا أحمد الذي عُزي إليه هذا البسط . ؟ ترى هل يكون صديق أبي نواس ؟

على أية حال لقد جامل عبد الله بن مصعب الشاعر ابن ميادة فأراد أن يأكل من تمره ليبسطه ، ولكن الشاعر كان يعد لضيوفه نوعاً آخر من البسط لم يخطر لهم على بال ، وهو بسط لا تحمد عقباه ولا آخرته .. ولو علم عنه المحتسب لبسطه بسطاً عراقياً ..

* * *

حكماء كرمان *

أثناء مراجعتي لمادة (كرمان) في (معجم البلدان) لياقوت الحموي ، وجدت هذه القصة (الأسطورة) التي نقلها عن (ابن الفقيه) ، فأحببت أن أنقلها - طرفة - لقرائي ..

« يقال : إن بعض ملوك الفرس ، أخذ قوماً فلاسفة ، فحبسهم .. وقال : لا يدخل عليهم إلا الخبز وحده ، وخيّروهم في أدم واحد ، فاختاروا (الأترج) ، فقيل لهم : كيف اخترتموه دون غيره ؟ فقالوا : لأن قشره الظاهر مشموم ، وداخله فاكهة ، وحُمّاضه أدم ، وحبه دهن ، فأمر بهم فأسكنوا (كرمان) ، وكان ماؤها في آبار ، ولا يخرج إلا من خمسين ذراعاً فهندسوه ، حتى أظهروه على وجه الأرض ، ثم غرسوا بها الأشجار ، فالتفت (كرمان) كلها بالشجر ، فعرف الملك ذلك ، فقال : أسكنوهم الجبال ، فأسكنوها ، فعملوا الفوارات ، وأظهروا الماء على رؤوس الجبال ! فقال الملك : اسجنوهم ، فعملوا في السجن الكيمياء ، وقالوا : هذا علم لا نخرجه إلى أحد ، وعملوا منه ما علموا أنه يكفيهم مدة أعمارهم ، ثم أحرقوا كتبهم وانقطع علم الكيمياء » اهـ .

---

* نشر في العدد (٨٢) من المجلة العربية ، الصادر في ذي القعدة ١٤٠٤هـ = آب (أغسطس) ١٩٨٤م .

فهرس الأعلام المترجمين

(مرتب على أحرف الهجاء)

الاسم	رقم الصفحة

أمية .. سبعة شعراء :

أمية بن حرثان بن الأسكر الكناني ١٣٧
أمية بن خلف الجمحي ١٤٠
أمية بن خلف الخزاعي ١٣٨
أمية بن أبي الصلت ١٣٥
أمية بن أبي عائذ الهذلي ١٣٦
أمية بن عبد شمس ١٤٠
أمية بن كعب المحاربي ١٣٨

جرير ..سبعة [٢+] :

جرير بن الحرقاء - أو الخرقاء - العجلي ١٢٦
جرير بن سهم التميمي ١٢٩
جرير بن عبدالله البجلي ١٢٥
جرير بن عبدالله ، أحد بني عامر بن عقيل ١٢٥
جرير بن عبدالمسيح الضبعي (المتلمس) ١٢٧
جرير بن عطية بن الخطفى ١٢٥
جرير بن الغوث بن مردان ، أخو بني كنانة بن القين ١٢٧
جرير - وقيل : جزء ، أو جري ، أو حري - بن كليب الفقعسي ١٢٧
جُرَير - بضم الجيم وفتح الراء - أبو مالك المدلجي ١٢٨

الاســـــم	رقم الصفحة
أبناء [1] جرير	١٣١
جعفر الخليلي	٢٠٧
حبـابـــة	١٨١
أبو [1] حذيفة البخاري	٩٩
ذو الخِرَق الطُهَـــوي	١٠٧
الرَّضي الأَسْتَرابـاذي	١٠١
زكـــي مبـــارك	٢١٥
سُحَيم بن الأعرف ، أبو سدرة الهُجَيمي	١٦٣
سُحَيم بن وَثيل الرياحي	١٤٣
السهيلي(أبو القاسم ، عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد)	٧١
سوَّار العنبري (سوَّار بن عبدالله العنبري)	٨٩
أبو [1] الشمقمـــق	١٦٩
صاحب [1] الشمقمقية : انظر ابن الونّان	١٦٧
شـــوقـــي	١٩٥
الطالبي (عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر الهاشمي الطالبي)	١٧٣
طريف العنبري (طريف بن تميم العنبري)	٩٣
عبدالحكم بن عمرو بن عبدالله بن صفوان الجمحي	١٨٥
العـــقـــاد	١٩٥
ابن [1] فورَّجة (محمد بن حمد - أو حمد بن محمد - ابن فورَّجة)	١١٣
الكرماني (أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله الكرماني)	٧٥
الشيخ [1] محمد الحافظ	١٨٩
ابن [1] الونان (أحمد بن محمد بن محمد ، ابن الونّان) صاحب الشمقمقية	١٦٧

(١) لم نعتبر كلمة « أبناء » ، ولا « أبو » ، ولا « صاحب » ، ولا « ابن » ولا « الشيخ » عند الفهرسة .

فهرس المحتويات

الموضـــــوع	رقم الصفحة
كلمة الناشر	٧
صورة فوتوغرافية من إحدى رسائل المؤلف للدار بخصوص الكتاب	١٠
مقدمة المؤلف	١٣
على هامش السيرة	**١٥-٥١**
في وصف الرسول ﷺ	١٧
أم عمارة في خيبر	٢١
في حراسة الرسول ﷺ	٢٧
كعب بن مالك .. أي الروايتين .. ؟	٣١
حلف عبـدالمطلـب	٣٥
مهاجرون وأنصار	٣٧
النبي ﷺ يستعذب الماء	٣٩
رومـــــة	٤٣
بئر رومة .. بئر عربية أرضاً واسماً ، للأستاذ محمد محمد حسن شراب	٤٦
مـــدن	**٥٣ - ٦٨**
المكـــلا	٥٥
مالقا .. وملقا .. وملتقى	٥٩
سهيـــل	٦٣

الموضـــــوع	رقم الصفحة
الأعـــــلام	**٦٩-٢٣٣**
السهيلـــــــي	٧١
من هو الكرماني ؟	٧٥
صدى الكناشة : الكرماني وكتابه ، للأستاذ : محمود السيد الدغيم	٨١
سوار العنبـــــري	٨٩
طـريف العنبـــري	٩٣
أبو حذيفة البخـاري	٩٩
الرضي الأسْتَراباذي	١٠١
ذو الخِرَق الطُّهـــوي	١٠٧
ابـن فـورَّجـــــة	١١٣
حول ابن فورَّجة ، للأستاذ مروان العطية	١١٩
جرير .. سبعـــة	١٢٥
أبنـــاء جريـــر	١٣١
أمية .. سبعة شعـــراء	١٣٥
سُحيم بن وثيل الرياحي	١٤٣
سُحيم بن الأعرف أبو سدرة الهُجَيمي	١٦٣
صاحب الشمقمقية ، وأبو الشمقمـق	١٦٧
الطالبي .. وعين الرضا	١٧٣
بـين حبـــابتـــين	١٨١
النادي الثقـافي الأول	١٨٥
الشيخ محمد الحافـظ	١٨٩
شوقي والعقـــــاد	١٩٥
بين الرفاعي والعقاد وشوقي .. كلمة في إثر كلمات ، للأستاذ عامر العقاد	١٩٧
هل عدل العقاد عن رأيه فـي شوقي ؟ للأستـــاذ عبـدالمجيـد شبكشـي	٢٠٢

الموضـــــوع	رقم الصفحة

هكذا عرفتهم [جعفر الخليلي]	٢٠٧
الأستاذ الخليلي كما عرفته ، للأستاذ صالح محمد جمال يرحمه الله	٢١٣
تقييدات عن .. زكي مبارك	٢١٥
زكي مبـــارك في باريـــس	٢٢١
زكي مبارك في باريس أيضاً	٢٢٧
من حديث الكتب	**٢٣٥-٢٧٨**
خـــزانـــة الأدب	٢٣٧
كتاب « عبث الوليد »	٢٤٣
على حواشي الروض (١)	٢٤٩
على حواشي الروض (٢)	٢٥٧
على حواشي الروض (٣)	٢٦٣
كتاب « فتوح الشام »	٢٦٩
في غيابة الجـــب	٢٧٣
فـــوات « الأعـــلام »	٢٧٧
أنابيش وطرائف	**٢٧٩-٢٩٣**
ما الفائـــدة ؟	٢٨١
الرشـــــام	٢٨٣
الرقّـــــاص	٢٨٥
الأطنـــوزة	٢٨٧
البســـــط	٢٩١
حكماء كرمان	٢٩٣

ردمك : ٥-٥٠-٦٦٢-٩٩٦٠

